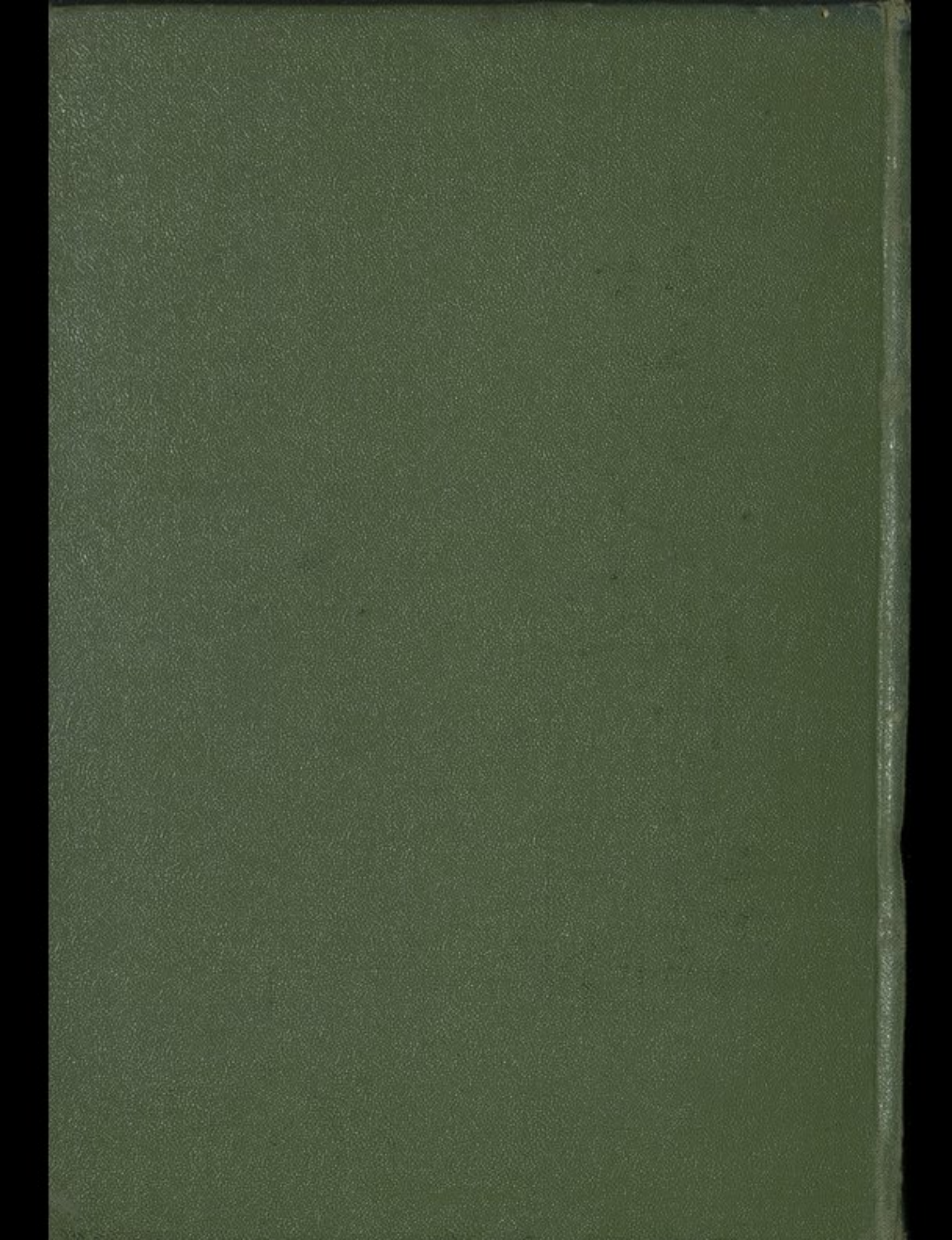




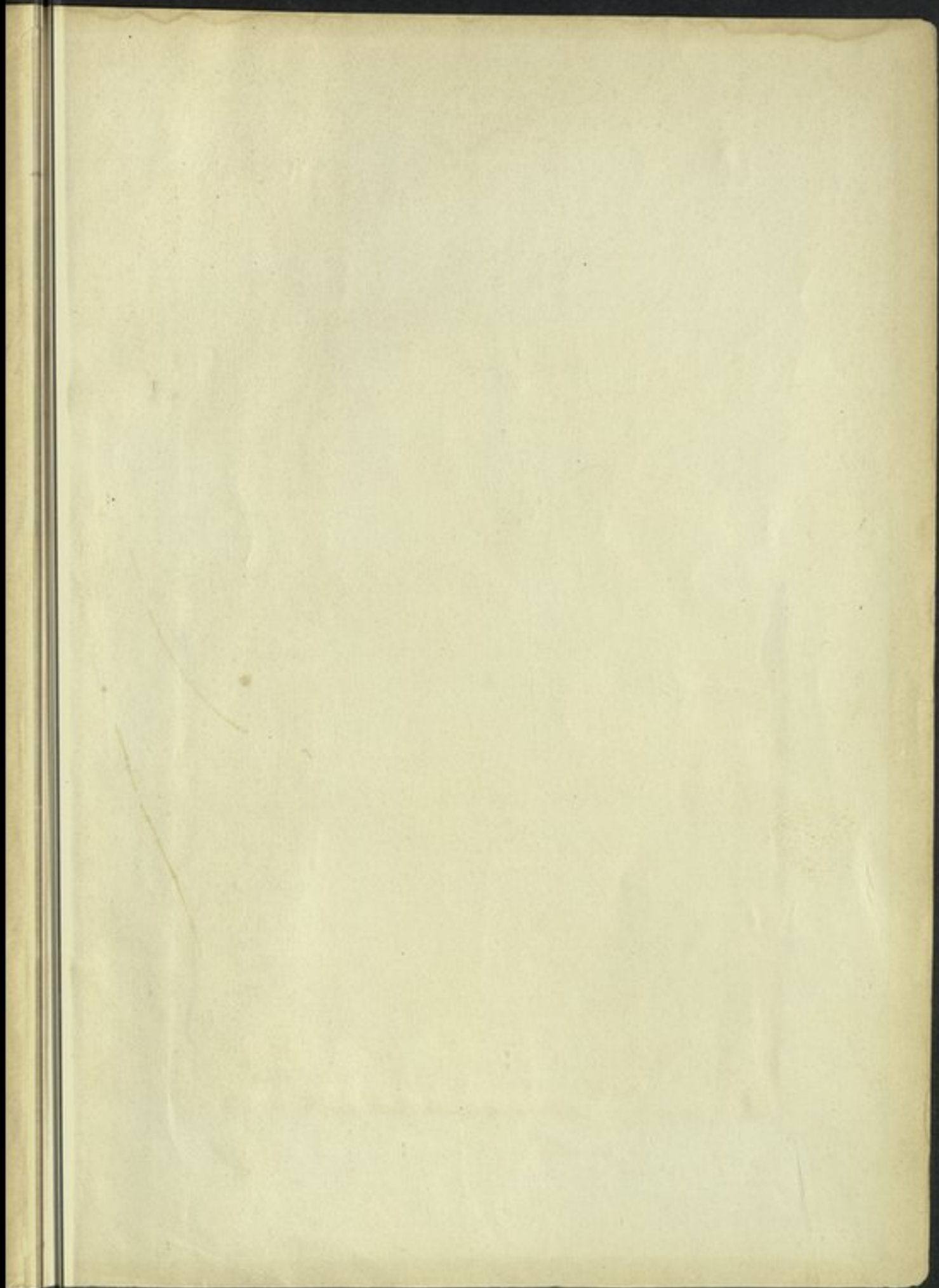
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



تجليد صالح الدقر

تلك ٢٢٩٥٧





277
H 41A
جماعة الأزهري للنشر والتأليف

909.09767
N138m
1951
C.1

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

تأليف

السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي
وكيل ندوة العلماء بالهند

الطبعة الثانية

« مزيدة منقحة »

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي
١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م

لقد أحس صديقنا الفاضل أبو الحسن ما نحسه جميعاً في حسرة بالغة وألم شديد ، وهو ما ارتضته الدول الإسلامية لنفسها من السير في المؤخرة وراء العالم الغربي ؛ تميل إلى ما يميل ، وتقبل حكمه فيما يعرض له من شئونها ، وترضى ما يقره من « قيم » حسب موازينه الخاصة به . وكان من هذا أن فقد العربي — والمسلم بعامة — ثقته بنفسه وجنسه ودينه ومعاييره ، وقيمه العالية التي كان يحرص عليها أجداده وأسلافه الأماجد ، ويحلوونها من أنفسهم المكان العلى المرموق . وهذه علتنا التي يجب أن نطب لها ، وفي ذلك تتركز مشكلتنا أو مشاكنا التي يجب علينا أن نجد الحل الناجع لها من صميم ديننا وتاريخنا وتراثنا الروحي والعقلي الخالد . وإلى هذا كله نظر مؤلف كتاب : « ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين » ، وإليه جميعه عن نفسه وعمل جهده .

حقاً ، ليست مشكلة العالم الإسلامي اليوم في عدم الدعوة للإسلام بين غير المسلمين ، ولا في اكتساب مسلمين جدد ، وإنما هذه المشكلة هي انصراف المسلمين عن الإسلام وعن الشرق إلى الغرب بحضارته وقيمه التي يدعو إليها وموازينه التي بها يزن الأمور . ومن ثم ، صرنا مسلمين بالاسم والولادة والموقع الجغرافي لحسب ، وعزفنا عن الإسلام بالفعل ، حتى أصبحنا ولا نعرفه في تشريعنا وتقاليدنا التي تأخذ هذه الأيام أنفسنا بها ، ولنا في حاجة في هذا لضرب الأمثال التي نحسها ونلصقها جميعاً في رجال الحكم ، وفي ممثلي البلاد الإسلامية في الشرق والغرب ، وفيمن يجب أن يكونوا القدوة الطيبة بحكم مناصبهم الدينية في مصر وغير مصر ، والأمر لله من قبل ومن بعد ! .

لقد اختتم الله بالإسلام رسالاته للعالم ؛ فليس لنا أن ننتظر اتصالاً جديداً من السماء بالأرض يطهرها مما كاد يعمها من شرك وضلال وفساد ، ولا نبياً آخر بعد رسول الإسلام ، يخرج العالم برسالة جديدة من الظلمات إلى النور ، ولا قرآناً جديداً يهدي الإنسانية الحائرة إلى سبيل الرشd والسعادة . ولكن الله الرحمن الرحيم ترك فينا بعد هذا ، أو بسبب هذا ، كتاباً لن يضل من اتبعه ، وشرية لن يشقى من عمل بها . وكل ما يجب أن نعمل له ، لنخرج والعالم كله من هذه الجاهلية التي احتوتنا من جميع الأطراف ، هو إعادة الثقة بديننا حتى يكون أساس حياتنا في كل مقوماتها ، وليس لنا أن نطلب من أحد أن يؤمن بهذا الدين قبل أن نؤمن نحن أولاً به ، ولن يكون هذا الإيمان إلا بالندوة الطيبة الصالحة تقدمها للناس جميعاً .

إن العالم ، وهذا أمر لمناه بانفسنا لمساً بأوروبا ، يتخذ من فشل المسلمين سياسياً واقتصادياً دليلاً حاسماً على عدم صلاح الإسلام لقيادة المسلمين بله العالم كله ! مع أن هذا

العالم المسيحي نفسه ، حين كان المسلمون مسلمين حقا من ناحية العقيدة والعمل على السواء ، قد تزعزع عن مسيحيتهم عندما شاهدوا ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح متقطع النظير ، إذ اعتقدوا — بحق — أن نجاح المسلمين هذا دليل قاطع على صدق دينهم ، مادام الله لا يؤتي نصره إلا لعباده المختارين ^(١).

وليس ما نقول ، من أثر القوى الطيبة الصالحة في الدعوة للإسلام ، بالقول الذي لا يركز على دليل وشواهد من التاريخ الصحيح . إن صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام نفسه يذكر ما يأتي حرفيا :

« ويظهر أن أخلاق صلاح الدين ، وحياته التي انطوت على البطولة ، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرا سحريا خاصا ؛ حتى إن نفرا من الفرسان المسيحيين ، قد بلغ من قوة انجذابهم إليه ، أن هجروا ديانتهم المسيحية ، وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين ، وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية فارس الإنجليزي من فرسان المعبد يدعى ، روبرت أوف سانت ألبان Robert of ST. Albans عام ١١٨٥ م واعتنق الإسلام ، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين ، وبعد عامين غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة حطين ، وكان لجوي guy ملك بيت المقدس بين الأسرى .

وحدث في مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه ، وفروا إلى معسكر صلاح الدين بمحض إرادتهم » ^(٢).

هذا شاهد من الشواهد التي لا تحصى كثرة ، والتي تزخر بها كتب التاريخ في القديم والحديث ، ومنها نعلم أثر القدوة الطيبة في النفوس ، حتى في نفوس غير المسلمين الذين كنا نراهم . خصوما لنا وأعداء ؛ ومنها نعلم أيضاً سبباً من الأسباب القوية التي يسَّرت للمسلمين ما فتح الله عليهم من فتوح ، وماظفروا به من أمجاد .

إن هذا الإسلام لا يصلح اليوم إلا بما يصلح به في الأمس ، إيمان به إيماننا بخالط شغاف قلوب المؤمنين ، واستعذاب للتضحية في سبيله بما يعتز به المرء من مال ونفس ، واعتزاز لما جاء به من تشاريع ومبادئ وتقالييد صالحة لإنهاض العالم وإسعاده ، ودعوة له بالعمل الصالح والقوى الطيبة ، وعدم القضاء إلا بحكمه ، وجعل الحياة في كل جوانبها لائقوم إلا عليه .

(١) انظر في هذا كتاب الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد الإنجليزي المعروف ، من ٧ من الترجمة العربية ، للدكتور حسن إبراهيم وآخرين .

(٢) ص ٨٢ — ٨٣ من الكتاب المذكور .

علينا إذا أردنا أن نأخذ مكاننا من جديد في قيادة الإنسانية ، أن نعتقد — اعتقاداً حقاً يظهر أثره في كل ما نقول أو نعمل — ما يراه شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال من أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ، ويسير الركب البشرى حيث أتجه وسار ؛ بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، وعلى عليها إرادته ، لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ، ولأنه المسئول عن هذا العالم وسيره واتجاهه فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ؛ إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ، ومقام الإرشاد والتوجيه ، ومقام الأمر والنهي ، وإذا تنكر له الزمان ، وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره وبسلم الدهر ؛ بل عليه أن يثور عليه وينازله ، ويظل في صراع معه وعراك ، حتى يقضى الله في أمره . إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام ، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد^(١) .

وبعد ، ماذا أريد أن أقول بعد ذلك في هذه الكلمة التي أحسبها طالت بعض الشيء في تقديم كتاب هو بنفسه وبكاتبه غنى عن كل تقديم كما قلت في أول الحديث ؟ إنى — علم الله — لست أذكر فيما قرأت من القديم والحديث كتاباً حوى من الخير ما حواه هذا الكتاب ، ولا كتاباً وضع أيدينا على دواء ما نشكو منه من أدواء وأمراض كما فعل هذا الكتاب ، ولا كتاباً نفذ كاتبه إلى روح الإسلام ، وأخلص ويخلص في الدعوة له ، ويقف كل جهوده على هذه السبيل كهذا الكتاب .

علينا إذاً أن نفيد من هذا الكتاب ، ومن الوسائل التي يدعو مؤلفه الفاضل لاصطناعها ، لنصل إلى النهضة الرجوة ، والكرامة والمجد في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى ، وذلك ما لا يكون لنا إلا إذا غيرنا من أوضاع التعليم ومناهجه وغاياته عندنا ، وإلا إذا جعلنا همنا تربية النشء على أسس إسلامية صحيحة ، وجعلنا الغاية من التربية والتعليم عندنا النهضة بالعالم الإسلامى حتى يصل إلى ما يجب أن يكون له من مكانة ملحوظة في هذا العالم ، واصطنعنا لهذا الوسائل الناجعة حقاً .

إن هذا ، حين يتم ، إن أراد الله لأمة الإسلام إفاقة من نومها ونهضة من كبوتها ، يجعل من تلاميذ اليوم رجالات مسلمين حقاً في المستقبل ، يحسنون تصريف شئون الأمة حين توضع أمور الأمة بين أيديهم ، يجعل منهم رجالاتاً شجعاناً أمناء لدينهم وأمتهم ، لا هم لهم في حياتهم إلا إعادة مجد الإسلام والعالم الإسلامى .

(١) من بحث للأستاذ أبي الحسن الندوى نفسه ، عنوانه : شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، ص ٦٦ — ٦٨ .

والوسائل الناجعة للوصول إلى تلك الغاية المحيطة من التربية والتعليم جد كثيرة ومعروفة إن أردناها ، ولكن يحسن أن نختم هذه الكلمة بقبس من كلام الأستاذ أبي الحسن الندوي نفسه إنه يقول :

« والقرآن وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان ، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي وتجعلا من أمة مستسلمة منخلة ناعسة أمة فتية ملتبهة حماسة وغيره وحقاً على الجاهلية وسخطاً على النظم الخائرة ، إن علة علل العالم الإسلامي اليوم هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها ، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة ، والتبذير الزائد في الحياة ؛ فلا يقلقه فساد ، ولا يزعجه انحراف ، ولا يهيجه منكر ، ولا يهيمه غير مسائل الطعام واللباس ، ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية ، إن وجدا إلى القلب سييلا ، يحدث صراع بين الإيمان والنفاق ، واليقين والشك ، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة ، وبين راحة الجسم ونعيم القلب ، وبين حياة البطالة وموت الشهادة ، صراع أحدثه كل نبي في وقته ولا يصلح العالم إلا به ، حينئذ يقوم في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، في كل أسرة إسلامية ، فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً . هنالك تفوح روائح الجنة ، وتهب نفحات القرن الأول ، ويولد للإسلام عالم جديد لا يشبه العالم القديم في شيء » !

من هذه الكلمات التي قبسناها من هذا الكتاب الذي نكتب هذا التقديم له ، زى أي روح كبيرة أملت على المؤلف ما كتب ! نفع الله به وبكل آثاره ، وجزاه عن الإسلام وأمته خير الجزاء .

الدكتور محمد يوسف موسى

مقدمة

بقلم الباحث الإسلامى الأستاذ سید قطب

ما أحوج المسلمين اليوم إلى من يرد عليهم إيمانهم بأنفسهم ، وثقتهم بماضيهم .
ورجاءهم في مستقبلهم . . وما أحوجهم لمن يرد عليهم إيمانهم بهذا الدين الذى يحملون
اسمه ويحجلون كنهه ، يأخذونه بالورثة أكثر مما يتخذونه بالمعرفة .

وهذا الكتاب الذى بين يديّ : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » لمؤلفه
« السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى » من خير ما قرأت فى هذا الاتجاه ، فى
القديم والحديث سواء .

إن الإسلام عقيدة استعلاء ؛ من أخص خصائصها أنها تبعث فى روح المؤمن بها
إحساس العزة من غير كبر ، وروح الثقة فى غير اغترار ، وشعور الاطمئنان فى غير
تواكل . وأنها تشعر المسلمين بالتبعية الإنسانية الملقاة على كواهلهم ، تبعة الوصاية على هذه
البشرية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتبعة القيادة فى هذه الأرض للقطعان الضالة ،
وهدايتها إلى الدين القيم ، والطريق السوى ، وإخراجها من الظلمات إلى النور بما
آتاهم الله من نور الهدى والفرقان : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ... « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا
شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وهذا الكتاب الذى بين يديّ يثير فى نفس قارئه هذه المعانى كلها ، وينفث فى
روعه تلك الخصائص جميعها ، ولكنه لا يعتمد فى هذا على مجرد الاستشارة الوجدانية
أو العصبية الدينية ، بل يتخذ الحقائق الموضوعية أداته ، فيعرضها على النظر والحس
والعقل والوجدان جميعاً ؛ ويعرض الوقائع التاريخية والملابسات الحاضرة عرضاً
عادلاً مستتيراً ؛ ويتحاكم فى القضية التى يعرضها كاملة إلى الحق والواقع والمنطق
والضمير ، فتبدو كلها متساندة فى صفه وفى صف قضيته ، بلا تمحل ولا اعتساف فى
مقدمة أو نتيجة . وتلك مزية الكتاب الأولى .

إنه يبدأ فيرسم صورة سريعة — ولكنها واضحة — لهذا العالم قبل أن تشرق
عليه أنوار الإسلام الأولى . يرسم الصورة لهذا العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، من

الهند والصين إلى فارس والروم ، صورة المجتمع وصورة الضمير في هذه الدنيا العريضة ، في الجماعات التي تظلمها الديانات السماوية كاليهودية والمسيحية ، والتي تظلمها الديانات الوثنية كالهندوكية والبوذية والزرادشتية ... وما إليها ...

إنها صورة جامعة تعرض رقعة العالم وتصفها وصفا بينا ، لا يعتسف المؤلف فيه ، ولا يستبد به ، إنما يشرك معه الباحثين والمؤرخين من القدامى والمحدثين ، ممن يدينون بغير الإسلام ؛ فلا شبهة في أن يكونوا مغرضين له ، وللدور الذي أداه في ذلك العالم القديم .

إنه يصف العالم تسيطر عليه روح الجاهلية ، ويتعفن ضميره ، وتأسن روحه ، وتختل فيه القيم والمقاييس ، ويسوده الظلم والعبودية ، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس ، وتغشاها غاشية من الكفر والضلال والظلام ، على الرغم من الديانات السماوية ، التي كانت قد أدركها التحريف ، وسرى فيها الضعف ، وفقدت سيطرتها على النفوس ، واستحالت طقوسا جامدة لا حياة فيها ولا روح ؛ وبخاصة المسيحية .

... فإذا فرغ المؤلف من رسم صورة العالم في جاهليته هذه بدأ يعرض دور الإسلام في حياة البشرية . دوره في تخليص روح البشر من الوهم والخرافة ، ومن العبودية والرق ، ومن الفساد والتعفن ، ومن القذارة والانحلال . ودوره في تخليص المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان ، ومن التفكك والانحيار ، ومن فوارق الطبقات واستبداد الحكام واستذلال الكهان ، ودوره في بناء العالم على أسس من العفة والنظافة والإيجابية والبناء ، والحرية والتجدد ؛ ومن المعرفة واليقين ، والثقة والإيمان ، والعدالة والكرامة ، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة وترقية الحياة ، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة .

كل أولئك في إبان الفترة التي كانت القيادة فيها للإسلام في أي مكان ، والتي كانت الإسلام فيها يعمل وهو لا يستطيع أن يعمل إلا أن تكون له القيادة ، لأنه بطبيعته عقيدة استعلاء ، ومنهج قيادة ، وشرعة ابتداع لا اتباع .

ثم تحيى الفترة التي فقد الإسلام فيها الزمام ، بسبب انحطاط المسلمين ، وتخليصهم عن القيادة التي يفرضها عليهم هذا الدين ، والنوصاية التي يكلفهم بها على البشرية ، والتبعات التي ينوطها بهم في كل اتجاه .

وهنا يستعرض المؤلف أسباب هذا الانحطاط الروحية والمادية ، ويصف ما حل بالمسلمين أنفسهم عندما تخلوا عن مبادئ دينهم ، ونكصوا عن تبعاتهم ، وما نزل بالعالم

كله من فقدانه لهذه القيادة الراشدة ، ومن انتكاسه إلى الجاهلية الأولى ، ويرسم خط الانحدار الرهيب الذي ترتكس فيه الإنسانية في ذات الوقت الذي تفتح فيه آفاق العلم الباهرة . يرسم هذا الخط عن طريق التأمل الفاحص ، لا بالجلل النارية والتعبيرات المجنحة فالحق، أيق الواقعية كما عرضها المؤلف غنية عن كل بهرج وكل تزويق .

ومن خلال هذا الاستعراض يحس القارىء بمدى الحاجة البشرية الملحة إلى تغيير القيادة الإنسانية ، وردها إلى الهدى الذى انبثق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى المعرفة ، ويشعر بالقيمة السكينة لوجود هذه القيادة فى الأرض، وبمدى الخسارة التى حلت بالبشر جميعاً ، لا بالمسلمين وحدهم فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل القريب والبعيد . .

كذلك يثور فى نفس المسلم بصفة خاصة روح الندم على ما فرط ، وروح الاعتزاز بما وهب ، وروح الاستشراف إلى القيادة التى ضيع

ولعله مما يلفت النظر تعبير المؤلف دائماً عن النكسة التى حاقت بالبشرية كلها منذ أن عجز المسلمون عن القيادة بكلمة « الجاهلية »

وهو تعبير دقيق الدلالة على فهم المؤلف للفارق الأصيل بين روح الإسلام ، والروح المادى الذى سيطر على العالم قبله ، ويسيطر عليه اليوم بعد تخلى الإسلام عن القيادة ... إنها « الجاهلية » فى طبيعتها الأصلية ، فالجاهلية ليست فترة من الزمن محدودة ، ولكنها طابع روحى وعقلى معين ، طابع يبرز بمجرد أن تسقط القيم الأساسية للحياة البشرية كما أرادها الله ، وتخل محلها قيم مصطنعة تستند إلى الشهوات الطارئة وهذا ما تعانيه البشرية اليوم فى حالة الارتقاء الأولى ، كما كانت تعانيه من قبل فى أيام البربرية الأولى .

« فرسالة العالم الإسلامى هى الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر ، وجائزته هى الخروج من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . وقد ظهر فضل هذه الرسالة ، وسهل فهمها فى هذا العصر أكثر من كل عصر ، فقد افتضحت الجاهلية ، وبدأت سوءاتها للناس ، واشتد تدمير الناس منها ، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام ، لو نهض العالم الإسلامى ، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة ، ودان بها كالرسالة الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال » ... كما يقول المؤلف الفاضل قرب نهاية الكتاب .

وأخيراً فإن الحضيصة البارزة في هذا الكتاب كله هي الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في محيطها الشامل ، وهو لهذا يعد نموذجاً لا للبحث الديني والاجتماعي فحسب ، بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية .

لقد مضى الأوروبيون يؤرخون للعالم كله من زاوية النظر الغربية ، متأثرين بثقافتهم المادية ، وفلسفتهم المادية ، ومتأثرين كذلك بالعصبية الغربية والعصبية الدينية — شعروا بذلك أم لم يشعروا — ومن ثم وقعت في تاريخهم أخطاء وانحرافات ، نتيجة إغفالهم لقيم كثيرة في هذه الحياة ، لا يستقيم تاريخ الحياة ولا يصح تفسير الحوادث والنتائج بدونها ؛ ونتيجة عصبيتهم التي تجعل أوروبا في نظرهم هي محور العالم ومركزه دائماً وإغفالهم العوامل الأخرى التي أثرت في تاريخ البشرية ، أو التهوين من شأنها إذا لم يكن مصدرها هو أوروبا .

ولقد درجنا نحن على أن نتلفف التاريخ من أيدى أوروبا كما نتلفف كل شيء آخر . نتلففه بأخطائه تلك ، وهي أخطاء في النهج بإغفال قيم كثيرة وعوامل كثيرة ، وأخطاء في التصوير نتيجة النظر من زاوية واحدة للحياة البشرية ، وأخطاء في النتائج تبعاً للأخطاء المنهجية والتصورية .

وهذا الكتاب الذي بين يدي نموذج للتاريخ الذي ينظر للأمور كلها ، وللعوامل جميعها ، وللقيم على اختلافها . ولعل القارىء لم يكن ينتظر من رجل مسلم ، واثق بقوة الروح الإسلامي ، متحمس لرد القيادة العالمية إليه ، أن يتحدث عن مؤهلات القيادة ، فلا ينسى بحوار « الاستعداد الروحي » أن يلمح في « الاستعداد الصناعي والحربي » و « التنظيم العلمي الجديد » وأن يتحدث عن « الاستقلال التجاري والمالي » .

إنه الإحساس المتناسق بكل مقومات الحياة البشرية ، وبهذا الإحساس المتناسق سار في استعراضه التاريخي ، وفي توجيهه للأمة الإسلامية سواء . ومن هنا يعد هذا الكتاب نموذجاً للتاريخ كما يجب أن يتناوله المسلمون مستقلين عن التأثر بالطريقة الأوروبية ، التي ينقصها هذا التناسق وهذه العدالة وهذا التحقيق .

وإنه ليسعدني أن أتحديث عن هذا الكتاب بذلك الإحساس ذاته ، وأن أسجل هذه الظاهرة وأنا مغتبط بهذه الفرصة التي أتاح لي أن أطلع عليه في العربية . . اللغة التي أثر صاحبها أن يكتب بها ، وأن ينشره في مصر للمرة الثانية : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

أخي أبو الحسن ! ...

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد السرباصي

لقيت أخي أبا الحسن أول مرة في شتاء سنة ١٩٥١ م ، بدار (الشبان المسلمين) في القاهرة ، عقب محاضرة لي من محاضرات الثلاثاء ، وقد أقبل عليّ يطلب في أدب جم وتواضع ظاهر ليلة من ليالي الثلاثاء ؛ ليلقي فيها محاضرة عن « المسلمين في مفترق الطرق » . . . فرأيت رجلاً نحيف البدن نحيل العود ، له لحية طويلة سمراء ، وملابسه قليلة خفيفة الوزن والثمن ، ونظراته عميقة نقادة ، ونبراته دقيقة أخاذة ، فيها بحة عرفت فيما بعد أنها ملازمة له من جهد وإجهاد ؛ وبعد اللقاء الأول العاجل توثقت بيني وبينه أسباب الأخوة والمحبة ؛ وعن خبر به أكتب هذه السطور :

هو العالم المؤمن الداعية المحتسب السيد أبو الحسن علي الحسن الهندي الندوي ، من للتنسين إلى عترة الحسن بن علي رضوان الله عليهما ، ووالده هو الشريف العلامة عبد الحمى بن غفر الدين بن عبد العلي ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشر بن محمد ذي النفس الزكية ابن عبد الله المحسن ابن الحسن الثاني ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب ، ولوالده كتب كثيرة منها المطبوع ومنها المخطوط ، وقد توفي سنة ١٣٤١ هجرية .

وقد ولد السيد أبو الحسن في مديرية بالهند تسمى « راي بريلي » وهي تبعد عن « لكهنؤ » سبعين كيلومتراً تقريباً ، وكانت الولادة بقرية « تكية » في شهر المحرم سنة ١٣٣٢ هـ ، فهو الآن في الثامنة والثلاثين من عمره ، مد الله له فيه وأدام به نفع الإسلام والمسلمين . . . وأسرة أخي أبي الحسن من أصل عربي ، تحافظ على أنسابها المعروفة إلى القرن السادس ، وهي تحافظ على صلاتها بأصلها وإن كانت تتكلم الهندية ، وتعيش في الهند منذ قرون ، وهي متوسطة الحال من الناحية المادية ، ولها أملاك لا بأس بها .

وللسيد أبي الحسن أخ أكبر منه هو السيد الدكتور عبد العلي عبد الحمى ، وهو طبيب ويدير ندوة العلماء خلفاً لأبيه الراحل ؛ وقد تزوج السيد أبو الحسن منذ عشر سنوات من نفس الأسرة ، لأن هذا تقليد محترم يعاقب من يخرج عليه .

بدأ السيد أبو الحسن تعلمه بحفظ القرآن الكريم في البيت ، ثم تعلم اللغتين الأوردية والفارسية ، ثم بدأ وهو في الثانية عشرة من عمره يتعلم الإنجليزية والعربية معاً ، وبدأ تعلم العربية على الشيخ خليل بن محمد الجني ، وتوفر سنتين كاملتين على

دراسة الأدب العربي وحده ، وقرأ كثيراً من كتب الأدب ، وشغف بها على خلاف العادة يومئذ في الهند ، لأنهم يزهدون في الأدب العربي ، ونُغنى عناية خاصة بالعكوف على كتب ثلاثة هي : نهج البلاغة ودلائل الإعجاز والمقامات ؛ ثم التحق بجامعة لكهنؤ ، وهي جامعة تدرس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية ، وفيها قسم لآداب اللغة العربية التحق به السيد أبو الحسن ، وكان يومئذ أصغر طلاب الجامعة سنّاً ، وضاق بدروس القواعد أولاً فأخره ذلك قليلاً ، ثم سار في تعلمه ممتازاً فائقاً سابقاً . ثم أتم دراسته الأدبية على الدكتور الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي رئيس تدريس الأدب العربي في ندوة العلماء — وهي جمعية تشرف على دار العلوم هناك — ، ثم دخل الندوة ومكث بها سنتين يدرس علوم الحديث ، واستفاد كثيراً من شيخ الحديث الشيخ حيدر حسن خان .

ثم سافر إلى لاهور ، وقرأ التفسير على الشيخ أحمد علي المفسر المشهور ، ولم تكن دراسته في أغلب أدوارها دراسة نظامية بشهادات ، بل كانت دراسة حرة لوجه العلم والمعرفة ؛ ولما أتم دراسته رجع إلى لكهنؤ ، وعين مدرسا في دارالعلوم هناك ، ومكث فيها عشر سنوات يدرس علوماً مختلفة ، واشتغل بجوار ذلك بالكتابة في مجلة « الضياء » العربية التي تصدرها ندوة العلماء ، ورئيس تحريرها الأستاذ سعيد الندوي ؛ واشتغل كذلك بالتأليف في الأوردية ، وأظهر كتابه « سيرة الشيخ أحمد الشهيد » فكان الإقبال عليه عظيماً حتى طبع ثلاث مرات .

ثم انتقل إلى دلهي ، والتقى بالداعية المجدد العظيم الشيخ محمد إلياس ، وكان هذا اللقاء نقطة تحول في حياة أبي الحسن ، لأن الشيخ محمد إلياس كان مرشداً شعبياً ، له صلة عميقة وثيقة بالجمهير عن طريق الدعوة إلى الله ، وأبو الحسن لم يكن متصلاً بالشعب قبل ذلك ، بل كان مقتصرًا على الدراسة والتأليف ، فأخذ يتصل بأهل القرى والساكنين ، ويقوم برحلات إسلامية قد تستغرق الواحدة منها شهراً ، لنشر الدعوة في قرى الهند ومدنها ، وكان الشيخ إلياس هو مثل أبي الحسن الأعلى في ذلك الميدان ، لأن الشيخ إلياس كما يقول أخونا كان صورة من السلف الصالح ، وكان مخلصاً غيوراً ، يتألم لحال المسلمين ويعمل من أجلهم ، ويسير في شئونهم ، ويحترق بروحه القوية الوثابة في سبيلهم ! .

ورأس أبو الحسن تحرير مجلة « الندوة العلمية » التي كانت تصدر بالأوردية وكانت لسان حال الندوة ، وكافته الجامعة الإسلامية في (عليكرة) بوضع منهاج لطلبة (البكالوريا) في التعليم الديني ، فألف في ذلك كتاباً أسماه « إسلاميات » وقبلت

الجامعة هذا الكتاب وأخذت به ، وكافأت صاحبه عليه ؛ ودعى لإلقاء محاضرات في الجامعة المليية الإسلامية بدلهى ، فألقى محاضرة في موضوع : (الدين والمدنية) كانت موضع الاستحسان ، ونشرت فكان لها تأثير واسع النطاق .

وألف في هذه الفترة كتباً لطلبة المدارس العربية في الهند ، منها كتاب « مختارات في الأدب العربى » وقد قررت دار العلوم في الهند وجامعة (إلهاباد) تدريسه ، ومنها كتاب « قصص النبيين » في ثلاث أجزاء ، وغير ذلك من الكتب ؛ وأصدر مجلة « التعمير » التى تصدر بالأوردية مرتين في الشهر ، ولا تزال تصدر حتى الآن ، وأسس جمعية للتبشير بالإسلام بين الهندوس ، وأصدرت هذه الجمعية التبشيرية الإسلامية عدة رسائل وبحوث عن الملة الغراء باللغة الإنجليزية المنتشرة هناك .

وأخى المفضل أبو الحسن له غرام أصيل عميق باقتناء الكتب ومسامرتها والحديث عنها ، وأعز ما يحرص عليه من عرض الحياة هو كتبه ، وأغلى ما يهدى إليه كتاب يرضيه ويفضيه ، ولا يقتنى أبو الحسن الكتب ليزين بها داره ، بل ليضمها قراءة وبخاً وتقداً ، وكتاباته المختلفة فيها دلائل واضحة على ذلك . وقد أفادته هذه المطالعات والمسامرات — بجوار الهبة والتجربة — قدرة على الارتجال بالعربية ، فهو يتدفق فيها كالسيل بلغة بليغة فيها الصور البيانية والتعبير الجميل ، وأغلب محاضراته يستعد لها ، وكثيراً ما يكتبها ، وأسلوبه يغلب عليه العنصر العاطفى الملتهم ، ومع ذلك إذا طرق باب البحث أجاد وأفاد وأمتع أيضاً ، وهو كما عرفت عنه وكما حدثنى مراراً لا يحب أن يهجم على الحديث فى موضوع ذى بال إلا إذا احتفل به وتهياً له ، وليس ذلك عن قلة بضاعة ، ولكنه احتباس العالم الذى يريد أن يستيقن ويتثبت ! . وقد غلب النثر على أبى الحسن فلم تطاوعه قريحته يوماً على نظم الشعر . . .

وقد ظل الأستاذ أبو الحسن يمارس جانباً من الألعاب الرياضية ككرة القدم والسباحة والصيد (والهوكن والتنس) ثم انقطع عنها أخيراً ، وعلى الرغم من هذا فقد أصابته أمراض استمرت مدة طويلة ، وخاصة فى الصدر ، ثم عافاه الله منها ، وبقي له سعال يعاوده من حين لآخر .

وهو يكره التصوير بجميع أنواعه ، ويحرمه على نفسه فى تشديد ملحوظ ، ولقد زرت معه إحدى دور الطبع والنشر الكبرى بمصر ، ورغب مصور الدار أن يلتقط لنا صوراً تذكارية ، فرفض أبو الحسن ، وأصر على الرغم من طول المحاولة والرجاء ، وذكر أن المسلمين فى الهند (متفقون) على حرمة التصوير .

ولقد سأله ذات مرة عن السابقين الذين تأثر بهم ، فأجابني بأنهم الإمام أحمد بن حنبل صاحب الموقف المعروف في المحنة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والشيخ أحمد السرهندي (من سر هند ، بلد في البنجاب) المتوفى سنة ١٠٢٤ هـ وصاحب الرسائل الخالدة في الشريعة والحقيقة ومحاربة البدع والمجدد للملة ، والشيخ ولي الله الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦ هـ الباحث الإسلامي العظيم والحجة الثقة ، والسيد أحمد الشهيد المجتهد ومؤسس أول دولة شرعية في الهند في القرن الثالث عشر الهجري ؛ وقد استمرت هذه الدولة عدة شهور ، ثم ثار عليها الإنجليز بمؤامراتهم فأخذوا عليها الطريق . وأعظم آمال أبي الحسن أن يرى الإسلام سائداً على الأرض ، وأن يرى الدول الباغية معذبة مقهورة حتى يسلي نفسه ويستبشر ، ويرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلام وأذلوا المسلمين ؛ وهو يعتقد أن نقطة البدء في نهضة الإسلام ستكون من باكستان أو تركيا . ويرى أن بقاء القلة المسلمة في الهند من الخير ، وفيه فائدة ترجى للهند ، فلعل للإسلام مستقبلاً ذا بال هناك .

ولقد رحل أبو الحسن إلى الحجاز في سنق ١٩٤٧ ، ١٩٥٠ م وقدم إلى مصر سنة ١٩٥١ م ، وطوف بأغلب العالم الإسلامي ، فرأى وشاهد ، ودرس وكتب ، وحاضر وخطب ، وكان له في كل أرض نزل بها مجهود وجهود وعهود .

وقد سأله وهو بيننا في مصر عن حسنات مصر فقال موجزاً : الإيمان بالله والدين ، والمحبة للمسلم وخاصة إذا كان غريباً ، ورقة القلب وسلامة الصدر ، وكثرة الأعمال المنتجة .. ثم سأله عن السيئات فتخرج ثم أجاب : السفور وعدم التستر ، والصور الخالية في الصحف والمجلات ، واستهانة بعض العلماء ببعض الحرمات ، وعدم المحافظة على الجماعات في المساجد برغم كثرتها ، والاندفاع في تقليد الحضارة الغربية بلا تبصر .

وأخى أبو الحسن بعد هذا كله عدو للمظاهر الكاذبة ، يتخفف في ثيابه وطعامه وفراشه ، ويكره التكلف والمجاملة الزائدة ، ولا يقيم المال وزناً في حياته ، وثقته بربه فوق كل شيء ، ومثابرته على النضال في سبيل ما يؤمن به مضرب الأمثال ، وإخلاصه العميق سر نجاحه بينما يفشل الآخرون .

لقد طال الكلام ، ومع ذلك لم أقل كل شيء عن أخى أبي الحسن .

أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

القاهرة في { شوال سنة ١٣٧٠ هـ
أغسطس سنة ١٩٥١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟

لم يكن انحطاط المسلمين أولاً وفشلهم وانعزالهم عن قياده الأمم بعد ، وانسحابهم عن ميدان الحياة والعمل أخيراً ، حادثاً من نوع ما وقع وتكرر في التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم ، وانقراض الحكومات والدول ، وانكسار الملوك والفاطحين ، وانهزام الغزاة المنتصرين ، وتقلص ظل المدينيات ، والجزر السيامي بعد المد ، فما أكثر ما وقع مثل هذا في تاريخ كل أمة ، وما أكثر أمثاله في تاريخ الإنسان العام ، ولكن هذا الحادث كان غريباً لا مثيل له في التاريخ ، مع أن في التاريخ مثيلاً وأمثلة لكل حادث غريب .

لم يكن هذا الحادث يخص العرب وحدهم ، ولا يخص الشعوب والأمم التي دانت بالإسلام ، فضلاً عن الأسر والبيوتات التي خسرت دولتها وبلادها ، بل هي مأساة إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس منها ولا أعم منها ، فلو عرف العالم حقيقة هذه الكارثة ، ولو عرف مقدار خسارته ورزيقته ؛ وانكشف عنه غطاء هذه العصبية لاتخذ هذا اليوم النحاس — الذي وقعت فيه — يوم عزاء ورناء ونيابة وبكاء ، ولتبادلت شعوب العالم وأممهم التعازي ، ولبست الدنيا ثوب الحداد . ولكن ذلك لم يتم في يوم ، وإنما وقع تدريجياً في عقود من السنين ، والعالم لم يحسب إلى الآن الحساب الصحيح لهذا الحادث ولم يقدره قدره ، وليس عنده القياس الصحيح لشقائه وحرمانه .

إن العالم لا يخسر شيئاً بانقراض دولة ملكت حيناً من الدهر ، وفتحت
مجموعاً من البلاد والأقاليم ، واستعبدت طوائف من البشر ، ونعمت وترفعت
على حساب الضعفاء والمحكومين . وإن الإنسانية لا تشقى بتحول الحكم
والسلطان والرفاهية والنعيم من فرد إلى فرد آخر من جنسه ، أو من جماعة إلى جماعة
أخرى مثلها في الجور والاستبداد وحكم الإنسان للإنسان . وإن هذا الكون
لا يتفجع ولا يتألم فقط بانحطاط أمة أدركها الهرم وسرى فيها الوهن ، وسقوط
دولة تأكلت جذورها وتفككت أوصالها ؛ بل بالعكس تقتضى ذلك سنة الكون ،
وإن دموع الإنسان لأعز من أن تفيض كل يوم على ملك راحل وسلطان زائل ،
وإنه لفي غنى وإنه لفي شغل عن أن يندب من لم يعمل يوماً لإسعاده ، ولم يكدح
ساعة لصالحه ، وإن السماء والأرض لتقسوان كثيراً على هذه الحوادث التي تقع
ووقعت كل يوم ووقت ألوف المرات (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ *
فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ) .

بل إن كثيراً من هؤلاء السلاطين والأمم كانوا كلاً على ظهر الأرض ، وويلا
للنوع الإنساني ، وعذاباً للأمم الصغيرة والضعيفة ، ومنبع الفساد والمرض في جسم
المجتمع البشري ، يسرى منه السم في أعضائه وعروقه ، ويتعدى المرض إلى الجسم
السليم ، فكان لا بد من عملية جراحية ، وكان قطع هذا الجزء السقيم وإبعاده من
الجسم السليم مظهراً كبيراً لربوبية رب العالمين ورحمته ، يستوجب الحمد والامتنان
من جميع أعضاء الأسرة الإنسانية ، بل من جميع أفراد هذا الكون (فَقُطِعَ دَابِرُ
الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، ولكن لم يكن انحطاط المسلمين
وزوال دولتهم وركود ريعهم — وهم حاملة رسالة الأنبياء ، وهم للعالم البشري كالعافية

للجسم الإنسانى — انحطاط شعب أو عنصر أو قومية ، فما أهون خطبه وما أخف وقعه ، ولكنه انحطاط رسالة هى للمجتمع البشرى كالروح ، وانتهيار دعامة قام عليها نظام الدين والدنيا .

فهل كان انحطاط المسلمين واعتزالهم فى الواقع مما يأسف له الإنسان فى شرق الأرض وغربها ، و بعد قرون مضت على الحادث ؟ .

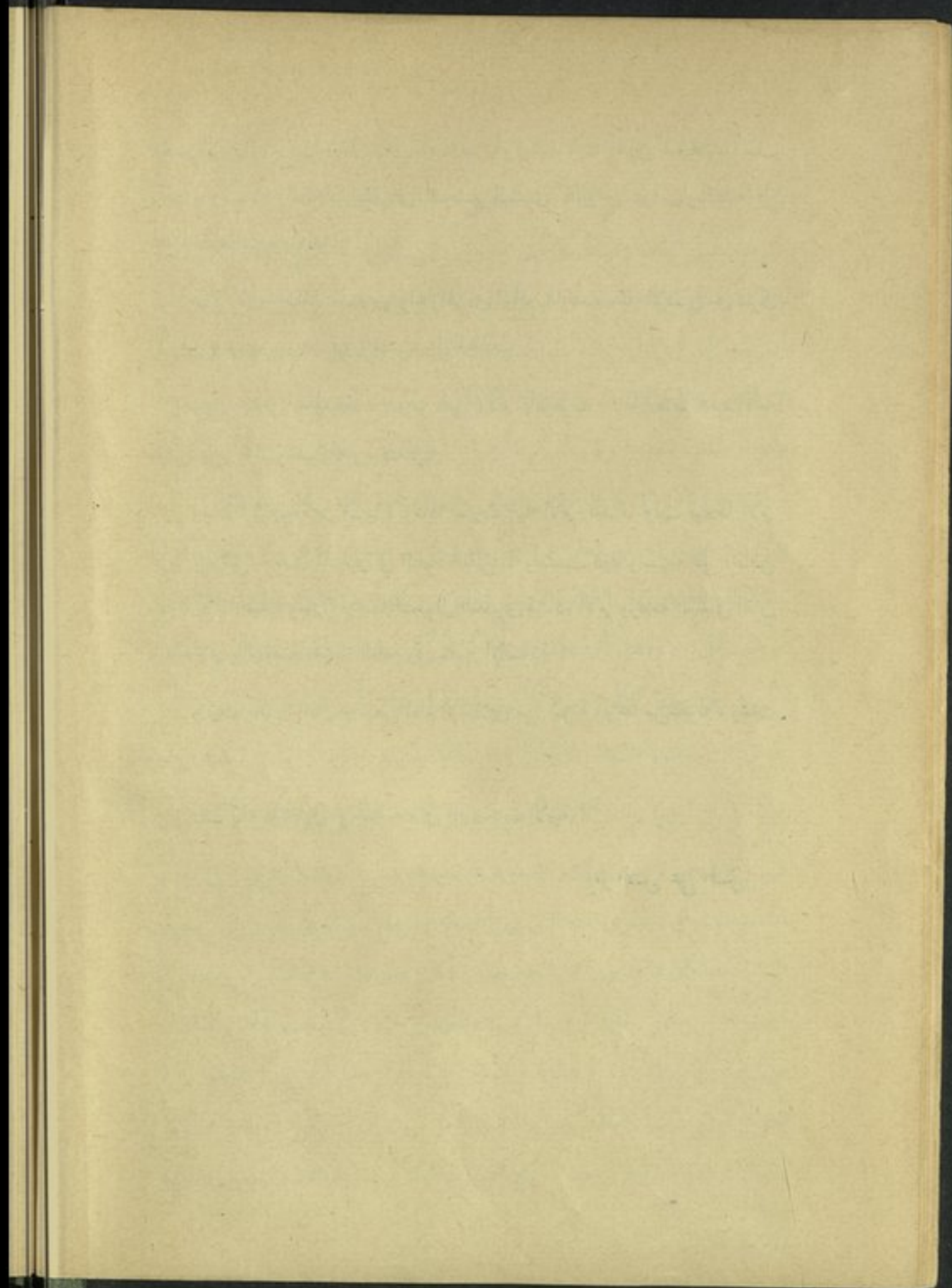
وهل خسر العالم حقاً — وهو غنى بالأمم والشعوب — بانحطاط هذه الأمة شيئاً ؟ وفيم كانت خسارته ورزيقته ؟ .

وماذا آل إليه أمر الدنيا ، وماذا صارت إليه الأمم بعد ما تولت قيادها الأمم الأوربية التى خلفت المسلمين فى النفوذ العالمى ، وأسست دولة واسعة على أنقاض الدولة الإسلامية ؟ وماذا أثر هذا التحوال العظيم فى قيادة الأمم وزعامة العالم فى الدين والأخلاق والسياسة والحياة العامة وفى مصير الإنسانية ؟

وكيف يكون الحال لو نهض العالم الإسلامى من كبوته ، وصحوا من غفوته ، وتملك زمام الحياة ؟

ذلك كله ما نحاول الإجابة عنه فى الصفحات الآتية !

أبو الحسن على الحسنى



الباب الأول

العصر الجاهلي

الفصل الأول

الإنسانية في الاحتضار

كان القرن السادس والسابع (لميلاد المسيح) من أخطر أدوار التاريخ بلا خلاف؛ فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردى، وقد زادت الأيام سرعة في هبوطها، وشدة في إسفافها، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسى نفسه ومصيره وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقيبح، وقد خفت دعوة الأنبياء من زمن، والمصاييح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم أو بقيت، ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلا عن البيوت فضلا عن البلاد، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات، فراراً بدينهم من الفتن، وضناً بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون، وفراراً من تكاليف الحياة وجدها، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة والروح والمادة، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلع مع الملوك وأهل الدنيا، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل . . .

نظرة في الأدبيات واللاهوت :

أصبحت الديانات العظمى فرسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بُعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام ، وشُغِلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، وأفلست في معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوي ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري .

المسيحية في القرن السادس المسيحي :

لم تكن المسيحية في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ، ومعالجة مسائل الإنسان بحيث تقوم عليه حضارة ، أو تسير في ضوئه دولة ، ولكن كان فيها أثارة من تعليم المسيح ، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط ، فجاء بولس فطمس نورها وطعمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها ، والوثنية التي نشأ عليها ، وقضى قسطنطين على البقية الباقية ، حتى أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية ، والأفلاطونية المصرية والرهبانية ، اضمحلت في جنبها تعاليم المسيح البسيطة كما تتلشى القطرة في اليم ، وعادت نسيجاً خشيباً من معتقدات وتقاليد لا تغذي الروح ، ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة ، ولا تحل معضلات الحياة ، ولا تنير السبيل ، بل أصبحت بزيادات المحرفين ، وتأويل الجاهلين ، تحول بين الإنسان والعلم والفكر ، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية ، يقول (Sale) مترجم القرآن إلى الانجليزية عن نصارى القرن السادس الميلادي : « وأمراف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية ، حتى فاقوا في ذلك الكاثوليك ^(١) » .

الحرب الأهلية الدينية في الدول الرومية :

ثم ثارت حول الديانة وفي صميمها مجادلات كلامية ، وسفسة من الجدل العقيم شغلت فكر الأمة ، واستهلكت ذكائها ، وابتلعت قدرتها العملية ، وتحولت في كثير من الأحيان حروباً دامية ، وقتلاً وتدميراً وتعذيباً ، وإغارة وانتهاكاً واغتيالاً ، وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية منافسة ، وأقحمت البلاد في حرب أهلية ؛ وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية ، وبين نصارى مصر ، أو بين (الملكانية) (والمنوفسية) بلفظ أصح ، فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح ، وكان المنوفسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة ، وهي الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية ، كقطرة من الخلل تقع في بحر عميق لا قرار له . وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع ، حتى صار كأه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى ، كل طائفة تقول للأخرى إنها ليست على شيء . يقول الدكتور الفرد . ج . بتلر :

« إن دينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين ، نضال يذكيه اختلاف في الجنس واختلاف في الدين ، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس ، إذ كانت علة العلل في ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفسية ، وكانت الطائفة الأولى — كما يدل عليه اسمها — حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد ، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة ، وهي ازدواج طبيعة المسيح . على حين أن الطائفة الأخرى وهي حزب القبط المنوفسيين — أهل مصر — كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظها ، وتحاربها حرباً عنيفة في حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها في قوم يعقلون ، بله يؤمنون بالإنجيل^(١) . »

(١) فتح العرب لمصر تعريب محمد فريد أبو حديد ص ٣٧ — ٣٨ .

وحاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) بعد انتصاره على الفرس سنة ٦٣٨ جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها ، وأراد التوفيق ، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة ، أم صفتان ، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد . وفي صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك وصار المذهب المنوئيلي مذهباً رسمياً للدولة ، ومن تضيهم من أتباع الكنيسة المسيحية . وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة له متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل ، ولكن القبط نابذوه العداء وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف ، وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة ، وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف ، فاقنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة ، وأما المسألة الأخرى ، وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيه ، ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراتها ، وجعل ذلك رسالة رسمية ، وبعث بها إلى جميع جهات العالم الشرقي ، ولكن الرسالة لم تهدي العاصفة في مصر ، ووقع اضطهاد فظيع على يد قيرس في مصر استمر عشر سنين ، وقع في خلالها ما تقشعر منه الجلود ، فرجال كانوا يعدون ثم يقتلون إغراقاً ، وتوقد المشاعل وتسلب نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ، ويوضع السجين في كيس مملوء من الرمل ويرمى به في البحر ، إلى غير ذلك من الفظائع .

الاضطراب الاجتماعي والفوضى الانفصالي :

بلغ الانحلال الاجتماعي غايته في الدولة الرومية الشرقية ، وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات ، وتضاعفت الضرائب ، حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومة ، ويمقتونها مقتاً شديداً ، ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية ، وكانت الإيجارات والصادرات ضعفاً على إباله ، وقد حدث لذلك اضطرابات عظيمة وثورات ، وقد هلك عام ٥٣٢ في الاضطراب ثلاثون ألف شخص في العاصمة ^(١) ، وعلى شدة

الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة أسرف الناس فيه ، ووصلوا في التبذُّل إلى أحطِّ الدركات ، وأصبح المم الوحيد اكتساب المال من أىِّ وجه ، ثم إنفاقه في التظرف والترف وإرضاء الشهوات .

ذابت أسس الفضيلة ، وانهارت دعائم الأخلاق ، حتى صار الناس يفضلون حياة العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية^(١) ، وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السلع ، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع^(٢) يقول (جيبون) و « في آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة^(٣) ، وكان مثلها كمثل دوحه عظيمه كانت أم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً^(٤) » . ويقول مؤلفو تاريخ العالم للمؤرخين : « إن المدن العظيمه التي أسرع إليها الخراب ، ولم تسترد مجدها وزهرتها أبداً ، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطيه في هذا العهد من الانحطاط المهائل الذي كانت نتيجة المغالاة في المكوس والضرائب والانحطاط في التجارة ، وإهمال الزراعة ، وتناقص العمران في البلدان^(٥) » .

مصر في الدولة الروميه ربانته واقتصاداً :

أما مصر ذات النيل السعيد ، والخصب المزيدي ، فكانت في القرن السابع من أشقى بلاد الله بالنصرانيه ، وبالدولة الروميه معاً ، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومناظرات في طبيعه المسيح ، وفي فلسفه ما وراء الطبيعه والفلسفه الإلهيه . وقد ظهرت في القرن السابع في شر مظاهرها ، وأنهكت قوى الأمة العقلية وأضعفت قواها العمليه ، وأما الأخرى فلم تلق إلا اضطهاداً دينياً فظيماً واستبداداً

The History of Decline and Fall of the Roman Empire by (١)
Edward Gibbon, V.

Sale's Translation p. 72 (1896) (٢)

the History of the Decline and Fall of the Roman Empire. (٤، ٣)

v. V d. 31.

Historian's History of the World v. VII p. 175. (٥)

سياسياً شنيعاً تجرعت في سبيلهما من المرائر في عشر سنين ما ذاقته أوروبا في عهد التفتيش الديني في عقود من السنين ، فألهما ذلك عن كل وطر من أوطار الحياة وعن كل مهمة شريفة من مهمات الدين والروح ، فلا هي تتمتع بالحرية السياسية رغم كونها مستعمرة رومانية ، ولا هي تتمتع بالحرية الدينية والعقلية ، رغم كونها نصرانية . يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) :

ولقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية ، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي ، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن ، وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات ، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية ، وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على ساداتها الروم ، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين ^(١) .

ويقول الدكتور ألفرد . ج . بتلر في كتابه (فتح العرب لمصر) :

« فالحق أن أمور الدين في القرن السابع كانت في مصر أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة ، فلم تكن أمور الحكم هي التي قامت عليها الأحزاب ، واختلف بعضها عن بعض فيها ، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانات ، ولم يكن نظر الناس إلى الدين أنه المعين يستمد منه الناس ما يعينهم على العمل الصالح ، بل كان الدين في نظرهم هو الاعتقاد المجرد في أصول معينة .

« فكان اختلاف الناس ومناظراتهم العنيفة كلها على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات ؛ وكانوا يخاطرون بحياتهم في سبيل أمور لا قيمة لها ، وفي سبيل فروق في أصل الدين وفي فلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها ، ويشق إدراكها ^(٢) » .

(١) حضارة العرب ، تعريب عادل زعير ، الفصل الرابع « العرب في مصر » ص ٣٣٦ .

(٢) فتح العرب لمصر ، ص ٤٧ .

هذا ، وقد اتخذها الروم شاة حلوباً يريدون أن يستنزفوا مواردها ، ويمتصوا دمها ، يقول الفرد :

« إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد . . . مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة ، وكانت تجري بين الناس على غير عدل ^(١) »

ويقول مؤلفو « تاريخ العالم للمؤرخين » :

« إن مصر كانت تضيف إلى مالية الدولة البيزنطية مجموعاً كبيراً من حاصلاتها ومنتجاتها ، وكانت طبقات الفلاحة المصرية — مع حرمانها من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ — مرغمة على أداء الخراج للدولة الرومية ككراء الأرض فضلاً عن الضرائب ، وكانت ثروة مصر في هذا العهد إلى الانتقاص والاعطاط ^(٢) » .

وهكذا اجتمع لمصر من الاضطهاد الديني ، والاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي ما شغلها بنفسها ، وكدر عليها صفو حياتها ، وألهاها عن كل مكرمة .

الخبشة :

أما جارتها الخبشة فكانت على المذهب « المونوفيسي » كذلك ، وكانت مع ذلك تعبد أوثاناً كثيرة استعارت بعضها من الحمجية ؛ ولم يكن التوحيد إلا ضرباً راقياً من الوثنية خلعت عليها لباساً من علم ومصطلحات نصرانية ، ولم تكن في الدين بذات روح ، ولا في الدنيا بذات طموح ، وقد قضى مجمع « نيقية » أن ليس لها استقلال بأمورها الدينية ، وإنما هي تابعة للكرسي الاسكندري .

الأمم الأوربية الشمالية الغربية :

أما الأمم الأوربية المتوغلة في الشمال والغرب فكانت تتسكع في ظلام الجهل .

(١) المصدر السابق .

(٢) Historian,s History of the World v. VII p. 173.

المطبق والامية الفاشية ، والحروب الدامية ، لم ينبثق فيها فجر الحضارة والعلم بعد ، ولم تظهر على مسرحها الأندلس العربية الإسلامية لتؤدي رسالتها في العلم والمدنية ، ولم تصهرها الحوادث ، وكانت بمعزل عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية بعيدة عنها ، لا تعرف عن العالم ولا يعرف العالم المتمدن عنها إلا قليلا ، ولم تكن — مما يجرى في الشرق والغرب مما يغير وجه التاريخ — في غير ولا نفير ؛ وكانت بين نصرانية وليدة ، ووثنية شائبة ، ولم تكن بذات رسالة في الدين ، ولا بذات راية في السياسة ، يقول هـ . ج . ويلز :

« ولم تكن في أوروبا الغربية في ذلك العهد أمارات الوحدة والنظام ^(١) » .

اليهود :

وكانت في أوروبا وآسيا وإفريقيا أمة أغنى أم الأرض مادة في الدين ، وأقربها فهما لمصطلحاته ومعانيه ، أولئك هم اليهود ، ولكن لم يكونوا عاملا من عوامل الحضارة والسياسة أو الدين يؤثر في غيرهم ، بل قضى عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم ، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد ، والنفي والجلاء ، والعذاب والبلاء ، وقد أورشهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء القومية ، والإدلال بالنسب ، والجشع وشهوة المال ، وتعاطى الربا ؛ أورشهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد في أمة ، وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعاراً على تعاقب الأعصار والأجيال ، منها الخنوع عند الضعف ، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة ، والختل والنفاق في عامة الأحوال ، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله ، وقد وصفهم القرآن الكريم وصفاً دقيقاً عميقاً يصور ما كانوا عليه في القرن السادس والسابع من تدهور خلقى ، وانحطاط نفسى ، وفساد اجتماعى عزّلوا بذلك عن إمامة الأمم وقيادة العالم .

بين اليهود والمسيحيين :

وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم إلى المسيحيين ، و بغض المسيحيين إليهم وشوّه سمعتهم ، ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠ م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية ، فأرسل الامبراطور قائده « أبوسوس » ليقضى على ثروتهم ، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعاً ، قتلاً بالسيف ، وشنقاً وإغراقاً ، وإحراقاً وتعذيباً ، ورمياً للوحوش الكاسرة .

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة . قال المقرئ في كتاب الخطط : « وفي أيام فوكا ملك الروم ، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخرّبوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا إلى مصر في طلبهم ، وقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر ، وساعدتهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ، وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل ، وقرية الناصرة ومدينة صور ، وبلاد القدس ، فنالوا من النصارى كل منال ، وأعظموا النكاية فيهم ، وخرّبوا لهم كنيسة القدس ، وأحرقوا أمانتهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه ^(١) » .

إلى أن قال بعد أن ذكر فتح الفرس لمصر :

« فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور وأرسلوا بقيتهم في بلادهم وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم ، فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صور فقوى النصارى عليهم وكاثروهم فانهمزم اليهود هزيمة قبيحة وقتل منهم كثير ، وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية ، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ماخر به الفرس ، فخرج إليه اليهود من

طبرية وغيرها ، وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم وحلف لهم ، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأنجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها وقامتها خراباً ، فساء ذلك وتوجع له ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس وقاموا قياماً كبيراً في قتلهم عن آخرهم ، وحشوا هرقل على الواقعة بهم ، وحسنوا له ذلك فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم ، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على ممر الزمان والدهور ، فقال إلى قوهم وأوقع باليهود وقبيلة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى الخ .

وبهذه الروايات يُعلم ما وصل إليه الفريقان اليهود والنصارى ، من القسوة والضراوة بالدم الإنساني وتحمين الفرص للنكاية في العدو ، وعدم مراعاة الحدود في ذلك . وبهذه الأخلاق المنحطة والاستهانة بحياة الإنسان لا يمكن لطائفة أو أمة أن تؤدي رسالة الحق والعدل والسلام ، وتسعد البشرية في ظلها وتحت حكمها .

إيران والحركات الهرمزية فيها :

أما فارس التي شاطرت الروم في حكم العالم المتمدن فكانت الحقل القديم لنشاط كبار الهدامين الذين عرفهم العالم ، كان أساس الأخلاق متزعزعا مضطرباً منذ عهد عريق في القدم ، ولم تزل المحرمات النسبية التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلاف ونقاش ، حتى إن يزد جرد الثاني الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بنته ثم قتلها^(١) ، وأن بهرام جوبين الذي

تملك في القرن السادس كان متزوجاً بأخته^(١) ، يقول البروفسور ارتهر كرستن سين أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة كوبنهاجن بالدنمارك المتخصص في تاريخ إيران في كتابه « إيران في عهد الساسانيين » :

« إن المؤرخين المعاصرين للعهد الساساني مثل « جاتيهاس » وغيره يصدقون بوجود عادة زواج الإيرانيين بالمحرمات ، ويوجد في تاريخ العهد الساساني أمثلة لهذا الزواج ، فقد تزوج بهرام جوبين وتزوج جشتاسب قبل أن يقتصر بالمحرمات^(٢) ، ولم يكن يُعد هذا الزواج معصية عند الإيرانيين ، بل كان عملاً صالحاً يتقربون به إلى الله ولعل الرحالة الصيني « هوئن سوئنج » أشار إلى هذا الزواج بقوله إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء^(٣) .

ظهر « ماني » في القرن الثالث المسيحي ، وكان ظهوره رد فعل عنيف غير طبعي ضد النزعة الشهوية السائدة في البلاد ، ونتيجة منافسة النور والظلمة الوهمية فدعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم ، وأعلن أن امتزاج النور بالظلمة شر يجب التخلص منه ، فحرم النكاح استعجالاً للفناء وانتصاراً للنور على الظلمة بقطع النسل ، وقتله بهرام سنة ٢٧٦ قائلًا إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتنبأ له شيء من مراده ، ولكن تعاليمه لم تمت بموته بل عاشت إلى ما بعد الفتح الإسلامي .

ثم ثارت روح الطبيعة الفارسية على تعاليم ماني المجحفة ، وتقمصت دعوة مزدك الذي ولد ٤٨٧ م فأعلن أن الناس ولدوا سواء لافرق بينهم ، فينبغي أن يعيشوا سواء لافرق بينهم ، ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه وحراسته كان ذلك عند مزدك أهم ما يجب فيه المساواة والاشتراك قال الشهرستاني^(٤) : « أحل

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٣٨ .

(٢) إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة الدكتور محمد إقبال من الفرنسية إلى الأردية ص ٤٣٩ .

(٣) « إيران في عهد الساسانيين » ص ٤٣٠ .

(٤) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٨٦ .

النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والسكّاء .
وحظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين وصادفت من قلوبهم هوى
وسعدت كذلك بحماية البلاط فأخذ قباز بناصرهما ونشط في نشرها وتأبيدها حتى
انغمست إيران بتأثيرها في القوضى الخلقية وطغيان الشهوات قال الطبري : « افترس
السفلة ذلك واغتنموه وكانوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم
حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع
الامتناع منهم وحملوا قباز على تزيين ذلك وتوعده بخلعهم فلم يلبثوا إلا قليلا حتى
صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به ^(١) » .
إلى أن قال : « ولم يزل قباز من خيار ملوكهم حتى حمله مزدك على ما حمله عليه
فانتشرت الأطراف وفسدت الثغور ^(٢) » .

تفريس الكاسرة :

وكانت الكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي ، وكان
الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئا علويا مقدسا ،
فكانوا يكفرون لهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ويرونهم فوق القانون وفوق
الانتقاد وفوق البشر ، لا يجري اسمهم على لسانهم ولا يجلس أحدهم في مجلسهم ،
ويعتقدون أن لهم حقا على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم ، وأن ما يرضخون
لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق
وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة ، وخصصوا بيتا معينا وهو البيت السكياني
فكانوا يعتقدون أن لأفرادهم وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج ، وهذا
الحق ينتقل فيهم كإبراهيم عن كابر وأبا عن جد لا ينافسهم ذلك إلا ظالم ولا ينافسهم إلا
دعي نذل ، فكانوا يدينون بالملك وبالوراثة في البيت المالكة لا يبيعون به بدلا ولا يريدون

(١) تاريخ الطبري ج ٢ من ٨٨ .

(٢) المصدر السابق .

عنه محيصاً ، فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ملكوا عليهم طفلاً ، وإذا لم يجدوا رجلاً ملكوا عليهم امرأة ، فقد ملكوا بعد شيرويه ولده أردشير وهو ابن سبع سنين وملك فرخ زاد خسرو بن كسرى أبرويز وهو طفل وملكوا بوران بنت كسرى ، وملك كذاً كذلك ابنة كسرى ثانية يقال لها ازرمي دخت^(١) ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائداً كبيراً أو رئيساً من رؤسائهم مثل رستم وجابان وغيرهما لأنهم ليسوا من البيت الملكي .

التفاوت بين الطبقات :

وكذلك اعتقادهم في البيوتات الروحية والأشراف من قومهم ، فيرونهم فوق العامة في طينتهم ، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم ، ويعطونهم سلطة لا حد لها ويخضعون لهم خضوعاً كاملاً — يقول البروفسور ارتهرسين مؤلف تاريخ « إيران في عهد الساسانيين » :

« كان المجتمع الإيراني مؤسسا على اعتبار النسب والحرف ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة^(٢) وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمر أو كبير^(٣) ، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه^(٤) ، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة^(٥) غير الحرفة التي خلقه الله لها^(٦) ، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفه من وظائفهم^(٧) ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع^(٨) .

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتحان للإنسانية يظهر لك جالياً في مجالس

(١) راجع تاريخ الطبري ج ٢ وتاريخ إيران لمسكاربيوس .

(٢) إيران في عهد الساسانيين ص ٥٩٠ (٣) أيضاً ص ٤٢٠ .

(٤) أيضاً ص ٤١٨ (٥) أيضاً ص ٤١٨ .

(٦) أيضاً ص ٤٢٢ (٧) أيضاً ص ٤٢٢ .

(٨) إيران في عهد الساسانيين ص ٤٢٢ .

الأمراء والأشراف ، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جناد لا حراك بهم ويجلسون مزجر الكلب ، وقد أكره رسول المسلمين وأنكره ، ويتبين مما روى الطبري ما وصل إليه الفرس من الاستكانة والخضوع لسادتهم وجريا على عاداتهم ، قال :

« عن أبي عثمان النهدي قال لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم في إجازته ، ولم يغيروا شيئا من شارتهم تقوية لها ونهم فأقبل المغيرة بن شعبه والقوم في زهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبسطهم على غلوة ، ولا يصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع صفائر يمشى حتى جلس معه على سريرته ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم ، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تؤاسون قومكم كما تتواسي ، وكان أحسن من الذي صنعت أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتكموني . اليوم علمت أن أمركم مضطحل ، وأنكم مغلوبون وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول^(١) » .

تمجيد القومية الفارسية :

ثم يبالغون في تمجيد القومية الفارسية ويرون أن لها فضلا على سائر الأجناس والأمم ، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحدا ، وكانوا ينظرون إلى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان ، ويلقبونها باللقاب فيها الاحتقار والسخرية .

عبارة النار وتأثيرها في الحياة :

كانوا في الزمن القديم يعبدون الله ويسجدون له ، ثم جعلوا يمجدون الشمس

(١) الطبري ج ٤ ص ١٠٨ .

والقمر والنجوم وأجرام السماء مثل غيرهم من الأوائل ، وجاء زرادشت صاحب الديانة الفارسية فيقال إنه دعا إلى التوحيد وأبطل الأصنام ، وقال إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في السكون ، وأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار ساعة الصلاة لأن النور رمز إلى الإله ، وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي : النار والهواء والتراب والماء ، وجاء بعده علماء سنوا للزادشتيين شرائع مختلفة فحرموا عليهم الاشتغال بالأشياء التي تستلزم النار ، فاقترضوا في أعمالهم على الفلاحة والتجارة ، ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة في العبادات تدرّج الناس إلى عبادتها ، حتى صاروا يعبدونها عينا ويبنون لها هياكل ومعابد ، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وجُهِلت الحقيقة ونُسِيَ التاريخ^(١) .

ولما كانت النار لا توحى إلى عبادها بشريعة ولا ترسل رسولا ، ولا تتدخل في شئون حياتهم ، ولا تعاقب العصاة والمجرمين أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة في ساعات خاصة . أما في خارج المعابد ، وفي دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم ، وفي السياسة والاجتماع ، فكانوا أحراراً يسرون على هواهم ، وما تملى عليهم نفوسهم ، أو ما يؤدي إليه تفكيرهم ، أو ما توحى به مصالحهم ومنافعهم ، شأن المشركين في كل عصر ومصر .

وهكذا حُرِمَت الأمة الفارسية في حياتها ديناً عميقاً جامعاً يكون تربية للنفس ، وتهذيباً للخلق ، وقامعاً للشهوات ، وحافزاً على التقوى وفعل الخيرات ، ويكون نظاماً للأسرة وتديراً للمنزل ، وسياسة للدولة ، ودستوراً للأمة ، ويحول بين الناس وطفیان الملوك ، وعسف الحكام ، ويأخذ على يد الظالم ، وينتصف المظلوم ، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين اللادينيين والإباحيين ، في الأخلاق والأعمال .

الصين ، رباناتها ونظمها :

وكانت تسود الصين في هذا القرن ثلاث ديانات ديانة « لادتسو » وديانة

«كونفوشيوس» والبوذية، أما الأولى ففضلاً عن أنها تحولت وثنية في عهد قريب فهي تُعنى بالنظريات أكثر منها بالعمليات، وكان أتباعها متقشفين زاهدين، لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة ولا يتصلون بها اتصالاً، فلم يكن لها أن تكون أساساً لحياة سديدة أو حكومة رشيدة، حتى التجأ الذين جاءوا بعد مؤسسها إلى مخالفتها والعدول عنه إلى غيره.

وأما (كونفوشيوس) فقد كان يعنى بالعمليات أكثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمه في شئون هذه الدنيا وتبدير الأمور المادية والسياسية الإدارية، وقد كان أتباعه لا يعتقدون — في بعض الأزمنة — بعبادة إله معين، فيعبدون ما يشاءون من الأشجار والأنهار، وليس فيها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوى، وإنما هو حكمة حكيم وتجارب خبير، يستفيد بها الإنسان إذا شاء ويرفضها إذا شاء.

البوذية — نظراتها وانحطاطها :

أما البوذية فقد فقدت بساطتها وحماسها، وابتلعتها البرهمية النائرة المتوردة فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبنى الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت، وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهرت في عهد ازدهار البوذية^(١). يقول الأستاذ «إشوراتوبا» أستاذ تاريخ الحضارة الهندية في إحدى جامعات الهند: «لقد قامت في ظل البوذية دولة تُعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل، وتغير محيط العلاقات الأخوية البوذية، وظهرت فيها البدع»^(٢). ولاحظ ذلك أيضاً أحد الكتاب المصريين، وكبار السياسيين في الهند فقال:

«جعلت البرهمية بوذا مظهراً للآلهة، وقلدتها في ذلك البوذية نفسها، وأصبحت

(١) الزائر لمنحرف تسكلا في غربى پنجاب (باكستان) يندهش من رؤية كثرة التماثيل البوذية التى استخرجت من حفائر المدن البوذية المظمورة ويعرف أن هذه الديانة والمدنية أصبحتا وثنتين تماماً.

(٢) الهند القديمة (أردو) للأستاذ إشوراتوبا .

الرايات الأخوية البوذية تملك ثروة هائلة ، وأصبحت مركزاً لمصالح جماعة خاصة ،
وقد تد النظام ، وتسرب إلى مناهج العبادة السحر والأوهام ، وبدأت الديانة تتقهقر
وتنحط بعد ماسادت في الهند وازدهرت ألف سنة ، وقد ذكرت (Mrs Rhys Davids)
ما أصيبت به الديانة البوذية في هذا العهد من الوهن والاعتلال فقالت كما نقل عنها
سير رادها كرشن في كتابه « الفلسفة الهندية » :

« لقد أظلت الأفكار العليقة تعليم بوذا الخلق حتى توارى وراء هذه التخيلات
السقيمة ، لقد نشأ مذهب جديد في الديانة وازدهر ، وملك على الناس القلوب ثم
اضمحل وخلفه مذهب آخر ، وهلم جرا ، حتى تراكت هذه الأوهام الخلابية ، وحجبت
لجأو وساد الظلام ، وقد اضمحلت دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب
التدقيقات الكلامية والتنطعات »^(١) .

لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط ، ودخلت فيها العادات الساقطة ،
وأصبح من العسير التمييز بينهما . لقد اندمجت البوذية في البرهمية وذابت فيها »^(٢) .
ولم يزل وجود الإله والإيمان به في البوذية موضع خلاف وشك عند مؤرخي
هذه الديانة ومترجمي مؤسسها ، حتى يحار بعضهم ويتساءل كيف قامت هذه الديانة
العظيمة على أساس رقيق من الآداب التي ليس فيها الإيمان بالله^(٣) . فلم تكن
البوذية إلا طرقاً لرياضة النفس وقمع الشهوات ، والتحلي بالفضائل ، والنجاة من الألم
والحصول على العلم .

إذن فلم تكن عند الصينيين رسالة دينية للعالم يحلون بها مشاكلهم ، وكانوا في
أقصى شرق العالم المتمدن محتفظين بتراثهم الديني والعلمي ، لا يزيدون في ثروتهم
ولا في ثروة غيرهم .

The Discovery of India by P. Jawahar Lal nehru p. 201—202. (١)

(٢) أيضاً .

(٣) اقرأ مقالة بوذا في دائرة المعارف البريطانية .

أهم آسيا الوسطى :

أما الأمم الأخرى في آسيا الوسطى ، وفي الشرق كالمغول والترك واليابانيين ، فقد كانت بين بوذية فاسدة ، ووثنية همجية ، لا تملك ثروة علمية ، ولا نظاماً سياسياً راقياً ، إنما كانت في طور الانتقال من عهد الهمجية إلى عهد الحضارة ، ومنها شعوب لا تزال في طور البداوة والطفولة العقلية .

الهند ؛ دبارة ، واجتماعا ، وأخلاقا :

أما الهند فقد اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخها أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا ذلك العهد الذي يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادي ، قد ساهمت الهند جاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقى والاجتماعى ، الذى شمل الكرة الأرضية في هذه الحقبة من الزمن ، وأخذت نصيباً غير منقوص من هذا الظلام الذى مد رواقه على المعمورة كالليل جاش في قتمه ، وامتازت عنها في ظواهر وخالل يمكن أن نلخصها في ثلاث : (١) كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة (٢) الشهوة الجنسية الجامحة (٣) التفاوت الطبقي المجحف والامتياز الاجتماعى الجائر .

الوثنية المنظرية :

قد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس ، فقد كان عدد الآلهة في « ويد » ثلاثة وثلاثين ، وقد أصبحت في هذا القرن ٣٣٠ مليون . وقد أصبح كل شىء رائع وكل شىء جذاب وكل مرفق من مرافق الحياة إلهًا يعبد . وهكذا تجاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلهات الحصر ، وأربت على العبد ، فمنها أشخاص تاريخية ، وأبطال تمثل فيهم الله — زعموا — في عهود وحوادث معروفة ، ومنها جبال تجلّى عليها بعض آلهتهم ، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلّى فيها إله ، ومنها نهر السكتنج الذى خرج من رأس « مهاديو » الإله ، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلسكية وغير ذلك . وأصبحت

الديانة نسيجاً من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان . وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد ، وبلغت أوجها في القرن السادس والسابع ، حتى فاق هذا العصر في ذلك العصور الماضية . وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام ، حتى لم تجد الديانة البوذية والجينية منها بدا ، وتذرت هاتان الديانتان بهذه الوسيلة للاحتفاظ بحياتهما وانتشارهما في البلاد . ويدل على ما وصلت إليه الوثنية والتماثيل في هذا العصر ما حكاه الرحالة الصيني الشهير « هوئن سوننج » الذي قام برحلته بين عام ٦٣٠ وعام ٦٤٤ عن الاحتفال العظيم الذي أقامه الملك هرش الذي حكم الهند من عام ٦٠٦ إلى ٦٤٧ : « أقام الملك احتفالاً عظيماً في قنوج اشترك فيه عدد كبير جداً من علماء الديانات السائدة في الهند ، وقد نصب الملك تمثالاً ذهبياً لبوذة على منارة تعلو خمسين ذراعاً ، وقد خرج بتمثال آخر لبوذة أصغر من التمثال الأول في موكب حافل قام بجانبه الملك « هرش » بمظلة وقام الملك الحليف « كامروب » يذب عنه الذباب ^(١) » .

ويقول هذا الرحالة عن أسيرة الملك ورجال بلاطه إن بعضهم كان من عباد « شو » وبعضهم من أتباع الديانة البوذية ، وكان بعضهم يعبد الشمس وبعضهم يعبد « وشنو » وكان لكل واحد أن يخص من الآلهة أحداً بعبادته أو يعبدهم جميعاً ^(٢) .

الشهوة الجنسية الجائحة :

وأما الشهوة فقد امتازت بها ديانة الهند ومجتمعها منذ العهد القديم ، فلعل المواد الجنسية والمهيجات الشهوية لم تدخل في صميم ديانة بلاد مثل ما دخلت في صميم الديانة في البلاد الهندية ، وقد تناقلت الكتب الهندية وتحدثت الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله وعن وقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل الأكوان روايات وأقاصيص

(١) رحلة هوئن سوننج « فوكوى كي » الدولة الغريبة .

(٢) أيضاً .

عن اختلاط الجنس من الآلهة وغارة بعضها على البيوتات الشريفة تستك منها السامع ويتندى لها الجبين حياءً ، وتأثير هذه الحكايات في عقول المتدينين المخلصين المرددين لهذه الحكايات في إيمان وحماسة دينية وفعلها في عواطفهم وأعصابهم واضح ، زد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر « مهاديو » ، وتصويرها في صورة بشعة ، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات ، زد إليه كذلك ما يحدث به بعض المؤرخين إن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدن الرجال العراة^(١) وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفاسق الذين كانوا يرزؤون الراهبات والزائرات في أعز ما عندهن ، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته ، وينال فيها الفاجر بغيته ، وإذا كان هذا شأن البيوت التي رُفعت للعبادة والدين فما ظن القارىء ببلاط الملوك وقصور الأغنياء ! فقد تنافس فيها رجالها في إتيان كل منكر وركوب كل فاحشة ، وكان فيها مجالس مختلطة من سادة وسيدات ، فإذا لعبت الخمر برؤوسهم خلعوا جلباب الحياء والشرف وطرحوا الحشمة فتوارى الأدب وتبرقع الحياء ، هكذا أخذت البلاد موجة طاغية من الشهوات الجنسية والخلاعة وأسفت أخلاق الجنس إنسافاً كبيراً .

نظام الطبقات الجائر :

أما نظام الطبقات فلم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقى أشد قسوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذى اعترفت به الهند دينياً ومدنياً ، وخضعت له آلافاً من السنين ولا تزال ، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي في آخر العهد الوىدى بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها ، وبحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها ، وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى ، وألف فيه

(١) ستيارته برকাশ لديانتد سرسوتى الهندكى ص ٣٤٤ .

قانون مدنى وسياسى اتفق عليه البلاد وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً فى حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر » .

يقسم هذا القانون الأهالى إلى أربع طبقات ممتازة وهى (١) البراهمة طبقة الكهنة ورجال الدين (٢) شترى رجال الحرب (٣) ويش رجال الزراعة والتجارة (٤) شودر رجال الخدمة . ويقول (منو) مؤلف هذا القانون :

« إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه وشترى من سواعده وويد من أخضاه والشودر من أرجله ، ووزع لهم فرائض وواجبات لصالح العالم . فعلى البراهمة تعليم ويد أو تقديم النذور للآلهة وتعاطى الصدقات ، وعلى الشترى حراسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة « ويد » والعزوف عن الشهوات ، وعلى ويش رعى السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة ويد والتجارة والزراعة ، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث »^(١) .

امتيازات طبقة البراهمة :

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقهمم بالآلهة فقد قال إن البراهمة هم صفوة الله وهم ملوك الخلق ، وإن ما فى العالم هو ملك لهم فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض^(٢) ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر - من غير جريرة - ما شاؤا ، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده^(٣) .

وإن البرهمى الذى يحفظ رك ويد « الكتاب المقدس » هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله^(٤) ، ولا يجوز للملك حتى فى أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبى من البراهمة جباية أو يأخذ منهم إناوة ، ولا يصح لبرهمى

(١) منوشاستر الباب الأول

(٢) أيضاً .

(٣) الباب الثامن .

(٤) الباب التاسع .

في بلاده أن يموت جوعاً^(١) وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يخلق رأسه أما غيره فيقتل^(٢).

أما الشترى فإن كانوا فوق الطبقتين « ویش وشودر » ولكنهم دون البراهمة بكثير ، فيقول « منو » إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشترى الذي ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده^(٣).

المنبوذون الأسقياء :

أما شودر « المنبوذون » فكانوا في المجتمع الهندي — بنص هذا القانون المدني الديني — أخطأ من البهائم وأذل من الكلاب ، فيصرح القانون بأن « من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك^(٤) وليس لهم أن يفتنوا مالا أو يدخروا كنزاً فإن ذلك يؤذي البراهمة^(٥) ، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يدا أو عصا ليبطش به قطعت يده ، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله^(٦) ، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوى استه أو يجرمه وينفيه من البلاد^(٧) » وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتاً فائراً^(٨) وكفارة قتل الكلب والقطعة والصفدة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء^(٩) »

مركز المرأة في المجتمع الهندى :

وقد نزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء^(١٠) ، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار ، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج^(١١) فإذا مات زوجها صارت

- | | |
|-----------------------------------|---|
| (١) الباب التاسع . | (٣) الباب الثانى . |
| (٢) منوشاستر الباب الحادى عشر . | (٥) أيضاً . |
| (٤) الباب العاشر . | (٧) أيضاً . |
| (٦) الباب الثامن . | (٩) منوشاستر . |
| (٨) R. C. Dutt. 342—343. | (١١) اقرأ استهلاك قصة مهابهارت (الملحمة الهندية الكبرى) . |
| (١٠) R. C. Dutt .P. 331. | |

كلموودة لا تزوج ، وتكون هدف الإهانات والتجريح ، وكانت أمة بيت زوجها المتوفى وخادم الأحماء ، وقد تحرق نفسها على إثر وفاة زوجها تفادياً من عذاب الحياة وشقاء الدنيا ، وهكذا صارت هذه البلاد المخصبة أرضاً وعقولا ، وهذه الأمة — التي وصفها بعض مؤرخي العرب بكونها معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة وأهل الأحلام الراجحة والآراء الفاضلة^(١) — لبعدها عهدا عن الدين الصحيح وضياع مصادره وتحريف رجال الدين وإيمان الناس في القياس والتخمين واتباع هوى النفوس ونزعات الشهوات أصبحت هذه البلاد مسرحاً للجهل الفاضح والوثنية الوضيعة والفسوة الممجية والجور الاجتماعي الذي ليس له مثيل في الأمم ولا نظير في التاريخ .

العرب : خصائصهم ومواهبهم :

أما العرب فقد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه في العصر الجاهلي بأخلاق ومواهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقدح المعلى ، كالفصاحة وقوة البيان وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماة في سبيل العقيدة والصرامة في القول وجودة الحفظ وقوة الذاكرة وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة .

ولسكن ابتلوا في العصر الأخير — لبعده عهدهم من النبوة والأنبياء وانحصارهم في شبه جزيرتهم وشدة تمسكهم بدين الآباء وتقاليد أمتهم — بانحطاط ديني شديد ووثنية سخيطة فلما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة ، وأدواء خافية واجتماعية جمعت منهم أمة منحطة الأخلاق فاسدة المجتمع متضعضة الكيان حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية وبعيدة عن محاسن الأديان .

وثنية الجاهلية :

كان الشرك هو دين العرب العام والعقيدة السائدة ، كانوا يعتقدون في الله أنه

(١) ساعد الأندلسي م ٤٦٢ طبقات الأمم من ١١ .

إله أعظم خالق الأكوان ومدبر السموات والأرض ، بيده ملكوت كل شيء . فلئن سئلوا من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ، « ولئن سألتهم من خلقهن ليقولن الله » ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلي تَسَع توحيد الأنبياء في خلوصه وصفاته وسموه ، وما كانت أذهانهم البعيدة المهذبة بالرسالة والنبوة والمفاهيم الدينية تُسَيِّغ أن دعاء أحد من البشر يتطرق إلى السموات العلى ويحظى عند الله بالقبول مباشرة بغبر واسطة وشفاعة ، قياساً على هذا العالم القاصر وعاداته وأوضاع الملكية الفاسدة ومجاري الأمور فيها ، فبحثوا لهم عن وسطاء توسلوا بهم إلى الله وأشركوهم في الدعاء ، وقاموا نحوهم ببعض العبادات ورسخت في أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحوّلت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر ، ثم ترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة ، واعتقدوا أن لهم مماثلة ومشاركة في تدبير الكون ، وقدرة ذاتية على النفع والضرر والخير والشر والإعطاء والمنع ، فإذا كان الأولون يعترفون لله بالآلوهية والربوبية الكبرى ويكتفون بالشفعاء والأولياء كان الآخرون يشركون آلهتهم مع الله ويعتقدون فيهم قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضرر والإيجاد والإفناء مع معنى غير واضح عن الله كإله أعظم ورب الأرباب^(١) .

أصنام العرب في الجاهلية :

ولم يزل هذا الفريق الثاني يقوى أمره ويستفحل مع إمعان القوم في الجاهلية وقرب هذه النزعة الوثنية إلى الحواس والمحسوسات ، واتفاقه مع ضعف التفكير حتى أصبحت هذه العقيدة السائدة ، وأصبح الذين يميزون بين الآلهة والوسطاء شواذ في الأمة ، ومن رجال الطبقة المثقفة ، وهكذا انغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ، بل كان لكل بيت صنم خصوصي . قال الكلبي : كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم

(١) راجع كتاب « بيضة النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن » — للأستاذ محمد عزت دروزه .

يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً^(١) . واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم ، وأمام غيره ، مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت ، وسموها الأنصاب^(٢) . وكان في جوف الكعبة — البيت الذي بُني لعبادة الله وحده — وفي فنائها ثلثمائة وستون صنماً^(٣) وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة . روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً ، جمعنا حشوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فخلبنا عليه ثم طفنا به^(٤) . وقال الكلبي : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذها ربا ، وجعل ثلاث أسافى لِقَدْرِهِ ، وإذا ارتحل تركه^(٥)

الآلهة عند العرب :

وكان للعرب — شأن كل أمة مشركة في كل زمان ومكان — آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب ، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ، ويتوسلون بهم عند الله واتخذوا كذلك من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم^(٦) . قال الكلبي : كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن^(٧) . وقال صاعد : كانت خمير تعبد الشمس ، وكفانة القمر ، وتميم الدبران ، ونخلم وجذام المشتري ، وطى سهيلا ، وقيس الشعرى العبور ، وأسد عطارداً^(٨) .

(١) كتاب الأصنام ص ٢٣ .

(٢) كتاب الأصنام ص ٣٣ .

(٣) الجامع الصحيح للبخاري كتاب المغازي باب فتح مكة .

(٤) الجامع الصحيح للبخاري كتاب المغازي باب وفد بني حنيفة .

(٥) كتاب الأصنام .

(٦) كتاب الأصنام ص ٤١ .

(٧) طبقات الأئمة لصاعد ص ٤٣٠ .

(٨) أيضاً ص ٣٤ .

اليهودية والنصرانية في بلاد العرب :

وانتشرت اليهودية والنصرانية في بلاد العرب ، ولكن لم تستفد منها العرب كثيراً من المعاني الدينية ، وكانتا نسختين من اليهودية في الشام ، والنصرانية في بلاد الروم والشام ، قد طرأ عليهما من التحريف والزيف والوهن ما شرحناه من قبل .

الرسالة والابحار بالبعث :

أما الرسالة ، فقد تصور العرب للنبي صورة خيالية ، وتمثلوه في ذات قدسية ، لا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يلد ولا يمشی في الأسواق . وكانت عقولهم الضيقة لا تهضم أن هنالك بعثاً بعد الموت ، وحياة بعد هذه الحياة ، فيها الحساب ، والثواب والعقاب ، قالوا : « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، وقالوا : « إذا كنا عظاماً ورفاتاً ، بالمبعوثون خلقاً جديداً » . قال صاعد : كان جمهورهم ينكر ذلك « المعاد » لا يصدق بالمعاد ولا يقول بالجزاء ، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبید ، وإن كان مخلوقاً مبتدعاً ، وكان فيهم من يقر بالمعاد ، ويعتقد إن نُحِرت ناقته على قبره يحشر راكباً ، ومن لم يفعل ذلك حشر ماشياً^(١) .

الدواء الخلقية والجماعية :

أما من جهة الأخلاق ، فكانت فيهم أدواء وأمراض متأصلة ، وأسبابها فاشية ، فكان شرب الخمر واسع الشيوع شديد الرسوخ فيهم ، تتحدث عن معاقبتها والاجتماع على شربها الشعراء ، وشغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم ، وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغتهم ، وكثرت فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب^(٢) وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً ، يرفرف عليها علم يسمى غاية . قال لبيد^(٣) :
قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها

(١) أيضاً ص ٤٤ .

(٢) اقرأ كتاب المختص لابن سيده ج ١١ ص ٨٢ - ١٠١ .

(٣) السبع المعلقات ، معلقة لبيد .

وكان من شيوع تجارة الخمر أن أصبحت كلمة التجارة مرادفاً لبيع الخمر ، كما قال
البعيد : وغاية تاجر ، وقال عمرو بن قبيصة ^(١) :

إذا سحب الریط والمروط إلى أدنى تجارى وأنقض المما
وكان القمار من مفاخر الحياة الجاهلية . قال الجاهلي ^(٢) :

أعيرتنا ألبانها ولحومها وذلك عاراً يا ابن ربطة ظاهر
نحاي بها أكفاءنا ونهينها ونشرب في أثمانها ونقامر
وكان عدم المشاركة في مجالس القمار عاراً ، يقول الشاعر ^(٣) :

وإذا هلكت فلا تریدی عاجراً غسّاً ولا برماً ولا معزلاً

قال قتادة : كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعده حزينا سليماً ينظر
إلى ماله في يد غيره فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً ^(٤) .

وكان أهل الحجاز العرب واليهود يتعاطون الربا ، وكان فاشياً فيهم ، وكانوا
يححفون فيه ويبلغون إلى حد القلو والقسوة ، قال الطبري : كان الربا في الجاهلية في
التضعيف وفي السنين ، يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حلّ الأجل فيقول له
تقتضيني أو تزيدني ؟ فإن كان عنده شيء يقضيه قضي وإلا حوله إلى السن التي فوق
ذلك ، إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ، ثم حقة ثم جزعة
ثم ربيعاً هكذا إلى فوق ، وفي العين يأتيه ، فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل
وإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً فتكون مائة فيجعلها إلى القابل مائتين ، فإن لم يكن
عنده جعلها أربع مائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه ^(٥) .

وقد رسخ الربا فيهم وجرى منهم مجرى الأمور الطبيعية التي صاروا لا يفرقون

(١) ديوان الحماسة .

(٢) ديوان الحماسة .

(٣) ديوان الحماسة .

(٤) تفسير الطبري « تفسير آية » إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة
والبغضاء الآية .

(٥) تفسير الطبري « ج ٤ ص ٥٩ » .

بينه وبين التجارة الطبيعية وقالوا إنما البيع مثل الربا ، قال الطبرى إن الذين كانوا يأكلون الربا من أهل الجاهلية كان إذا حل مال أحدهم على غريمه يقول الغريم لغريم الحق زدنى فى الأجل وأزيدك فى مالك فكان يقال لها إذ فعلا ذلك هذا ربا لا يحل فإذا قيل لهما ذلك قالوا : سواء علينا زدنا فى أول البيع أو عند محل المال^(١) .

ولم يكن الزنا نادراً وكان غير مستنكر استنكاراً شديداً ، فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليلات ويتخذ النساء أخلاء بدون عقد ، وكانوا قد يكرهون بعض النساء على الزنا ، قال ابن عباس كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا يأخذون أجورهن^(٢) .

قالت عائشة : « إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء فنكاح منها ، نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها ، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئنها أرسلنى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الرجل ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومرت عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحببت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطه ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك^(٣) .

(١) تفسير الطبرى ، ص ٦٩ . (٢) تفسير الطبرى ج ١٨ ص ١٠٤ .

(٣) الجامع الصحيح للبخارى كتاب النكاح باب من قال لا نكاح إلا بولي .

المرأة في المجتمع الجاهلي :

وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف ، تؤكل حقوقها وتُبترّ أموالها وتحرم من إرثها وتعزل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه^(١) وتورث كما يورث المتاع أو الدابة^(٢) ، عن ابن عباس قال « كان الرجل إذا مات أبوه أو حميه فهو أحق بامرأته إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدى بصدقتها أو تموت فيذهب بمالها » وقال عطاء بن أبي رباح : إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل فترك امرأة حبسها أهلها على الصبي يكون فيهم ، وقال السدي : إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فإذا مات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فالق عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو ينكحها فيأخذ مهرها وإن سبقته فذهبت إلى أهلها فهي أحق بنفسها^(٣) ، وكانت للمرأة في الجاهلية يطفف معها السكيل ، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هي بحقوقها ، يؤخذ مما تؤقي من مهر وتمسك ضراراً للاعتداء^(٤) ، وتلاقى من بعلها نشوراً أو إعراضاً وتترك في بعض الأحيان كالمعلقة^(٥) ، ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث^(٦) ، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد^(٧) .

وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد ، ذكر الهيثم بن عدي — على ما حكاه عنه الميبداني — أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام ، وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد الأولاد فمنهم من كان يثد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهن من أجلهن ، ومنهم من كان يثد من البنات من كانت زرقاء أو شياء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاؤماً منهم بهذه الصفات ، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق

(١) سورة البقرة آية ٢٣٢ . (٢) النساء آية ١٩ .

(٣) تفسير الطبري ج ٤ ص ٣٠٨ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٣١ . (٥) النساء آية ١٣٩ .

(٦) الأنعام آية ١٤٠ . (٧) النساء آية ٣ .

وخوف الفقر ، وهم الفقراء من بعض قبائل العرب فكان يشتريهم بعض سراة العرب وأشرفهم^(١) قال صعصعة بن ناجية جاء الإسلام وقد فديت ثلثمائة موءودة^(٢) ومنهم من كان ينذر - إذا بلغ بنوه عشرة - بحر واحد منهم كما فعل عبد المطلب ، ومنهم من يقول الملائكة بنات الله سبحانه عما يقولون فألحقوا البنات به تعالى فهو عز وجل أحق بهن^(٣)

وكانوا يقتلون البنات ويثدونهن بقسوة نادرة في بعض الأحيان ، فقد يتأخر وأد الموءودة لسفر الوالد وشغله فلا يثدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل ، وقد حكموا في ذلك عن أنفسهن مبكيات ، وقد كان بعضهم يلقي الأثني من شاهق^(٤) .

العصبية القبلية والدموية في العرب :

وكانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة ، وكان أساسها جاهلياً تمثله الجملة المأثورة عن العرب « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فكانوا يتناصرون ظالمين أو مظلومين .

وكانت في المجتمع العربي طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلاً على غيرها ، وامتيازاً ، فتترفع على الناس ولا تشاركهم في عادات كثيرة حتى في بعض مناسك الحج ، فلا تقف بعرفات وتتقدم على الناس في الإفاضة والإجازة^(٥) ، وتنسأ الأشهر الحرم ، وكان النفوذ والمناصب العليا والنسب متوارثاً ، يتوارثه الأبناء عن الآباء ، وكانت طبقات مسخرة وطبقات سوقة وعوام ، فكان التفاوت الطبقي من مسلمات المجتمع العربي .

وكان العرب والغزو مما طبعت عليه طبيعتهم العربية ، وأهمتهم إياه معيشتهم

(١) اقرأ بلوغ الأرب في أحوال العرب للآلوسي .

(٢) كتاب الأغاني .

(٣) بلوغ الأرب (٤) أيضاً .

(٥) سورة البقرة آية ١٩٩ .

البدوية ، حتى صارت الحرب مسلاة لهم وملهى فقال قائلهم ^(١) :

وأحياناً على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا

هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر
فقد وقعت الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل ومكثت أربعين سنة أريقت فيها
دماء غزيرة ، وما ذاك إلا أن كليياً رئيس معدّ رمى ضرع ناقة لبسوس بنت منقذ
فاختلط دمها بلبنها وقتل جساس بن مرة كليياً ، واشتبكت الحرب بين بكر وتغلب ،
وكان كما قال المهلهل أخو كليب : « قد فنى الحيان وثكلت الأمهات ويّم الأولاد .
دموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن ^(٢) »

كذلك حرب داحس والغبراء فما كان سببها إلا داحساً فرس قيس بن زهير
كان سابقاً في رهان بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر فعارضه أسدى بإيعاز من
حذيفة فلطم وجهه وشغله ، ففاته الخيل وتلا ذلك قتل ثم أخذ بالنار ونصر القبائل
لأبنائها وأسر ونزع للقبائل ، وقتل في ذلك ألوف من الناس ^(٣)

وكانت الحياة كلها شبكة محبوكة من ترات وثارات فشت حبالها في القبائل
وأوصى بها الآباء الأبناء ، وحملت العيشة البدوية وقلة أسباب الحياة ، والطمع
والجشع ، والأحقاد والاستهانة بحياة الإنسان على الفتك والسلب والنهب ، حتى
كانت أرض الجزيرة كفة حابل لا يدرى الإنسان متى يغتال وأين يهب . وكان
الناس يتخطفون من بين عشيرتهم في القوافل حتى احتاجت الدول القوية
إلى الخفارة الساهرة ، والبذرة القوية ^(٤) ، فسكانت غير كسرى تبذر من
الملائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالخيرة ، والنعمان يبذر بها بمخفراء من
بنى ربيعة حتى تدفع إلى هوذة بن علي الحنفي بالليامة فيبذر بها حتى تخرج من أرض

(٢) ديوان الحماسة .

(٣) انظر أيام العرب .

(٤) البذرة : الخفارة والحراسة .

بنى حنيفة ، ثم تدفع إلى تميم وتجعل لهم جمالة فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن وتسلم إلى
عمال كسرى باليمن^(١) .

ظهر الفساد في البر والبحر :

وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس
الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ، ولا قيادة
مبنية على العلم والحكمة ، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء .

لمعات في الظلم :

وكان النور الضعيف الذي يتراءى في هذا الظلام المطبق من بعض الأديرة
والكنائس أشبه بالحباحب الذي يضيء في ليلة شديدة الظلام فلا يخترق الظلام ،
ولا ينير السبيل ، وكان الذي يخرج في ارتياد العلم الصحيح ، وانتجاع الدين الحق
يهم على وجهه في البلاد ، ترفعه أرض وتخفضه أخرى ، حتى يأوى إلى رجال شواذ في
الأمم والبلاد ، فيلجأ إليهم كما يلجأ الفريق إلى ألواح سفينة مكسرة ، هشمتها الطوفان ،
يدل على ندورتهم خبر سلمان الفارسي أكبر الرواد الدينيين في القرن السادس الذي
شرق وغرب في الفحص عنهم ، ولم يزل ينتقل من الشام إلى الموصل ، ومن
الموصل إلى نصيبين ، ومن نصيبين إلى عمورية ، ويوصى به بعضهم إلى بعض ،
حتى أتى على آخرهم فلم يجد لهم خامساً وأدركه الإسلام في هذا الظلام ، قال سلمان :
« لما قدمت الشام ، قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا : الأسقف في
الكنيسة ! قال فجثته ، فقلت : إني قد رغبت في هذا الدين ، وأحببت أن أكون
معك أخدمك في كنيستك ، وأتلم منك وأصلي معك ، قال : فادخل ، فدخلت
معه ، قال : فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه منها
أشياء اكتنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق ،

قال : وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات ، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجلاً سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جشموه بها اكتنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً ، قالوا : وما علمك بذلك ؟ قال قلت : أنا أدلكم على كنزه ؛ قالوا : فدلنا عليه ، قال فأريتهم موضعه ، قال : فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً ، قال : فلما رأوها ، قالوا : والله لا ندفعه أبداً ، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ، ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه بمكانه ، قال : يقول سلمان فما رأيت رجلاً لا يصلى الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ولا أداب ليلاً ونهاراً منه ، قال : فأحببته حباً لم أحبه من قبل وأقت معه زماناً ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت له يا فلان : إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه من قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله ، فإلى من توصى بى ، وما تأمرنى ؟ قال يا بنى والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه ؛ لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان ، فهو على ما كنت عليه فالحق به ، قال : فلما مات وغُيِبَ لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصانى عند موته أن ألحق بك ، وأخبرنى أنك على أمره قال : فقال لى : أقم عندى فأقت عنده ؛ فوجدته خير رجلاً على أمر صاحبه ؛ فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة ، قلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصى بى إليك وأمرنى باللاحق بك ، وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى ؛ فإلى من توصى بى وما تأمرنى ؟ قال : يا بنى والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به ؛ فلما مات وغُيِبَ لحقت بصاحب نصيبين فخبرته فأخبرته بنصيبين وما أمرنى به صاحبه ؛ قال : فأقم عندى فأقت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ؛ فأقت مع خير رجل ؛ فوالله ما لبث أن نزل به الموت ؛ فلما حضر قلت له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان ثم أوصى بى فلان إليك ؛ فإلى من توصى بى وما تأمرنى ؟ قال : أى بنى ؛ والله ما نعلم أحداً بقى على أمرنا آمرك أن تأتية إلا رجلاً بعمورية فإنه بمثل ما نحن

عليه ؛ فإن أحببت فاته ؛ قال فإنه على أمرنا ، قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب
عمورية ، وأخبرته خبري فقال : أقم عندي ؛ فأقمت مع رجل على هدى أصحابه
وأمرهم ، قال : واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة ، قال ثم نزل به أمر الله ،
فلما حضر قلت له يا فلان إني كنت مع فلان ، فأوصى بي فلان إلى فلان ، وأوصى
بي فلان إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإني من توصى بي وما تأمرني ؟
قال : أي بني ؛ والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس أمرك
أن تأتيه ؛ ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض
العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل
الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ؛ فإن استطعت أن تلحق بتلك
البلاد فافعل ^(١) .

(١) رواه الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس عن سلمان ، ورواه الحاكم في مستدركه ،
والرواية لاتصال سندها وعدالة رواتها من أصح الوثائق التاريخية عن الجاهلية وحالتها الدينية -

الفصل الثاني

النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي

الملكية المطلقة :

كان العصر الجاهلي مسرحاً للحكم الجائر المستبد ، فقد كانت السياسة في هذا العصر ملكية مطلقة ، قد تقوم على تقديس البيوتات الخاصة ، كما كان في فارس ، فقد كان آل ساسان يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله ، وقد عملوا كل ما في استطاعتهم للتأثير في رعاياهم حتى أذعنوا لهذا الحق الملكي المقدس وصارت لهم عقيدة يدينون بها ، وقد تقوم على تقديس الملوك مطلقاً ، فكان الصينيون يسمون ملكهم الإمبراطور ابن السماء ، ويعتقدون أن السماء ذكر ، والأرض أنثى ، وقد ولد الكائنات ، وكان الإمبراطور ختاً الأول هو بكر هذين الزوجين^(١) ، وكان الإمبراطور يعتبر كالأب الوحيد للأمة ، له أن يفعل ما يشاء ، وكانوا يقولون له : « أنت أبو الأمة وأمها » ، ولما مات الإمبراطور « لي يان » أو « تاي تسونغ » لبست الصين ثوب الحداد ، وحزنت الأمة حزناً شديداً ، فمنها من أنحن وجهه بالأبر ومن قطع شعره ، ومن ضرب أذنيه بجانب النعش . وقد تقوم على تقديس بعض الشعوب والأوطان كما كان في المملكة الرومية ، فكان المبدأ الأساسي هو تقديس الوطن الرومي ، والشعب الرومي ، ولم تكن الأمم والبلاد إلا خادمة لمصالحها وعروفاً يجري منها الدم إلى مركزها ، فكانت الدولة تستهين في ذلك بكل حق ومبدأ ، وتدوس كل شرف وكرامة ، وتستحل كل ظلم وشنيعة ، ولا يمنع بلاداً من هذا

الحليف والظلم اشتراك في دين وعقيدة ولا إخلاص ووفاء للمملكة ، ولا يعترف لها في زمن من الأزمان بحق حكمها نفسها بنفسها والتمتع بحقوقها في أرضها إنما هي ناقة ركوب في بعض الأحيان خلوب في بعضها لا يقدم لها من العلف إلا ما يقيم صلبها ويدير ضرعها .

الحكم الروماني في مصر والشام :

يقول الدكتور الفرد . ج . بتلر عن الحكم الروماني في مصر :
« إن حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد ، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتسكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلوبهم في الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم ، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم »^(١)

ويقول مؤرخ عربي شامي عن الحكم الروماني في الشام :
« كانت معاملة الرومان للشاميين بادية بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه ملكتهم في داخلتها من المشاغب والمتاعب . ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أنفس ما كانت عليه من الرق والعبودية ، ولم تضعف رومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانين ، ولا أرضهم أرضاً رومانية ، بل ظلوا غرباء ورعايا ، وكثيراً ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال ، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق ، وهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام »^(٢) .
« حكم الرومان الشام سبعمائة سنة بدأ معهم في البلاد النزاع والشقاق والاستبداد والآنانية وقتل الأنفس ، وحكم اليونان الشام ٣٦٩ سنة سادت في عهدهم الحروب الطاحنة والمظالم وظهرت المطامع اليونانية بأعظم مظاهرها وكان حكمهم من أشد

(١) فتح العرب لمصر للدكتور الفرد . ج . بتلر تعريب محمد فريد أبو حديد .

(٢) خطط الشام للأستاذ كرد علي ج ١ ص ١٠١ .

الولايات وأشأم النكبات على الأمة الشامية^(١) .

وبالاختصار كانت الولايات الرومية والفارسية غير مرتاحة في حكم الأجانب ، وكانت الأحوال السياسية والاقتصادية مضطربة حتى في مراكز الدولة وعواصمها .
نظام الجباية والخراج في إيران :

ولم يكن النظام المالى والسياسة المالية في إيران عادلة مستقرة بل كانت جائرة مضطربة في كثير من الأحوال تابعة لأخلاق الجباة العاملين وأهوائهم والأحوال السياسية والحربية .

يقول مؤلف « إيران في عهد الساسانيين » :

« كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجباية الأموال ولما كانت الضرائب تختلف كل سنة وتزيد وتنقص لم يكن دخل الدولة وخرجها مقدّرَيْن مضبوطين ، وقد كانت الحرب تنشب في بعض الأحيان وليست عند الدولة أموال تنفقها على الحرب فكان يلجئها ذلك إلى ضرائب جديدة وكانت المقاطعات الغربية الغنية — وخاصة بابل — هدف هذه الضرائب دائماً^(٢) .

كنوز الملوك ومخزائهم

ولم يكن ما ينفق على أهل البلاد في إيران من مالية الدولة شيئاً كثيراً وقد اعتاد ملوك إيران من القديم أن يكتنزوا النقود ويدخروا الطرف والأشياء الغالية^(٣) ، ولما نقل خسرو الثانى فى المدائن أمواله إلى بناية أحدثها سنة ٦٠٧ — ٦٠٨ م كان ما نقله ٤٦٠ مليون وثمانية ملايين منقال ذهب وذلك ما يساوى ٣٧٠ مليون وخمسة ملايين فرنك ذهبى وفى العام الثالث عشر من جلوسه على العرش كان فى خزائنه ٨٠٠ مليون منقال ذهب^(٤) .

(١) أيضاً ج ١ من ١٠٣ . (٢) إيران فى عهد الساسانيين من ١٦١ .

(٣) إيران فى عهد الساسانيين من ١٦٣ .

(٤) إيران فى عهد الساسانيين .

الفصل التاسع بين طبقات المجتمع :

كان الغنى لأفراد معدودين والفقير لمعظم الأهلين؛ يقول مؤلف « إيران في عهد الساسانيين » عن أخصب عهد من عهود إيران وعن أعدل ملك من ملوكها وهو كسرى أنوشروان « إن ما قام به كسرى من إصلاح النظام المالى كان فى مصلحة مالية المملكة أكبر منه فى مصلحة الرعية فلم تزل العامة يعيشون فى الجهل والضعف كما كانوا فى السابق ، وما شاهد الفلاسفة البيزنطيون من فوارق نسبية بين طبقات المجتمع والفصل التاسع بينها والبؤس الذى كان يعيش فيه رجال الطبقات المنحطة أقلق خاطرهم وانتقدوا المجتمع الفارسى بقولهم إن الأقوياء فيه يقهرون الضعفاء ويعاملونهم بظلم وقسوة شديدة^(١) » .

وكانت المناصب وقفاً على بعض البيوتات والسلائل ذات الثروة والجاه والنفوذ عند الحكام .

الفلاحون فى إيران :

أثقلت الضرائب المتنوعة المتجددة كاهل الجمهور حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية لأمة لا يحبونها أو لغرض لا يتحمسون له وفشت فى الناس البطالة والجنايات وطرق غير مشروعة للكسب يقول مؤلف « إيران فى عهد الساسانيين » :

« كان الفلاحون فى شقاء وبؤس عظيم وكانوا مرتبطين بأراضيهم وكانوا يستخدمون مجاناً ويكلفون كل عمل ، يقول المؤرخ « اميان مارسيلينوس » إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم ولم يكونوا يغالون إعانة أو تشجيعاً من راتب أو أجرة^(٢) وكانت علاقة الفلاحين بالملك أصحاب الأراضي كعلاقة العبيد بالأسادة^(٣) » .

(١) إيران فى عهد الساسانيين ص ٥٩٠ .

(٢) أيضاً ص ٣٢٤ .

(٣) أيضاً ص ٤٣٥ .

الاضطهاد والاستبداد :

واضطهد اليهود في الشام والعراق واليعقوبيون في مصر اضطهاداً كبيراً واستبد
الحكام استبداداً شديداً وعاثوا في البلاد والدماء والأموال والأعراض ونصام أهل
الحل والعقد عن شكواهم حتى صار الناس يعدون هذه الأوضاع الفاسدة ضربة لازب
وقضاء محتوماً ، وصاروا في بعض الأيام يفضلون الموت على الحياة .

المرئنة المصطنعة والحياة المترفة :

استحوذت على الناس في الدولتين — الفارسية والرومية — حياة الترف
والبذخ وطفى عليهم بحر المدنية المصطنعة والحياة المزورة وغرقوا فيه إلى آذانهم .
فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين في غفلتهم لا هم لهم إلا اللذة
والتهام الحياة وبذخوا بذخاً عظيماً تحظى القياس ، ودققوا في مرافق المعيشة وفضول
المدنية وحواشي الحياة تدقيقاً عظيماً جداً ، فكان لكسرى أبرويز ١٢ ألف امرأة
وخمسون ألف جواد وثى لا يحصى من أدوات الترف والقصور الباذخة ومظاهر
الثروة والنعمة ، وقصره مثال في الآبهة والغنى^(١) ، يقول مكاربيوس : « لم يرو في
التاريخ أن مليكاً بذخ وتنعم مثل الأكاسرة الذين كانت تأتيهم الهدايا والجزايات
من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى^(٢) ولما خرجوا من
العراق في الفتح الإسلامي تركوا في الخزائن من الثياب والمقاع والآنية والفضول
والأطاف والأدهان ما لا يدري ما قيمته » وقد وجد العرب قبايا تركية مملوءة سلالا
مختمة بالرصاص ، قال العرب فما حسبناها إلا طعاماً فإذا هي آنية الذهب والفضة^(٣) ،
ووصف المؤرخون العرب بهار كسرى الذي أصابه المسلمون يوم المدائن فقالوا :
« هو ستون ذراعاً في ستين ذراعاً ، بساط واحد مقدار جريب ، أرضه بذهب

(١) تاريخ إيران لشاهين مكاربيوس طبع ١٨٩٨ ص ٩٠ .

(٢) أيضاً ص ٢١١ .

(٣) تاريخ الطبري .

ووشيه بفصوص وثمره بجوهر وورقه بحرير وماء الذهب فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار ، وخلال ذلك كالدير ، وفي حافاته كالأرض المزروعة ، والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب ، ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك ، وكانوا يعدونه للشتاء ، إذا ذهب الرياحين ، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكانهم في رياض^(١) ، وهذا يدل على ما وصل إليه البذخ والترفة في المدينة الفارسية .

كذلك كان الشام في الدولة الرومية وحواضرها وكانت الدولتان والمدينتان — الفارسية والرومية — كفرنسى رهان في البذخ والترفة في دقائق المدنية ، وقد بذخ الأباطرة ونوابهم وأمراؤهم في الشام بذخاً عظيماً وحوى بلاطهم وقصورهم ومجالس شربهم ولهوهم من آلات الترف وأسباب الرفاهة شيئاً كثيراً ، وبلغت من الترف والأناقة شأواً بعيداً ، وقد وصف حسان بن ثابت الشاعر المخضرم مجلس جبلة ابن الأيهم الفسائي فقال : لقد رأيت عشرين قيان خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة أهدهن إليه إلياس بن قبيصة وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن صائفاً بطن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكسي صيفية يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف ، وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه^(٢) .

وكان الأمراء والأقوال والأغنياء ورجال البيوتات الشريفة وأفراد الطبقة الوسطى على آثار الملوك يحاولون أن يقلدوهم في لباسهم وطعامهم ومجالسهم وترفهم وكانوا يأخذون أنفسهم بعاداتهم ومناهج حياتهم ، وارتفع مستوى الحياة ارتفاعاً عظيماً وتعقدت المدنية تعقداً عظيماً ، وصار الواحد ينفق على نفسه وعلى جزء من لباسه

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٧٨ .

(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني — ج ١٤ ، ص ٢ .

ما يشبع قرية أو يكسو قبيلة ، وكان لا بد منه لكل شريف أو وجاه ، حتى إذا
أخل به أو غفل عنه أشير إليه بالبنان وتفادته العيون ، حتى صار ذلك واجباً من
واجبات الحياة وشريعة من شرائع المجتمع التي لا يحل العدول عنها : عن الشعبي
قال كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائهم ، فمن تم شرفه
فقيمة قلنسوته مائة ألف ، وكان هرمز من تم شرفه فكانت قيمتها مائة ألف وكانت
مفصصة بالجوهر^(١) ، وتما شرف أحدهم أن يكون من بيوتات السبعة وأن
الأزاديه كان مرزبان الخيرة أزمان كسرى ، وكان قد بلغ نصف الشرف ، وكان
قيمة قلنسوته خمسين ألف^(٢) وبيع ما على رستم بسبعين ألفاً وكانت قيمة قلنسوته
مائة ألف^(٣) .

درج الناس على هذه المدنية المترفة وعاداتها الفاسدة ورضعوا بلبانها ونشأوا عليها
حتى أصبحت لهم الطبيعة الثانية ، وعز عليهم الفصال وشق عليهم أن يفتزلوا
إلى الحياة الطبيعية البسيطة حتى في ساعة عصيبة وفي فاقة واضطرار ، ذكروا أن
يزدجرد آخر ملوك فارس لما فر من المدائن أخذ معه ألف طاه وألف مغن وألف قيم
للنمور وألف قيم للبراة وآخرين وكان يستقل هذا العدد^(٤) واستسقى الهرمزان ملك
الأهواز أمام عمر فأتى به في قدح غليظ فقال لومت عطشاً لم أستطع أن أشرب
في مثل هذا فأتى به في إناء يرضاه^(٥) .

الزيادة الباهظة في الضرائب :

كانت نتيجة هذا البذخ والترف الطبيعية الزيادة الباهظة في الضرائب وسن
القوانين الجديدة لابتزاز الأموال من طبقات الفلاحين والصناع والتجار وأهل

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٦٠ . (٢) أيضاً ص ١١ .

(٣) أيضاً ص ١٣٤ .

(٤) لبران في عهد الساسانيين ، لأرتهر كرستن سن .

(٥) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٦١ .

الحرف حتى وصلت إلى حد الإرهاق وأثقلت كاهل الأهليين وأنقضت ظهرهم يقول مؤلف « إيران في عهد الساسانيين » : « وقد جرت عادة ملوك إيران بقبول الهدايا والتقديمات من الرعية وكانوا يسمون ذلك « آيين » وكان ذلك علاوة على الضرائب الرسمية ، وكانوا يأخذون من الناس الهدايا جبراً يوم نوروز والمهرجان وكانت مناجم الذهب في أرمينيا ملكاً للملك ولنفقائه الخاصة^(١) » — يقول المؤرخ العربي الشامي : « كان يقضى على الشعب الشامي أن يؤدي الجزية وعشر غلاته وأتاوة من المال ورسمًا على كل رأس وللشعب الروماني موارد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزراع الخنطة والمراعي يؤجرونها من شركات المتعهدين يسمونهم العشارين ، يتناعون من الحكومة حق جباية الخراج ، وفي كل ولاية عدة شركات من العشارين ، ولكل شركة مستخدمون من السكتاب والجبابة يظهرون في مظهر السادة ويتناولون أكثر مما يجب لهم أخذه ويسلبون نعمة الأهليين وكثيراً ما يبيعونهم كما يباع الرقيق^(٢) » .

« أوجز أحدهم السياسة الإمبراطورية في الرومان بقوله الراعي الصالح يجز صوف غنمه ولا ينتقه فمضى القرنان وإمبراطرة الرومان يكتفون بجز سكان مملكتهم يسلبون منهم كثيراً من الأموال ولسكنهم يحمونهم من العدو الخارجي^(٣) »

شفاء المجرور :

وهكذا أصبح أهل البلاد في كلتا المملكتين طبقتين متميزتين تمام التميز طبقة الملوك والأمراء ورجال البلاط الملكي وأسرم وعشائرم والمتصلون بهم والأغنياء فكانوا يعيشون بين الأزهار والرياحين ويتقلبون في أعطاف النعيم وينعمون أفراسهم عسجداً ويكسون بيوتهم حريراً وسندساً .

(١) إيران في عهد الساسانيين لأرتهر كرستني سين .

(٢) خطط العام للأستاذ كرد علي ج ٥ ص ٤٧ .

(٣) خطط الشام للأستاذ كرد علي ج ٥ ص ٤٧ .

وطبقة الفلاحين والصناع والتجار الصغار وأهل الحرف والأشغال ، كانوا في جهد من العيش ، يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب والإتاوات ويرسفون في القيود والأغلال ويعيشون عيش البهائم لا حفظاً لهم في الحياة إلا العمل غيرهم والشقاء انعيمهم ولا هم لهم إلا الأكل والعلف فإذا سئموا هذا العيش المر تعللوا بالمسكرات والممليات ، وإذا تنفسوا من هذا العناء رجعوا في المحرمات ، ورغم هذا الجهد في المعيشة يجهدون أنفسهم في تقليد رجال الطبقة العليا في كثير من أساليب حياتهم ، فكان ذلك أشد من الجهد في سبيل الكفاف من الرزق والبلغة من العيش ، فتنغص حياتهم ، ويتكدر صفوهم ، ويشغل بالهم .

بين غنى مطغ وفقر منس :

وهكذا ضاعت رسالة الأنبياء والأئمة الفاضلة والمبادئ السامية في العالم المتمدن المعمور بين غنى مطغ وفقر منس وأصبح الغنى في شغل عن الدين والاهتمام بالآخرة والتفكير في الموت وما بعده بنعيمه وترفيه ، وأصبح الفلاح أو العامل في شغل عن الدين كذلك لهومومه وأحزانه وتكاليف حياته وأصبحت الحياة ومطالبها هم الغنى والفقير وشغلها الشاغل ، وكانت رحي الحياة تدور حول الناس في قوة لا يرفعون فيها إلى الدين والآخرة رأساً ولا يتفرغون لما يتصل بالروح والقلب والمعاني السامية ساعة .

نصوير الجاهلية :

وقد صور أحد كبار علماء الإسلام^(١) هذه الحال فأجاد التصوير — قال :
« اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قروناً كثيرة وخاضوا في لذة الدنيا وسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان ، وتعمقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها ، فما زالوا يعملون بها

(١) وهو شيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (م - ١١٧٦ هـ) .

ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها حتى قيل إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس
من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم أو لا يكون له قصر شامخ
وآبن (١) وحمام وبساتين ، ولا يكون له دواب فارهة وغللمان حسان ولا يكون له
توسع في المطاعم وتجميل في الملابس ، وذكر ذلك يطول ، وماتراه من ملوك بلادك
يفنيك عن حكاياتهم ، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم ، وصار لا يخرج من
قلوبهم إلا أن تمزق ، وتولد من ذلك داء عضال دخل في جميع أعضاء المدنية وآفة
عظيمة ، ولم يبق منهم أحد من أسواقهم وستاقهم وغنيهم وفقيرهم ، إلا قد استولت
عليه وأخذت بتلايبه وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء لها ،
وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة ، ولا تحصل تلك
الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم ،
فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم ، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل في النضح
والدياس والحصاد ، ولا تقتنى إلا ليستعان بها في الحاجات ، ثم لا تترك ساعة من
العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ولا يستطيعون
ذلك ، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهتمه دينه (٢) .

(١) فنية .

(٢) حجة الله البالغة (باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم) .

الباب الثاني

من الجاهلية إلى الإسلام

الفصل الأول

مناهج الأنبياء في الإصلاح والانقلاب

العالم الذي واجهه محمد صلى الله عليه وسلم:

بعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزاً عنيفاً؛ فإذا كل شيء فيه في غير محله فمن أناته ومتاعه مات كسراً، ومنه ما التوى وانعطف، ومنه ما فارق محله اللاتق به وشغل مكاناً آخر، ومنه ما تكسّر وتكوّم. نظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر؛ رأى إنساناً معكوساً قد فسدت عقليته، فلم تعد تسيغ البديهيّات، وتعقل الجليات؛ وفسد نظام فكره، فإذا النظرى عنده بديهى وبالعكس، يستريب في موضع الجزم، ويؤمن في موضع الشك. وفسد ذوقه فصار يستحلى المر ويستطيب الخبيث، ويستمرى الوخيم؛ وبطل حسه فأصبح لا يفيض العدو الظالم، ولا يحب الصديق الناصح، رأى مجتمعاً هو الصورة الصغرة للعالم، كل شيء فيه في غير مكانه أو في غير محله، قد أصبح فيه الذئب راعياً، والخصم الجائر قاضياً، وأصبح الجرم فيه سعيداً حظياً، والصالح محروماً شقيماً؛ لا أنسكروا في هذا المجتمع من المعروف، ولا أعرف من المنكر. ورأى عادات فاسدة تستعجل

فناء البشرية ، وتسوقها إلى هوة الهلاك رأى معاقرة الحمر إلى حد الإدمان ، والغلاظة والفجور إلى حد الاستهتار ، وتعاطى الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال . ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع والتهامة ، ورأى الفسوة والظلم إلى حد الواد وقتل الأولاد . رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولاً ، وعباد الله خولاً ، ورأى أحراراً ورهباناً أصبحوا أرباباً من دون الله ، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

رأى المواهب البشرية ضائعة أوزائفة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح ، فعادت وبالأعلى أصحابها وعلى الإنسانية ، فقد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية ، والجود تذكيراً وإسرافاً ، والأنفة حمية جاهلية ، والذكاء شطارة وخديعة ، والعقل وسيلة لا ابتكار الجنايات ، والإبداع في إرضاء الشهوات .

رأى أفراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق ، ينتفع بها في هيكل الحضارة ، وكألواح الخشب لم تسعد بفجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة .

رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راع ، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه ، ويجرح به أولاده وإخوانه .

نواميس الحياة الفاسدة :

إن كل ناحية من نواحي هذه الحياة الفاسدة تسترعى اهتمام المصلح وتشغل باله ، فلو كان رجل من عامة رجال الإصلاح لتوفر على إصلاح ناحية من نواحيها ، وظل طول عمره يعالج عيباً من عيوب المجتمع ويعانيه ، ولكن نفسية الإنسان معقدة التركيب دقيقة النسج كثيرة المنافذ والأبواب ، خفية التخلص والتفصل ، وإنها إذا زاعجت أو اعوججت لا يؤثر فيها إصلاح عيب من عيوبها وتغيير عادة من عاداتها ، حتى يغير اتجاهها من الشر إلى الخير ومن الفساد إلى الصلاح ، وتقتلع جرثومة الفساد من النفس البشرية التي قد تنبت بفساد المجتمع واختلال التربية كما تنبت الحشائش الشيطانية

في أرض كريمة ، وتحسم مادة الشر ويفرس فيها حب الخير والفضيلة ومخافة الله عز وجل .

وكل داء من أدواء المجتمع الإنساني وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب إصلاحه حياة كاملة ، ويستغرق عمر إنسان بطوله ، وقد يستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولا يزول ، فإذا ذهب أحد يطارد الخمر في بلاد قد نشأت على حياة الترف والبذخ ودانت باللهو واللذة ، أعياه أمرها وحبطت جهوده ، لأن شرب الخمر ليس إلا نتيجة نفسية تعشق اللذة حتى في السم ، وتبتغي النشوة حتى في الإثم ، فلا تهجره بمجرد الدعاية والنشر والكتب والخطب وبيان مضاره الطبية ومفاسده الخلقية ، وبسن القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة^(١) ، لا تهجره إلا بتغيير نفس عميق ، وإذا أرغمت على تركه بغير هذا التغيير تسَلَّت إلى غيره من أنواع الجريمة أو استباحته بتغيير الأسماء والصور .

لم يكن الرسول رجلاً إقليمياً أو زعيماً وطنياً :

وكان مجال العمل في بلاد العرب فسيحاً إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم رجلاً إقليمياً وسار في قومه سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين ، كان له أن يعقد للأمة العربية لواء تنضم إليه قريش والقبائل العربية ، ويكون إمارة عربية قوية موحدة يكون رئيسها ، ولا شك أن أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرها كانوا في مقدمة من ينضم إلى هذا اللواء القومي ، ويقاتلون تحته ويقلدونه الزعامة . أما كانوا يشهدون

(١) منعت حكومة أمريكا الخمر وطاردتها في بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتنجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ، ويقدر أن ما أنفقت الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار وأن ما نشرته من الكتب والذميريات يشتمل على ١٠ بلايين صفحة وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه ، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس وسجن ٥٣٢٣٥ نفس ، وبلغت الغرامات إلى ١٦ مليون جنيه وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه ، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمر وعسداً في تعاطيها ، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ م إلى سحب هذا القانون وإباحة الخمر في مملكتها لإباحة مطلقاً .
« من كتاب تنقيحات ، للسيد أبي الأعلى المودودي » .

بصدقه وأمانته ؟ أما حكموه في أكبر حادث من حوادث حياتهم المسكية ومنحوه أكبر شرف ، إذ حكموه في وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت ؟ أما قالوا له على لسان عتبة ، وهم ما عرفوا الإغراء السياسي : « إن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألوفنا لك فكنت رأساً ما بقيت »^(١) ، وإذا صار له ذلك كان يمكنه أن يرمى الدولة الفارسية بفرسان العرب وشجعانهم ، وينتصر للعروبة المهضومة وينتصر من العجم الظالمين ، ويعزز علم الفتح العربي والمجد القومي على هضاب الروم وفارس ، وإذا لم يكن من حكمة السياسة أن يناجز إحدى الإمبراطوريتين في ذلك الحين ، فكان يمكنه أن يغير على اليمن أو الحبشة وجارة أخرى ويضمها إلى الإمارة العربية الوليدة .

وكانت في الحياة العربية نواح اجتماعية واقتصادية كثيرة تحتاج إلى حنكة سياسية وكفاية إدارية وعزيمة عصامي وابتكار عبقرى ، فلو قيض لها رجل من هؤلاء الرجال لكان للعرب شأن كبير وتاريخ جديد .

لم يبعث لينسخ باطلا بباطل :

ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يُبعث لينسخ باطلا بباطل ، ويبدل عدواناً بعدوان ، ويحرم شيئاً في مكان ويحلّه في مكان آخر ، ويبدل أثره أمة بأثره أمة أخرى ، لم يبعث زعيماً وطنياً أو قائداً سياسياً يجر الناس إلى قرصه ويصفى الإبناء إلى شقه ويخرج الناس من حكم الفرس والرومان إلى حكم عدنان وقحطان . إنما أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، إنما أرسل ليخرج عباد الله جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

(١) البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ص ٤٣ ج ٣ .

فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ووطن دون وطن ولكن كان خطابه للنفس البشرية وللضمير الإنساني ، وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق من يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم ، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافي واستقلالها السيامي خير مركز لرسالته ، وكانت الأمة العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته .

قفل الطبيعة البشرية ومفتاحها .

ولم يكن صلى الله عليه وسلم من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها أو يتسللون إليها من نوافذها ، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعية والعيوب الخلقية بحسب ، فمنهم من يوفق لإزالة بعضها مؤقتاً في بعض نواحي البلاد ، ومنهم من يموت ولم ينجح في مهمته ^(١) .

أتى النبي صلى الله عليه وسلم بيت الدعوة والإصلاح من بابه ، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ، ذلك القفل المعقد الذي أعيا فتحه جميع المصلحين في عهد الفترة وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه . ودعا الناس إلى الإيمان بالله وحده ورفض الأوثان والعبادات والكفر بالطاغوت بكل معاني الكلمة وقام في القوم ينادي : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ! » ودعاهم إلى الإيمان برسالته ، والإيمان بالآخرة .

(١) إن غاندي الزعيم الهندي الكبير هدف من أول حياته السياسية والروحية إلى مبدئين عظيمين حصر فيهما زعامته السياسية وشخصيته الروحية القوية النادرين في هذا العصر جعلهما شعاراً لمبدئه : الأول « لا عنف ولا مقاومة » وقد دعا إلى هذا المبدأ كديانة وفلسفة ، وظل سنين طويلاً يدعو إليه بخطبه ومقالاته وصحفه ، واستنفد في ذلك جهوده . ولما لم يكن ذلك عن طريق التغيير النفسي وعن طريق الدعوة الدينية الأساسية لم تؤثر دعوته في نفسه أمته تأثيراً عميقاً ، وقد جاءت هذه الأمة دعوته هيأة منقورة في الاضطرابات الطائفية العظيمة التي وقعت في بنجاب الشرقية ودهلي عاصمة الهند في سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٤٧ م التي قتل فيها من المسلمين أكثر من نصف مليون ، وكانت مجزرة بشرية هائلة وقع فيها من القسوة والهمجية والاعتداء على الأطفال والنساء والأعراض ما لا يكاد يصدق المؤرخون المتأخرون ، حتى انتهت باغتصاب هذا الرجل العظيم الذي بلغت به أمته حد التقديس والتأليه .

والمبدأ الثاني نسخ الدس المنبوذ ، ولم ينجح في مهمته هذه كذلك نجاحاً يعتد به ، فكان ذلك برهانا ساطعاً على أن طريق الأنبياء هو الطريق الطبيعي الصحيح للإصلاح والتغيير .

الفصل الثاني

رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام

دفاع الجاهلية عن نفسها :

ما أخطأ المجتمع الجاهلي فهم هذه الدعوة ومراميها ، وما غمَّ على أهله أمرها ، وأدركوا عند ما قرع أسماعهم صوت النبي صلى الله عليه وسلم أن دعوته إلى الإيمان بالله وحده سهم مسدّد إلى كبّد الجاهلية ونعى لها ، فقامت قيامة الجاهلية ودافعت عن تراثها دفاعها الأخير ، وقاينت في سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت ، وأجلبت على الداعي صلى الله عليه وسلم بخيلها ورجلها ، وجاءت بحدها وحديدتها : « وانطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد » ووَجَدَ كل ركن من أركان هذه الحياة ومن أُناس في الجاهلية نفسه مهدداً وحياته منذرّة ، وهنا وقع ما تحدث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب ، وكان ذلك آية توفيق النبي صلى الله عليه وسلم لأنه أصاب الغرض وضرب على الوتر الحساس وأصاب الجاهلية في صميمها وفي مقتلها ، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم على دعوته ثبوتاً دون ثبوت الراسيات ، لا يثنيه أذى ولا يلويه كيد ، ولا يلتفت إلى إغراء ، ويقول لعمري : « ياعم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه ^(١) » .

في سبيل الدين الجدير :

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة حجة يدعو إلى الله وحده والإيمان برسالاته واليوم الآخر في كل صراحة ، لا يكنى ولا يلوح ولا يلين ، ولا يستكين ولا يحابي ولا يدهن ، ويرى في ذلك دواء لكل داء ، وقامت قريش وصاحوا به من كل جانب ورموه عن قوس واحدة ، وأضرموا البلاد عليه ناراً ليحولوا بينه وبين أبنائهم وإخوانهم ، فأصبح الإيمان به والإحياز إليه جد الجدد ، لا يتقدم إليه إلا جاد مخلص هانت عليه نفسه وعزم على أن يقتحم لأجله النيران ويمشي إليه ولو على حسك السعدان ، فتقدم فتية من قريش لا يستخفهم طيش الشباب ، ولا يستهويهم مطمع من مطامع الدنيا ، إنما همهم الآخرة وبغيتهم الجنة ، سمعوا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فضاقت عليهم الحياة الجاهلية بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وقلقت بهم مضاجعهم ، فكأنهم على الحسك ، ورأوا أنهم لا يسعهم إلا الإيمان بالله ورسوله فآمنوا وتقدموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو في بلدهم وبين سمعهم وبصرهم ، فكانت رحلة طويلة شاقة لما أقامت قريش بينه وبين قومه من عقبات ، ووضعوا أيديهم في يديه ، وأسلموا أنفسهم وأرواحهم إليه ، وهم من حياتهم على خطر ، ومن البلاء والحنة على يقين ، سمعوا القرآن يقول « أم حسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » وسمعوا قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب » فما كان من قريش إلا ما توقعوه . قد نثرت كنائنها ، وأطلقت عليهم كل سهم من سهامها ، فما زادهم كل هذا إلا ثقة وتجلداً ، وقالوا : « هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » ولم يزدهم هذا البلاء والاضطهاد في الدين إلا امتانة في عقيدتهم وحمية لدينهم ومقتاً للكفر وأهله وإشعالا لعاطفتهم

وتمحيصا لنفوسهم فأصبحوا كالتبر المسبوك والالجين الصافي. وخرجوا من كل محنة وبلاء خروج السيف بعد الجلاء.

التربية الربانية :

هذا والرسول صلى الله عليه وسلم يغذى أرواحهم بالقرآن ويربي نفوسهم بالإيمان ويخضعهم أمام رب العالمين خمس مرات في اليوم عن طهارة بدن وخشوع قلب وخضوع جسم وحضور عقل ، فيزدادون كل يوم سمو روح ونقاء قلب ونظافة خلق وتحرروا من سلطان الماديات ومقاومة للشهوات ونزوعا إلى رب الأرض والسموات ، وبأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجليل وقهر النفس ، لقد رَضَعُوا حُبَّ الْحَرْبِ وَكَانَهُمْ وَلَدُوا مَعَ السَّيْفِ ، وَهُمْ مِنْ أُمَّةٍ مِنْ أَيَّامِهَا حَرْبٌ بِسُوسٍ وَدَاحِسٍ وَالْقُبْرَاءُ وَمَا يَوْمَ الْفَجَارِ بِيَعِيدُ . ولكن الرسول يقهر طبيعتهم الحزبية ويكبح نخوتهم العربية ، ويقول لهم « كَفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » فاقهروا لأمره وكفوا أيديهم وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس في غير جبن وفي غير عجز ، ولم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم في مكة عن نفسه بالسيف مع كثرة الدواعي الطبيعية إلى ذلك وقوتها ، وذلك غاية ما روى في التاريخ من الطاعة والخضوع ، حتى إذا تعدت قريش في الطغيان وبلغ السيل الزبي أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة ، وهاجروا إلى يثرب وقد سبقهم إليها الإسلام .

في مربية الرسول صلى الله عليه وسلم :

والتقى أهل مكة بأهل يثرب ، لا يجمع بينهم إلا الدين الجديد ، فكان أروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ ، وكانت الأوس والخزرج لم ينفصوا عنهم غبار حرب بعاث ، ولا تزال سيوفهم تقطر دما ، فألف الإسلام بين قلوبهم ، ولو أنفق أحد مافي الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ثم آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وبين المهاجرين ، فكانت أخوة تزرى بأخوة الأشقاء وتبذل كل ما روى في التاريخ من خلة الأخلاء .

كانت هذه الجماعة الوليدة — المؤلفة من أهل مكة المهاجرين وأهل يثرب الأنصار — نواة الأمة الإسلامية الكبيرة التي أخرجت للناس ومادة للإسلام؛ فكان ظهور هذه الجماعة في هذه الساعة العصيبة وقاية للعالم من الانحلال الذي كان يهدده وعصمة للإنسانية من الفتن والأخطار التي أهدقت بها، لذلك قال الله تعالى لما حض على الأخوة والألفة بين المهاجرين والأنصار: «إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

انحلت العقدة الكبرى:

ولم يزل الرسول صلى الله عليه وسلم يربهم تربية دقيقة عميقة، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكرهم بحجراتهم، ولم يزل يجالس الرسول صلى الله عليه وسلم يزيدهم رسوخاً في الدين وعزوفاً عن الشهوات وتغانياً في سبيل المروءة وحنيناً إلى الجنة وحرصاً على العلم وفقهاً في الدين ومحاسبة للنفس، يطيعون الرسول في المنشط والمكره وينفرون في سبيل الله خفافاً وثقالاً قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعاً وعشرين مرة في عشر سنين، وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائة مرة، فهان عليهم التخلي عن الدنيا وهانت عليهم رزية أولادهم ونساءهم في نفوسهم، ونزلت الآيات بكثير مما لم يأنفوه ولم يتعودوه، وبكل ما يشق على النفس إتيانه في المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها، وانحلت العقدة الكبرى — عقدة الشرك والكفر — فانحلت العقدة كلها وجاهدوا الرسول جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهي، وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى — فكان النصر حليفه في كل معركة، وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة، لا يشاقبون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، ولا يجحدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى، جحدوا الرسول عما اختاروا أنفسهم، وعرضوا أجسادهم للمذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد — نزل تحريم الخمر والكثوب المتدفقة على رءسهم، فجاء

أمر الله بينها وبين الشفاء المتلذذة والأكباد المتقدمة وكسرت دنان النحر فسالت في
سكك المدينة .

حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم ،
وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة وفي اليوم
رجال الغد لا تجزأ عنهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى
ولا تلهيهم تجارة ولا تستخفهم قوة ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، وأصبحوا
للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين
والأقربين . وطأ لهم أكناف الأرض وأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم وداعية
إلى دين الله ، واستخلفهم الرسول صلى الله عليه وسلم في عمله ولحق بالرفيق الأعلى
قرار العين من أمته ورسالته .

أغرب انقلاب وقع في تاريخ البشر :

لقد كان هذا الانقلاب الذي أحدثه صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين
وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أغرب ما وقع في تاريخ البشر ، وقد كان هذا
الانقلاب غريباً في كل شيء . كان غريباً في سرعته وكان غريباً في عمقه وكان
غريباً في سمته وشموله ، وكان غريباً في وضوحه وقربه إلى الفهم ، فلم يكن غامضاً
ككثير من الحوادث الخارقة للعادة ، ولم يكن لغزاً من الألغاز . فلندرس هذا
الانقلاب عملياً ، ولنتعرف مدى تأثيره في المجتمع الإنساني والتاريخ البشري .

تأثير الإسلام الصحيح في الأفراد والمجتمعات :

كان الناس عربياً وحجماً يعيشون حياة جاهلية ، يسجدون فيها لسكل ما خلق
لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم ، لا يثيب الطائع بجائزة ولا يعذب العاصي بعقوبة
ولا يأمر ولا ينهى ، فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم ليس لها سلطان على
أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم . كانوا يؤمنون

بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ، فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر وتولوا إدارة المملكة وتدير شئونها وتوزع أرزاقها ، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة ، فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية ، وكان إيمانهم بالله وإحالتهم خلق السموات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له « من بنى هذا القصر العتيق ؟ » فيسمى ملكاً من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ؛ فكان دينهم عارياً عن الخشوع لله ودعائه ، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم ، فكانت معرفتهم مبهمه غامضة ، قاصرة مجملة ، لا تبعث في نفوسهم هيبة ولا محبة .

وهذه الفلسفة اليونانية قد عرفت بواجب الوجود في سلوب ليست فيها صفة مثبتة من صفات القدرة والربوبية والإعطاء والمنع والرحمة ، ولم تثبت له إلا الخلق الأول ، ونفت عنه الاختيار والعلم والإرادة ، ونفت الصفات وقررت كليات كلها حط من قدر الخالق وقياس على الخلق ، والسلوب إذا اجتمعت لم تعد فائدة إيجاب واحد ، ولم نعلم مدينة واحدة ولا مجتمعاً ولا نظاماً ولا عملاً ولا بناية قامت على مجرد سلوب ، فتجردت الديانة في أوساط الفلسفة الإغريقية عن روح الخشوع والاستكانة لله والاتجاه إليه في الحوادث ومحبة بكل القلب ، وهكذا فقدت الديانة السائدة على العالم روحها وأصبحت طقوساً وتقاليد وأشباحاً للآيمان .

انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العلية الغامضة الميتة إلى معرفة حقيقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير في الأخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها ، آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى ، آمنوا رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور ، العزيز الحكيم الغفور الودود الرؤوف الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده ملكوت كل شيء ، يجير ولا يجار عليه ، إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه .

يثيب بالجنة ويعذب بالنار ، ويسقط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء في السموات والأرض ويعلم خائفة الأعين وما تخفى الصدور ، إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته ونصرته وعلمه ، فانقلبت نفسياتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلاباً عجبياً ، فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن ، تفاعل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ، وجري منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جرائم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلاً غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق .

وفرض الضمير :

وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملئ على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وأزاع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ، حتى إذا جمعت السورة البهيمة في حين من الأحيان وسقط الإنسان سقطة ، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون تحول هذا الإيمان نفساً لواءة عنيفة ووخزاً لاذعاً للضمير وخيالاً مروعاً ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ويتحملها مطمئناً مرتاحاً تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة .

وقد حدثنا المؤرخون الثقات في ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها إلا في التاريخ الإسلامي الديني . فمنها ما روى مسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمي ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله إني ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني » فردّه ، فلما كان من الغد أتاه فقال : « يا رسول الله إني قد زنيت » فردّه الثانية ،

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه فقال : أتعملون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً ؟ فقالوا : ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرُجم .

قال فجاءت الغامدية فقالت : « يا رسول الله إني قد زينت فطهرني » وأنه ردها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردني ؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً ، فوالله إني لحبلى . قال : إما لا فاذهي حتى تلدى . قال فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة قالت : هذا قد ولدته . قال : فاذهي فرضعيه حتى تطعميه . فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام . فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر حفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجوها ، فاستقبها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فصبها ، فسمع نبي الله سبه إياها فقال : « مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تاهها صاحب مكس لغفر له » . ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت ^(١) .

الثبات أمام المطامع والشهوات :

وكان هذا الإيمان حارساً لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه النزع أمام المطامع والشهوات الجارفة وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراها أحد ، وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً ، وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامي من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات إلى أهلها والإخلاص لله ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره ؛ وما ذاك إلا نتيجة ركوب الإيمان ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان .

حدث الطبري قال : لما هبط المسلمون المدائن واجمعوا الأقباض أقبل رجل يحمي معه فدفعه إلى صاحب الأقباض ، فقال والذين معه ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله

ما عندنا ولا يقاربه . فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به . فعرّفوا أن للرجل شأنًا ، فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني ، ولكنني أحمد الله وأرضى بثوابه . فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس^(١) .

الأنفة وكبر النفس :

وكان هذا الإيمان بالله رفع رأسهم عاليًا وأقام صفحة عنقهم فإن تحن لغير الله أبداً ، لا ملك جبار ولا لحبر من الأحرار ولا لرئيس ديني ولا دنيوي ، وملاً قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله تعالى وعظمته ، فهانت فيها وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة والفخفة ؛ فإذا نظروا إلى الملوك وحشمتهم وما هم فيه من ترف ونعيم وزينة وزخرف فكأنهم ينظرون إلى صور ودمى قد كسيت ملابس الإنسان .

عن أبي موسى قال : انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقيس بن جلاس سماطين ، وقد قال له عمرو وعمارة إنهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بدرنا من عناء من القيسيين والرهبان : اسجدوا للملك . فقال جعفر : لا نسجد إلا لله^(٢) .

الاستهانة بالرفارف والمظاهر الجوفاء :

أرسل سعد قبل القادسية ربي بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالتمارق والزرابي الحرير وأظهر اليواقيت والآلئ الثمينة العظيمة وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكعاً حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل ور بطها ببعض تلك الوسائد وأقبل وعليه

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٦ .

(٢) البداية ج ٣ .

سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له ضع : سلاحك ، فقال إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتكموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت ، فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمح فوق التمارق فخرق عامتها . فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

السجاعة النادرة والاستهانة بالحياة :

ولقد بعث الإيمان بالآخرة في قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة وحنيناً غريباً إلى الجنة واستهانة نادرة بالحياة ، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأى عين فطاروا إليها طيران حمام الزاجل لا يلوى على شيء .

تقدم أنس بن النضر يوم أُحُد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب السكبة ، إني أجد ريحها من دون أحد ، قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته بيناته^(١) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض . قال : نعم ، قال : بخ بخ ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال : فإنك من أهلها . فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لنن أنا حيت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل^(٢) .

عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال : سمعت أبي رضي الله عنه وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبواب الجنة تحت ظللال السيوف ،

فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا ؟ قال : نعم . فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب حتى قتل ^(١) .

وكان عمرو بن الجحوح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا ، فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجحوح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن بنى هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك ووالله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل يوم أحد شهيداً ^(٢) .

قال شداد بن الهاد : جاء رجل من الأعراب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر غم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فقسمه ، وقسم للأعرابي فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهريهم ، فلما جاء دفعوه إليه فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسم قسمه لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذه فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : قسم قسمته لك ، قال : ما على هذا أتبعتك ، ولكن أتبعتك على أن أرمى ها هنا — وأشار إلى خلقه بينهم — فأموت فأدخل الجنة ، فقال : إن تصدق الله لي صدقتك ، ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقتول فقال : أهو هو ؟ قالوا : نعم ، قال : صدق الله فصدقه ^(٣) .

(١) رواه مسلم . (٢) زاد المعاد ج ٣ ص ١٣٥ .

(٣) زاد المعاد ج ٣ ص ١٩٠ .

من الأنانية إلى العبودية :

وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع ، لا يخضعون لسلطان ولا يقرون بنظام ولا ينخرطون في سلك ، يسرون على الأهواء ويركبون العمياء ويخطون خبط عشواء ، فأصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك والسلطان والأمر والنهي ولأنفسهم بالرعية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا من أنفسهم المقادة واستسلموا للحكم الإلهي استسلاماً كاملاً ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وأنايتهم وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالا ولا نفساً ولا تصرفاً في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله ولا يرضون ولا يسخطون ولا يعطون ولا يمتنعون ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره . ولما كان القوم يحسنون اللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها الرسول صلى الله عليه وسلم وعرفوا الجاهلية ونشأوا عليها ، عرفوا معنى الإسلام معرفة صحيحة وعرفوا أنه خروج من حياة إلى حياة ، ومن مملكة إلى مملكة ، ومن حكم إلى حكم ، أو من فوضوية إلى سلطة ، أو من حرب إلى استسلام وخضوع ، ومن الأنانية إلى العبودية ، وإذا دخلوا في الإسلام فلا انتيات في الرأي ولا نزاع مع القانون الإلهي ولا خيرة بعد الأمر ولا مشقة للرسول ولا تحاكم إلى غير الله ولا إصدار عن الرأي ، ولا تمسك بتقاليد وعادات ولا ائثار بالنفس ، فكانوا إذا أسلموا انتقلوا من الحياة الجاهلية بخصائصها وعاداتها وتقاليدها إلى الإسلام بخصائصه وعاداته وأوضاعه ، وكان هذا الانقلاب العظيم يحدث على أثر قبول الإسلام من غير تأن .

هم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يارسول الله ! قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لاشيء ، كنت أذكر الله . (٦ م — ماذا خسر العالم)

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : استغفر الله ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله مارفع يده عن صدرى حتى ماخلق الله شيئاً أحب إلىَّ منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ، فقلت : يا أبى الله عليك والإسلام^(١) .

المحكمات والبيّنات فى الآلهيات :

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره ، وما يهجم عليه الإنسان بعد موته ، وأتاهم علم ذلك كله بواسطة عقولهم بدون تعب ، وكفهم مؤونة البحث والفحص فى علوم ليس عندهم مبادئها ولا مقدماتها التى يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول ، لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، لا تعمل فيها حواسهم ، ولا يؤدى إليها نظرهم ، وليست عندهم معلوماتها الأولية .

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعا ، وبدأوا البحث أنفاً وبدأوا رحلتهم فى مناطق مجهولة لا يجدون فيها مرشداً ولا خريّفاً ، وكانوا فى ذلك أكثر ضلالاً ؛ وأشدّ تعباً وأعظم اشتغالا بالفضول من رائد لم يقتنع بما أدّى إليه العلم الإنسانى فى الجغرافية ، وما حُدّد وضبط فى الخرائط على تعاقب الأجيال ، فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال ، وعمق البحار من جديد ، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه على قصر عمره ، وضعف قوته ، وفقدان آله ، فلم يلبث أن انقطعت به مطيته وخاتته عزيمته ، فرجع بمذكرات وإشارات مختلة ، وكذلك الذين خاضوا فى الإلهيات من غير بصيرة ، وعلى غير هدى ، جاءوا فى هذا العلم بآراء فجّة ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر ساذجة ، ونظريات مستعجلة ، فضلّوا وأضلوا .

وكذلك منحههم الأنبياء عليهم السلام مبادئ ثابتة ومحكمات هى أساس للمدينة

الفاضلة ، والحياة السعيدة في كل زمان ومكان ، فحرموها على تعاقب الأعصار ،
خبثوا مدنيّتهم على شفا جرف هار ، وأساس منهار ، وعلى قياس واختبار ، فزاع أساس
المدنية وتداعى بناؤها ، وخر عليهم السقف من فوقهم .

وكان الصحابة رضي الله عنهم سعداء موفقين جداً ، إذ عولوا في ذلك كله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكفوا المثونة وسعدوا بالثمرة ، ووفروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم في غير جهاد ، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيما يعينهم من الدين والدنيا وتمسكوا بالعروة الوثقى ، وأخذوا في الدين بلُبِّ الباب .

الفضل الثالث

المجتمع الإسلامي

طاقة زهر :

إن هذا الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر والإسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة ورد كل فرد في المجتمع البشري إلى موضعه ، لا يقصر عنه ولا يتعداه ، وأصبحت الهيئة البشرية طاقة زهر لا شوك فيها ؛ أصبح الناس أسرة واحدة أبوه آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان »^(١) ، ويسمعه الناس يقول : « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بأبائها ، فالناس رجالان : رجل برّ تقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى »^(٢) ، ويقول : « إن أنسابكم هذه ليست لمنسبة على أحد ، كلكم بنو آدم ، طَفَّ الصاع لم يمنعوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى »^(٣) ، وعن أبي ذر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « انظر فإنك لست بخير من أحد ولا أسود ، إلا أن تفضله بتقوى الله » ، ويسمعه الناس يقول فيما يناجي به ربه في آخر الليل : « وأنا شهيد أن العباد كلهم إخوة »^(٤) .

(١) تفسير ابن كثير ، سورة الحجرات .

(٢) رواه ابن أبي حاتم .

(٣) رواه الإمام أحمد .

(٤) رواه أبو داود .

ليس منا من دعا إلى عصبية :

واقتمع صلى الله عليه وسلم جذور الجاهلية وجراثيمها ، وحسم مادتها ، وسد كل نافذة من نوافذها ، فقال : « ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية »^(١) ، وعن جابر بن عبد الله قال : كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : يا للأنصار . فقال المهاجري : يا للمهاجرين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها منتنة^(٢) . وحرم حمية الجاهلية ، وقيد ذلك التناصر الذي جرت الجاهلية العربية على إطلاقه ، فكان من الأمثال السائرة وشرائع الجاهلية الثابتة : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من نصر قومه على غير الحق ، فهو كالبعير الذي ردى فهو ينزع بذنبه »^(٣) ، وتغيرت بذلك نفسية العربي وعقليته حتى أصبح ذوق المسلم العربي لا يسيع ذلك المثل العربي السائر ، فلما قال النبي صلى الله عليه وسلم مرة : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » لم يملك نفسه ، فقال : « يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ » ، قال صلى الله عليه وسلم : تمنعه من الظلم فذاك نصرته إياه^(٤) .

كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته :

وأصبحت الطبقات والأجناس في المجتمع الإسلامي متعاونة متعاضة لا يبغي بعضها على بعض ، فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، لهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وأصبح كل واحد في المجتمع راعياً ومسئولاً عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه البخاري .

(٣) تفسير ابن كثير .

(٤) حديث متفق عليه .

راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتهما ، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئول عن رعيته ^(١) ، وهكذا كان المجتمع الإسلامي مجتمعاً رشيداً عاقلاً مسئولاً عن أعماله .

ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق :

وأصبح المسلمون أعواناً على الحق ، أمرهم شورى بينهم ، يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم ، فإن عصى فلا طاعة له عليهم ، وأصبح شعار الحكم « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ^(٢) . وأصبحت الأموال والخزائن التي كانت طعمة للملوك والأمراء ودولة بين الأغنياء مال الله الذي لا ينفق إلا في وجهه ولا يخرج إلا في حقه . وأصبح المسلمون مستخلفين فيه ، والخليفة كولي اليتيم إن استغنى استعفى وإن افتقر أكل بالمعروف ، وأصبحت الأرض التي اغتصبها الملوك والأمراء يفسحونها لمن يشاءون ويضيقونها على من يشاءون ؛ ويقطعها بعضهم بعضاً كما يقطع الثوب ، أصبحت أرض الله التي من ظلم قيد شبر منها طوقه من سبع أرضين .

هلول الرسول محل الروح والنفس من المجتمع :

وكان المجتمع البشري قد فقد نشاطه وأريحيته في الحياة وفي كل ما يأتي ويذر ، وكان مجتمعاً مرهقاً مخنوقاً ، فكان مدفوعاً إلى ساحة الحرب من غير أن ينشط أو يتحمس لأغراض أولى الأمر ، وكان مدفوعاً إلى الصلح ولم يقض من الحرب وطراً ولم يشف نفسه ، وكان الرجال في هذا المجتمع يرغمون على التضحية والإيثار ومكابدة المتاعب ومعاناة الأمور الشاقة من غير هوى ومن غير وجدان ومن غير عاطفة ، لا يحبون القادة ولا يحبهم القادة فكانوا مرغبين على أن يطيعوا من لا يحبونه ويفدوا بأرواحهم وأموالهم من يبغضونه ، فانتفضت جرة القلوب وبردت العواطف ونشأ الناس على النفاق والرياء والختل ، ونشأت النفوس على الذل وتحمل الضيم والصغار .

(٢) متفق عليه .

(١) حديث متفق عليه .

كانت العاطفة القوية — التي يرجع إليها الفضل في غالب عجائب الإنسانية ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، تلك التي يسميها الناس « الحب » — تأتية ضائعة لم يظهر منذ قرون من يشغلها ويستثمرها ، فضاعت في ألوان الجمال الزاهية والمظاهر الخلابية الفانية مما تغنى به الشعراء قديماً وحديثاً .

في هذا المجتمع الخائر المظلوم قام محمد صلى الله عليه وسلم لخل عقاله وفك إيساره ثم حل منه محل الروح والنفس وشغل منه مكان القلب والعين ، وهو البشر الذي جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال وأبلغ معاني الحسن والإحسان ، من رآه بديهته هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ، فاندفع إليه الحب الصادق كما يندفع الماء إلى الخدور ، وانجذبت إليه النفوس والقلوب انجذاب الحديد إلى المغناطيس ، كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد ، وأحبه رجال أمته وأطاعوه حباً وطاعة لم يسمع بمثلهما في تاريخ العشاق والمتيمين ، ووقع من خوارق الحب والاضمحلال والتفاني في سبيل طاعته وإيثاره على النفس والأهل والمال والولد ما لم يحدث قبله ولن يحدث بعده .

نوارر الحب والتفاني :

وُطئ أبو بكر بن أبي قحافة في مكة يوماً بعد ما أسلم وُضرب ضرباً شديداً ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفها لوجهه ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فسوا منه بالسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله مالي علم بصاحبك . فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله . قالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحيين

أن أذهب معك إلى ابنتك ذهبت ، قالت : نعم . فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فدننت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم . قال : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : هذه أمك تسمع ! قال : فلا شيء عليك منها . قالت : سالم صالح ! قال : أين هو ؟ قالت : في دار ابن الأرقم ، قال : فإن الله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأمهلنا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجنا به يتكى . عليهما حتى أدخلتناه على رسول الله صلى الله عليه وسلم » ^(١) .

وخرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيراً هو بحمد الله كما تحبين ! قالت : أرنيه حتى أنظر إليه . فلما رآته قالت : كل مصيبة بعدك جليل ^(٢) .

رفعوا خييارضى الله عنه على الخشبة ونادوه يناشدونه : أنحب أن محمداً مكانك ؟ قال : لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه . فضحكوا منه ^(٣) وقال زيد بن ثابت : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أطلب سعد ابن الربيع فقال لي : إن رأيته فأقرئه مني السلام وقل له يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تجددك ؟ قال فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بأخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة سيف ورمية بسهم ، فقلت : يا سعد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرني كيف تجددك ، فقال : على رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام ، قل له يا رسول الله أجد ريح الجنة وقل

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ .

(٢) رواه ابن إسحاق لإمام المغازي ورواه البيهقي مرسل .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٦٣ .

لقومى الأنصار لا عذر لكم عند الله إن خالص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته ^(١) .

وترأس أبو دجاجة يوم أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك ^(٢) . ومص مالك الحدرى جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنقاه قال له : بحه . قال : والله ما أحبه أبداً ^(٣) .

وقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه ، فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني . قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجلٌ مشرك نجس ^(٤) .

قال عروة بن مسعود الثقفي لأصحابه بعد ما رجع من الحديبية : أى قوم والله لقد وفدت على الملوك ، على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنعم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحيدون إليه النظر تعظيماً له ^(٥) .

عجائب الانقياد والطاعة :

ولم يزل الانقياد والطاعة من جنود « الحب » المتطوعة ، فلما أحبه القوم بكل قلوبهم أطاعوه بكل قوتهم ، يمثل ذلك خير تمثيل ما قال سعد بن معاذ عن نفسه وعن الأنصار قبل بدر : « إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاطعن حيث شئت وصل جبل من شئت واقطع جبل من شئت وخذ من أموالنا ما شئت واعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه من أمر فأمرنا

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ١٣٤ . (٢) أيضاً ص ١٣٠ .

(٣) أيضاً ص ١٣٦ .

(٤) سيرة ابن هشام ، ذكر الأسباب الموجبة للسير إلى مكة .

(٥) زاد المعاد ج ٣ ص ١٢٥ .

تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك ^(١) »

وكان من شدة طاعتهم له صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فما كان من الناس إلا أن أطاعوه وأصبحت المدينة لهؤلاء كأنها مدينة الأموات ليس بها داع ولا مجيب . يقول كعب : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لى نفس الأرض فما هى الأرض التى أعرف ، إلى أن قال : حتى إذا طال على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ما ردّ على السلام فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيني وتوليت حتى تسورت الجدار ^(٢) .

وكان من طاعته أيضاً وهو فى موضع عتاب وجفوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتبه ويقول له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعزل امرأتك فقال : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا بل اعزلها فلا تقرّ بها . فقال لامراته : الحق بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله من هذا الأمر ^(٣) .

وكان من حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وإيثاره على كل أحد فى الدنيا أن ملك غسان يخطب وده ويستلحقه بنفسه وتلك محنة عظيمة فى حال الجفوة والعتاب ، ولكنه يرفض ذلك قال : « بينما أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام بمن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلىنى على كعب بن مالك فطلق الناس يشيرون له إلى حتى جاءنى فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت

(١) أيضاً من ١٣٠ .

(٢، ٣) متفق عليه .

كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء . فقيممت بها التنوير فسجرتها ^(١) .

ومن غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ما حدث عند نزول النهى عن الخمر في مجلس شرب ، فعن أبي بريدة عن أبيه قال : بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة إذ قمت حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر : يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان — إلى قوله : فهل أنتم منتهون . فجلست إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله : فهل أنتم منتهون . قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقى بعض في الإبقاء ، فقال بالإبقاء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا . انتهينا ربنا ^(٢) .

ومن غرائب الطاعة للرسول وإثاره على النفس والأهل والعشيرة ما روى عن عبد الله بن عبد الله بن أبي ، روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عبد الله بن أبي قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول بأبي أنت وأمي ؟ قال : يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فقال فقد صدق والله يا رسول الله أنت والله الأعز وهو الأذل ، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ! فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال : أنت القاتل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة

(١) متفق عليه .

(٢) رواه ابن جرير بسنده في التفسير عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) الآية تفسير الطبري ج ٧ .

ذلك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبداً إلا بإذن
من الله ورسوله . فقال : يا للخزرج ، ابني يمنعني بيتي ، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي .
فقال : والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه . فاجتمع إليه رجال فكلّموه فقال : والله لا يدخله
إلا بإذن من الله ورسوله . فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال : اذهبوا إليه
فقولوا له خله ومسكنه . فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم فنعم^(١) .

الفصل الرابع

كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية

بهذا الإيمان الواسع العميق والتعليم النبوي المتقن وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا تحاق حداثته بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإنسانية المحتضرة حياة جديدة . عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكاداس من المواد الخام لا يعرف أحد غنائها ، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاق إلى الأرض فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها ، ثم وضع كل واحد في محله فكأنما خلق له ، وكأنما كان المسكان شاغرا لم يزل ينتظره . ويتطلع إليه ، وكأنما كان جماداً فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً ، وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يملئ على العالم إرادته ، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » .

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ ، فأصبح عمر الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره ، وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة ، ولا يقبوا منها المسكنة العليا ، ولا يحسب له أقرانه حساباً كبيراً ، إذا به يفجأ العالم بعبقريته وعصاميته ، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما ويؤسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتهما وتفوقهما في الإدارة وحسن النظام فضلاً عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر . وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشبان انحصرت

كفاءته الحربية في نطاق محلى ضيق يستعين به رؤساء قريش في المعارك القبلية فينال ثقتهم وثناؤهم ، ولم يحرز الشهرة الفاتكة في نواحي الجزيرة إذا به يلمع سيفاً إلهياً لا يقوم له شيء إلا حصده ، وينزل كصاعقة على الروم ويترك ذكراً خالداً في التاريخ . وهذا أبو عبيدة كان موصوفاً بالصلاح والأمانة والرفق ويقود سرايا المسلمين إذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء . وبلقى عليها نظرة الوداع ويقول : سلام على سورية سلاماً لا لقاء بعده . وهذا عمرو بن العاص كان يُعد من عقلاء قريش وترسله في سفارتها إلى الحبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائباً إذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة . وهذا سعد بن أبي وقاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام كقائد جيش ورئيس كتيبة إذا به يتقلد مفاتيح المدائن وينيط باسمه فتح العراق وإيران . وهذا سلمان الفارسي كان ابن موبدان في إحدى قرى فارس لم يزل ينتقل من رق إلى رق ومن قسوة إلى قسوة إذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الإمبراطورية الفارسية التي كان بالأمس أحد رعاياها ، وأعجب من ذلك أن هذه الوظيفة لا تغير من زهادته وتقشفه فيراه الناس يسكن في كوخ ويحمل على رأسه الأثقال . وهذا بلال الحبشي يبلغ من فضله وصلاحه مبلغاً يلقيه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد . وهذا سالم مولى أبي حذيفة يرى فيه عمر موضعاً للخلافة يقول : لو كان حياً لاستخلفته . وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤتة وفيه مثل جعفر بن أبي طالب وخالد بن الوليد ، ويقود ابنه أسامة جيشاً فيه مثل أبي بكر وعمر . وهذا أبو ذر والمقداد وأبو الدرداء وعمار بن ياسر ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب تهب عليهم نفحة من نفحات الإسلام فيصبحون من الزهاد المعدودين والعلماء الراسخين . وهذا علي بن أبي طالب وعائشة وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس قد أصبحوا في أحضان النبي الأُمى صلى الله عليه وسلم من علماء العالم يتفجر العلم من جوانبهم وتنطق الحكمة على لسانهم ، أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً ، يتكلمون فينصت الزمان ويخطبون فيسجل قلم التاريخ .

كتلة بشرية منقرضة :

نم لا يلبث العالم المتمدن أن يرى من هذه المواد الخلام المبعثرة التي استهانت بقيمتها الأمم المعاصرة وسخرت منها البلاد المجاورة ، لا يلبث أن يرى منها كتلة لم يشاهد التاريخ البشري أحسن منها اتزاناً ، كأنها حلقة مفرغة لا يعرف طرفها أو كالمطر لا يُدرى أوله خير أم آخره ، كتلة فيها الكفاية التامة في كل ناحية من نواحي الإنسانية ، كتلة هي في غنى عن العالم ، وليس العالم في غنى عنها ، وضعت مدنيّتها وأست حكومتها وليس لها عهد بها ، فلم تضطر إلى أن تستعير رجالاً من أمة أو تستعين في إدارتها بحكومة ، أست حكومة تمد رواقها على رقعة متسعة من قارّتين عظيمتين ، وملاّت كل ثغر وسدّت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة والقوة والأمانة ، تأسست هذه الحكومة المنشعبة الأطراف فأبجدتها هذه الأمة الوليدة التي لم يمحض عاينها إلا بعض العقود — كله جهاد ودفاع ومقاومة وكفاح — رجل من الرجال الأكفاء ، فكان منها الأمير العادل والخازن الأمين والقاضي المقسط ، والقائد العابد والوالي المتورع والجندي المتقى ، وكانت بفضل التربية الدينية التي لا تزال مستمرة وبفضل الدعوة الإسلامية التي لا تزال سائرة ، مادة لا تنقطع ومعيناً لا ينضب ، لا تزال تسند الحكومة رجال يرجّحون جانب الهداية على الجباية ، ولا يزالون يجمعون بين الصلاح والكفاية ، وهنا ظهرت المدنية الإسلامية بمظهرها الصحيح ، وتجلّت الحياة الدينية بخصائصها التي لم تتوفر لعهد من عهود التاريخ البشري .

لقد وضع محمد صلى الله عليه وسلم مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب ، أصاب الجاهلية في مقتلها وصميمها ، فأصمى رميته ، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحون نحواً جديداً ويفتتح عهداً سعيداً ، ذلك هو العهد الإسلامي الذي لا يزال غرة في جبين التاريخ .

الباب الثالث

العصر الإسلامي

الفصل الأول

عهد القيادة الإسلامية

الأئمة المسلمون وفصائلهم :

ظهر المسلمون وتزعموا العالم وعزلوا الأمم المريضة من زعامة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها ، وساروا بالإنسانية سيراً حثيثاً متزناً عادلاً ، وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم ، وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحمت قيادتهم .

أولاً : أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية ، فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم ، لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم ، ولا يخبطون في سلوكهم وسياساتهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، قد جعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس ، وجعل لهم شريعة يحكمون بها بين الناس (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) وقد قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

ثانياً : أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس ، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر ، بل مكثوا زمناً طويلاً تحت تربية محمد صلى الله عليه وسلم وإشرافه الدقيق يزكيهم ويؤدبهم ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار على النفس وخشية الله وعدم الاستشراف

للامارة والحرص عليها . يقول : « إنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سألناه ، أو أحداً حرص عليه ^(١) » ولا يزال يقرع سمعهم « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » فكانوا لا يتهافون على الوظائف والمناصب تهافت الفراش على الضوء ، بل كانوا يتدافعون في قبولها ويتحرجون من تقلدها ، فضلاً عن أن يرشحوا أنفسهم للامارة ويركوا أنفسهم وينشروا دعاية لها وينفقوا الأموال سعيًا وراءها ؛ فإذا تولوا شيئاً من أمور الناس لم يمدوه مغنياً أو طعمة أو ثمناً لما أنفقوا من مال أو جهد ، بل عدوه أمانة في عقهم وامتحاناً من الله ، ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ومستولون عن الدقيق والجليل ، وتذكروا دائماً قول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » وقوله : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيهَا إِنَّا كُنَّا » .

ثالثاً : أنهم لم يكونوا خدمة جنس ، ورسل شعب أو وطن ، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان ، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاماً ، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم . إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده ، كما قال ربى ابن عاصر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد : « الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ^(٢) » . فالأثم عندهم سواء ، والناس عندهم سواء ، الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى

(١) حديث متفق عليه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » ^(١)

وقد قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص عامل مصر — وقد ضرب ابنه مصرياً، وانفخر بآبائه قائلاً خذها من ابن لأكرمين، فانتص منه عمر — متى استعبدتم الناس وقد ولدتهُم أمهاتهم أحراراً ^(٢). فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً، بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد، وغواذى مزنة أثنى عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها ^(٣).

في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب — حتى المضطهدة منها في القديم — أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة. وأن تساهم العرب في بناء العالم الجديد، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين، حتى قال ابن خلدون: « من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية ^(٤) » إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبه، فهو عجمي في لغته، ومرباه ومشيعته، مع أن الملة عربية، وصاحب شريعتهما عربي ^(٥) » ونبيغ من هذه الأمم في عصور

(١) من خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.

(٢) الفصة بتامها في تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي.

(٣) عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فطربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونعمه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به. رواه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب العلم.

(٤) يعني سواء في ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية.

(٥) المقدمة ص ٤٩٩.

الإسلام قادة وملوك ووزراء وفضلاء هم نجوم الأرض ونجباء الإنسانية ، وحسنات العالم ، فضيلة ومروءة وعبقريّة ودينًا وعملاً ، لا يحصيهم إلا الله .

رابعاً : أن الإنسان جسم وروح ، وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح ، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقيّاً متزناً عادلاً حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نمواً متناسباً لانتفاعها ، ويتغذى غذاءً صالحاً ، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقى عقلى جسدى يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنسانى ، وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا كانت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة ، ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية وأصحاب عقول سليمة راجحة ، وعلوم صحيحة نافعة ؛ فإذا كان فيهم نقص في عقيدتهم ، أو في تربيتهم عاد ذلك النقص في مدنيّتهم وتضخم وظهر في مظاهر كثيرة ، وفي أشكال متنوعة ؛ فإذا تغلبت جماعة لا تعبد إلا المادة وما إليها من لذة ومنفعة محسوسة ، ولا تؤمن إلا بهذه الحياة ، ولا تؤمن بما وراء الحس أثرت طبيعتها ومبادئها وميولها في وضع المدنية وشكلها ، وطبعها بطابعها ، وصاغت في قالبها ، فكمّلت نواح للإنسانية واختلت نواح أخرى أهم منها . عاشت هذه المدينة وازدهرت في الجصّ والآجر ، وفي الورق والقماش ، وفي الحديد والرصاص ، وأخصبت في ميادين الحروب وساحات القتال ، وأوساط المحاكم ومجالس اللهو ومجامع الفجور ، ومانت وأجدبت في القلوب والأرواح وفي دوائر الفضيلة والأخلاق وفي منازل الناس وبيوتهم وفي الأنساب والأرحام ، وفي علاقة المرأة بزوجها ، والولد بوالده والوالد بولده ، والأخ بأخيه والرجل بصديقه ، وأصبحت المدنية كجسم ضخم متورم يملأ العين مهابة وروء ويشكو في قلبه آلاماً وأوجاعاً ، وفي صحته انحرافاً واضطراباً .

وإذا تغلبت جماعة تجحد المادة أو تهمل ناحيتها ولا تهتم إلا بالروح وما وراء الحس والطبيعة ، وتعادى هذه الحياة وتعاندها ، ذبلت زهرة المدنية وهزلت القوى

الإنسانية وبدأ الناس — بتأثير هذه القيادة — يؤثرون الفرار إلى الصحارى والخلوات على المدن ، والعزوبة على الحياة الزوجية ، ويعذبون الأجسام حتى يضعف سلطانها فتتطهر الروح ، ويؤثرون الموت على الحياة ، لينقلوا من مملكة المادة إلى إقليم الروح ويستوفوا كلهم هنالك ؛ لأن السكّل في عقيدتهم لا يحصل في العالم المادى ؛ ونتيجة ذلك أن تحتضر الحضارة وتخرب المدن ويختل نظام الحياة . ولما كان هذا مضاداً للفطرة لا تلبث أن تثور عليه وتنقم منه بمادية حيوانية ليس فيها تسامح لروحانية وأخلاق ، وهكذا تنعكس الإنسانية وتخلّفها البهيمية والسبعيّة الإنسانية الممسوخة ، أو تهجم على هذه الجماعة الراهبة جماعة مادية قوية فتعجز عن المقاومة لضعفها الطبيعى ، وتستسلم وتخضع لها ، أو تسبق هى — بما يعترىها من الصعوبات فى معالجة أمور الدنيا — فتمد يد الاستعانة إلى المادية ورجالها وتسند إليهم أمور السياسة وتكتفى هى بالعبادات والتقاليد الدينية ، ويحدث فصل بين الدين والسياسة فتضمحل الروحانية والأخلاق وينقلص ظلها وتفقد سلطانها على المجتمع البشرى والحياة العملية حتى تصير شبحاً وخيالاً أو نظرية علمية لا تأثير لها فى الحياة ، وتؤول الحياة مادية محضة ولما خلت جماعة من الجماعات التى تولت قيادة بنى جنسها من هذا النقص ؛ لذلك لم تزل المدينة متأرجحة بين مادية بهيمية وروحانية ورهبانية ولم تزل فى اضطراب . يمتاز أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم كانوا جامعين بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة ، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة فى قادة العالم ، وكان يمكن لهم — بفضل تربيتهم الخلقية والروحية السامية واعتدالهم الغريب الذى قلما اتفق للإنسان ، وجمعهم بين مصالح الروح والبدن واستعدادهم للمادى الكامل وعقلهم الواسع — أن يسيروا بالأُمّ الإنسانية إلى غايتها المثلى الروحية والخلقية والمادية .

دور الحضارة الرائدة مثل المدنية الصالحة :

وكذلك كان ، فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر فى

جميع هذه النواحي من هذا الدور ، دور الخلافة الراشدة فقد تعاونت فيه قو
الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل وفي
ظهور المدنية الصالحة . كانت حكومة من أكبر حكومات العالم ، وقوة سياسية
مادية تفوق كل قوة في عصرها ، تسود فيها المثل الخلقية العاليا وتحكم معايير الأخلاق
الماضلة في حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة
والصناعة ، ويسير الرقي الخلق والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة فنقل
الجنائات وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها
وأسيابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد ، وهو دور
كألى لم يحلم الإنسان بأرقى منه ولم يفترض المفترضون أرقى منه ، ولم يكن إلا بسيرة
الرجال الذين يتولون الحكم ويشرفون على المدنية ، وبعيدياتهم وتربيتهم وخطتهم
في الحكم وسياساتهم ، فكانوا أصحاب دين وأخلاق عالية أينما كانوا ، كانوا أعف
أمناء خاشعين ، قراضعين ، حكاماً كانوا أو رعايا أو شرطة أو جنوداً . يصف شيخ
من عظماء الروم جنود المسلمين فيقول : إنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون
بالعهد ويأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم^(١) . وقال الآخر :
« هم فرسان بالنهار رهبان بالليل ، لا يأكلون في ذمتهم إلا بئس ، ولا يدخلون
إلا بسلام ، يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه^(٢) » . ويقول الثالث :
« أما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان ، يرشون النبل ويبرونها ويتقفون القنا ،
لو حدثت جليتك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر^(٣) » ،
ويغنم الجند في المدائن تاج كسرى وبساطه وهو يساوى مئات الألوف من الدنانير
فلا تعبت به يد ولا تشج عليه نفس ، ثم يسلمونه إلى الأمير ويرسله الأمير إلى خليفة
المسلمين فيتمتع به ويقول : إن الذين أدوا هذا الأمانة^(٤) .

(١) رواه أحمد بن مروان المالكي في المجالسة .

(٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٣ .

(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦ .

(٤) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي .

تأثير الأمانة الإسلامية في الحياة العامة :

إن هذا الرعيل من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم كان خليقاً بأن يسعد النوع الإنساني في ظله وتحت حكمه ، وأن يسير بقيادته سديد الخطى رشيد الغاية مستقيم السير ، وأن يعمر ويطبئن العالم في دوره وتُخَصَّب الأرض وتأخذ زخرفها ، فإنهم كانوا خير القامئين على مصالحها حارسين لها ، لا ينظرون إلى هذه الحياة كقفص من حديد أو غل في عنق فيعاودونه ويكسرونه ، ولا ينظرون إليها كفرصة من لهو ونعيم ومتعة لا تعود أبداً فيتهزونها ويهتبلونها ، ولا يضيعون منها ساعة ولا يدخرون من طيباتها ، وكذلك لا يعدونها عذاباً وعقوبة مجرمة فيتخلصون منها ، ولا ينظرون إلى الدنيا كأكذبة ممدودة فيتهاككون عليها ، وإلى ما في الأرض من نعماء وخزائن وخيرات كأنها مال سائب يتقاتلون عليه ، وإلى الأمم الضعيفة كفرصة يتسابقون في اقتناصها ؛ بل يعدّون هذه الحياة نعمة من الله هي أصل كل خير وسبب كل برٍّ ، يتقربون فيها إلى الله ويصلون إلى كلهم الإنساني الذي قُدِّر لهم وفرصة من عمل وجهاد لا فرصة بعدها « هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً » . ويعدّون هذا العالم مملكة لله استخلفهم فيها — أولاً — من حيث أصل الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض (إني جاعل في الأرض خليفة) (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) ، و — ثانياً — من حيث أنه إنسان أسلم لأمر الله وانقاد لحكمه فاستخلفه في الأرض واسترعاها أهلها — (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قباهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) ومنعهم حق التمتع بخيرات الأرض من غير إسراف وتبذير (خلق لكم ما الأرض جميعاً) ، (كالأواثر بوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) « قل من حرم زينة

الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيمة » ، وجعل لهم الولاية على أمم الأرض وجماعات البشر يراقبون سيرها وسيرتها وأخلاقها ورغباتها ، فيرشدون الضال ويردعون الغاوي ويصلحون الفاسد ويقيمون الأود ويرأبون الصدع يأخذون للضعيف من القوى ، وينتصفون للمظلوم من الظالم ، ويقيمون في الأرض القسط ويسيطون على العالم جناح الأمن « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » .

وقد وصف عالم الماني مسلم مميزة المسلم وصفاً دقيقاً ، قال :

« إن الإسلام لا ينظر — كالنصرانية — إلى العالم بمنظار أسود ، بل هو يعلمنا أن لا نسرف في تقدير الحياة الأرضية ، وأن لا نغالي في قيمتها مغلاة الحضارة الغربية الحاضرة . إن المسيحية تذم الحياة الأرضية وتسكرها ، والغرب الحاضر — خلاف الروح النصراني — يهتم بالحياة كما يهتم النهم بطعامه ، هو يبتلعه ولكن ليس عنده كرامة له ، والإسلام بالعكس ينظر إلى الحياة بسكينة واحترام ، هو لا يعبد الحياة بل يمدّها كمرحلة نجتازها في طريقنا إلى حياة عليا ، وبما أنها مرحلة ومرحلة لا بد منها ليس للانسان أن يحقرها أو يقلل من قيمة حياته الأرضية . إن مرورنا بهذا العالم في سفر الحياة لا بد منه ، وقد سبق به تقدير الله ، فالحياة الإنسانية لها قيمتها الكبرى ، ولكن لا ينبغي لنا أن ننسى أنها ليست إلا واسطة وآلة وليست قيمتها إلا قيمة الوسائط والآلات ، الإسلام لا يسمح بالنظرية المادية القائلة « إن مملكتي ليست إلا هذا العالم » ولا بالنظرية المسيحية التي تزدرى الحياة وتقول « ليس هذا العالم مملكتي » وطريق الإسلام طريق وسط بينهما ، القرآن يرشدنا أن ندعو : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » — فالتقدير لهذا العالم وأشياءه ليس حجر عثرة في سبيل جهودنا الروحية الخصب ، والرقى المادي مرغوب فيه مع أنه ليس غاية في نفسه . إن غاية جهودنا ينبغي أن تكون إيجاد أحوال وظروف

شخصية واجتماعية — والمحافظة عليها إن وجدت — تساعد في ارتقاء القوة الخلقية في الإنسان ، مطابقة لهذا المبدأ . الإسلام يهدي الناس إلى الشعور بالمسئولية الخلقية في كل عمل يعمل به كبيراً كان أو صغيراً . إن نظام الإسلام الديني لا يسمح أبداً بمثل ما أمر به الإنجيل قائلًا : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وأعطوا ما لله لله » لأن الإسلام لا يسمح بتقسيم حاجات حياتنا إلى خلقية وعملية ، ليس هناك إلا خيرة فقط ، خيرة بين الحق والباطل ، وليس شيء وسطاً بينهما ، لذلك هو يباح على العمل لأنه جزء لا زام للأخلاق لا غنى عنه ، ينبغي لكل فرد مسلم أن يعد نفسه مسئولاً شخصياً عن المحيط الذي يحيط به وكل ما يقع حوله ومأموراً بالجهاد لإقامة الحق وبحق الباطل في كل وقت وفي كل جهة فإن القرآن يقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » هذا هو المبرر الخلقى للحركة الإسلامية الجهادية والمتوح الإسلامية الأولى والاستعمار الإسلامى ، فالإسلام استعماري إن كان لا بدُّ من هذا التعبير ، ولكن هذا النوع من الاستعمار ليس مدفوعاً بحب الحكومة والاستيلاء ، وليس من الأثرة الاقتصادية للقومية في شيء ، ولم يكن يحفز المجاهدين الأولين إلى الجهاد طمع في خفض من العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين ، لم يقصد منه إلا بناء إطار عالمي لأحسن ما يمكن للإنسان من ارتقاء روحى ، كما أن العلم بالفضيلة حسب تعليم الإسلام يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل . الإسلام لا يوافق أبداً على الفصل الأفلاطونى والتفريق النظري البحت بين الفضيلة والرذيلة ، بل يرى أنه من الوقاحة والرذيلة أن يميز الإنسان نظرياً بين الحق والباطل ، ولا يجاهد لارتقاء الحق وإزاحة الباطل ، فإن الفضيلة كما يقول الإسلام تحيا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض وتموت إذا خذلتها وتقاعد عن نصرتها^(١) .

المدنية الإسلامية وتأثيرها في الاتجاه البشري :

كان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامها في القرن الأول لهجرة محمد صلى الله عليه وسلم فصلا جديداً في تاريخ الأديان والأخلاق ، وظاهرة جديدة في عالم السياسة والاجتماع ، انقلب به تيار المدنية واتجهت به الدنيا اتجاهاً جديداً ، فكانت الدعوة الإسلامية لم يزل يأتي بها الأنبياء ويبشر بها المبشرون ويجهاد في سبيلها المخلصون ، ولكن لم يكن يتمكن دعاؤها من إقامة حكومة قائمة على أساسها ومنهجها متشعبة بمبادئها ، ومن إقامة مدنية مطبوعة بطابعها مبنية على أحكامها مثل ما تمكنوا في هذه المرة ، ولم تنل هذه الدعوة والجهود من النجاح في هذه السبيل مثل ما نالت أخيراً على يد محمد صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، فكان هذا الفتح المبين للإسلام محنة جديدة للجاهلية لم تعدها من قبل ولم تعرف كيف تخرج منها ، عهداها دعوة دينية روحية فإذا هي تصبح نجاة وسعادة وروحاً ومادة وحياة وقوة ومدنية واجتماعاً وحكومة وسياسة . دين سائح معقول كله حكمة وبداهة إزاء أوهام وخرافات وأساطير ، وشرع إلهي ووحى سماوي إزاء أقيسة وتجارب إنسانية وتشريع بشري ، ومدنية فاضلة قوية البنيان محكمة الأساس يسود فيها روح التقوى والعفاف والأمانة وتقدر فيها الأخلاق الفاضلة فوق المال والجاه ، والروح فوق المظاهر الجوفاء ، يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلا بالتقوى ، ويهتم الناس بالآخرة فتصبح النفوس مطمئنة والقلوب خاشعة ، ويقل التنافس في أسباب هذه الحياة والتسكالب على حطام الدنيا ويقل التباغض والتشاحن ، كل ذلك إزاء مدنية صاحبة مضطربة متناحرة متداعية البنيان متزلزلة الأركان ، يظلم الكبير فيها الصغير ، ويأكل كل القوى فيها الضعيف ، ويتسابقون في اللهو والفجور ، ويتنافسون في الجاه والأموال وأسباب الترف والنعم ، حتى تصبح الدنيا كلها حرباً في حرب وتصبح المدنية جحيماً على أهلها ، « ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » . حكومة عادلة تساوي بين رعيتهما وتأخذ للضعيف من القوى

وتحرس للناس أخلاقهم كما تحرس لهم بيوتهم وأموالهم ، وتحفظ عليهم دماءهم وأعراضهم ، خيارهم أسراؤهم ، وأزهدهم في الدش أملكهم لأسبابه وأقدرهم عليه ، إزاء حكومة عم فيها الجور والفساد ، وتواضع رجالها على الخيانة والظلم ، وتسابق أهلها في أكل أموال الناس وهتك أعراضهم وسفك دمائهم ، تفسد على الناس أخلاقهم بما تضرب لهم مثلاً بأخلاقها ، شرارهم أسراؤهم وملوكهم ، تشبع دوابهم وكلابهم وتجموع رعيتهم ، وتسكس بيوتهم ويمر بيوت الناس .

فأصبح الناس لا يجدون عائقاً عن الإسلام ، ولا يواجهون صعوبة وعنتاً في سبيل قبول الإسلام ، ولا يرون للجاهلية مرجحاً ومصلحة ، ويدخل الرجل في الإسلام فلا يخسر شيئاً ولا يفقد شيئاً ويجد بـرد اليقين وحلاوة الإيمان وعزة الإسلام ودولة قوية يعتز بها وأنصاراً يفقدونه بأرواحهم وأتسمهم ، ونفساً مطمئنة ، وثقة في الحياة بعد الموت ، فصار الناس ينتقلون من معسكر الجاهلية إلى معسكر الإسلام باختيارهم ، وصارت أرض الجاهلية تنتقص من أطرافها ، وكلمة الإسلام تملأ وظله يمتد ، حتى ارتفعت الفتنة وكان الدين لله .

وكان تأثير هذا الانقلاب عظيماً جليلاً ، فكان الطريق إلى الله من قبل في دولة الجاهلية وغربة الإسلام شاقاً عسيراً مخفوقاً بالأخطار ، فأصبح الآن سهلاً يسيراً آمناً مسلوفاً ، وكان يصعب على الإنسان في الوسط الجاهلي أن يطيع الله ، فصعب عليه في الوسط الإسلامي أن يعصى الله ، وكانت الدعوة إلى النار بالأمس ظاهرة منصوره فأصبحت اليوم خافتة مخذولة ، وكانت أسباب سخط الله وعصيانته مكشوفة موفورة فعادت نادرة مستورة ، وكانت الدعوة إلى الله في أرض الله جريمة قد ترتكب سراً وخفية ، فأصبحت جهراً وعلانية وحررة آمنة لا تلقى معارضة ذات بال ، ولا يخاف أصحابها اضطهاداً في سبيل العقيدة وأذى في سبيل الدين الجديد « تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره وورزقكم من الطيبات » وأصبح أصحابها يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، يأمرهم وينهون بمعنى الكلمة .

صارت طباع الناس وعقولهم تتغير وتتأثر بالإسلام من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، كما تتأثر طبيعة الإنسان والنبات في فصل الربيع ، وبدأت القلوب العاصية الجلفة ترق وتخشع . وبدأت مبادئ الإسلام وحقائقه تنسرب إلى أعماق النفوس وتتغلغل في الأحشاء ، وبدأت قيمة الأشياء تتغير في عيون الناس والموازين القديمة تتحول وتختلف الموازين الجديدة ، وأصبحت الجاهلية حركة رجعية كان من الجود والعبادة المحافظة عليها ، وصار الإسلام شيئاً راقياً عصرياً كان من الظرف والكياسة الانتساب إليه والظهور بمظاهره ، وكانت الأمم بل كانت الأرض تدنو رويداً رويداً إلى الإسلام ، ولا يشعر أهلها بسيرهم كما لا يشعر أهل الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس ، يظهر ذلك في فلسفتهم وفي دينهم وفي أدبهم وفي مدنيّتهم ، وتشف عن ذلك بواطنهم وضئيرهم ، وتم عنه الحركات الإصلاحية التي ظهرت فيهم حتى بعد انحطاط المسلمين .

جاء الإسلام بالتوحيد ونهى على الوثنية والشرك ، فهان الشرك منذ ذلك اليوم في عيون أهله وصغره ، وصار أهله يحجلون منه ويتبرؤون منه ولا يقرون به بعد ما كانوا يجتهدون في إظهاره ويستميّتون في الدفاع عنه ، وأصبح أهل كل دين يؤولون ما في نظامهم الديني من شرك أو مظاهر شرك ووثنية ورسومها وتقاليدها ويلوون بذلك ألسنتهم ، ويجتهدون في التعبير عنه وشرحه بما يقرب إلى التوحيد الإسلامي ويشبهه .

يقول الأستاذ أحمد أمين : « ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام ، من ذلك أنه في القرن الثامن الميلادي أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ظهرت في سبتانيا (Septimania)^(١) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القس ، وأن ليس للقس حق في ذلك ، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده في غفران

(١) سبتانيا مقاطعة فرنسية قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط .

ما ارتكب من إثم ، والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأخبار ، فطبيعي أن لا يكون فيه اعتراف^(١).

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (Iconoclasts) ذلك أنه في القرن الثامن والناسع للميلاد أو القرن الثالث والرابع الهجري ، ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل ؛ فقد أصدر الامبراطور الروماني « ليو » الثالث أمراً سنة ٧٢٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمراً آخر سنة ٧٣٠ م يعد الإنيان بهذا وثنية ، وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع ، على حين كان البابا جريجوري الثاني والثالث وجرمانوس بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة إيريني من مؤيدي عبادة الصور ، وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لفصيله ، وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام ، ويقولون إن كليودايوس (Claudius) أسقف تورين (الذي عين سنة — ٨٢٨ وحول ٨١٣ هـ) والذي كان يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتها في أسقفيته ، ولد وربى في الأندلس الإسلامية^(٢) . وكرهية الإسلام للتماثيل والصور معروفة ، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل ، فلما رآه هنكه ، وتلون وجهه ، وقال : يا عائشة أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله . قالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين^(٣) » والأحاديث في هذا الباب مستفيضة .

كذلك وجدت طائفة من النصاري^(٤) شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوجدانية وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام^(٥) .

(١) خدا بخش . (٢) خدا بخش .

(٣) السهوة النافذة بين الدارين والقرام السر .

(٤) Haine's Christianity of Islam in Spain. p. 116

(٥) ضحى الإسلام ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

ويمكن لمن يطالع تاريخ أوروبا الديني وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الإسلام العقلي في نزعات المصلحين والتأثرين على النظام الأسقي السائد ، أما دعوة لوتر الإصلاحية الكبيرة ، فقد كانت على علاتها أبرز مظهر للتأثر بالإسلام وبعض عقائده كما اعترف المؤرخون .

وترى كذلك تأثيراً للعقلية الإسلامية والشريعة الإسلامية في أخلاق الأمم اجتماعاً وتشريعاً في أوروبا النصرانية وفي الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامي^(١) تراه وتلمسه في نزعات الاحترام للمرأة وحقوقها والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر ، إلى غير ذلك مما سبق إليه الإسلام وامتازت به شريعته ومدنيته ، ولا يستطع دين من الأديان ومدنية من المدنيات تعيش في العالم المتمدن المعمور أن تدعى أنها لم تتأثر بالإسلام والمسلمين في قليل ولا كثير .

فلو جرت الأمور هكذا وتمتعت الأمم الإنسانية بقيادة الجماعة التي خلقت بقيادتها وأعطيت القوس باريها ، وجرت المياه في مجاريها ، لكان للعالم الإنساني تاريخ غير التاريخ الذي نقرؤه حافلاً بالزلازل والنكبات ناطقاً بطول بلاء الإنسانية وبحسبها ، لكان له تاريخ مجيد جميل يغتبط به كل إنسان ويقرء عيناً ، ولكن جرت الأقدار بغير ذلك ، وبدأ الانحطاط في المسلمين أنفسهم .

الفصل الثاني

الانحطاط في الحياة الإسلامية

الحمد الفاصل بين العصرين :

قال أحد الأدباء : « أمران لا يحدد لهما وقت بدقة ، النوم في حياة الفرد ، والانحطاط في حياة الأمة ، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا » إنه لحق في قضية أكثر الأمم ، ولكن بدأ التدلى والانحطاط في حياة الأمة الإسلامية أوضح منه في حياة الأمم الأخرى ، ولو أردنا أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال والزوال لوضعناها على ذلك الخط التاريخي الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين .

نظرة في أسباب نهضة الإسلام :

كان زمام القيادة الإسلامية — والعالمية بالواسطة — بيد الرجال الذين كان كل فرد منهم معجزة جليلة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، إيماناً وعقيدة وعملاً وخلقاً وتربية وتهذيباً وتزكية نفس وسمو سيرة ، وكلاً واعتدالاً ؛ لقد صاغهم النبي صلى الله عليه وسلم صوغاً ، وصبهم في قالب الإسلام صَبّاً ، فعادوا لا يشبهون أنفسهم إلا في الأجسام لا في الميول والنزعات ، ولا في الرغبات والأهواء ، ولودقق مدقق لما رأى في سيرتهم وأخلاقهم مأخذاً جاهلياً ينافي روح الإسلام والنفسية الإسلامية ؛ ولو تمثل الإسلام بشراً لما زاد على أن يكون كأحدكم ؛ وكانوا كما قلنا أمثلة كاملة وأقيسة تامة للدين والدنيا والجمع بينهما ، فكانوا أئمة يصلون بالناس ، وقضاة يفصلون قضاياهم ، ويحكمون بينهم بالعدل والعلم ، وأئمة لأموال المسلمين وخزنتهم ، وقواداً يقودون الجيوش

ويحسنون تدبير الحروب ، وأمراء يباشرون إدارة البلاد ويشرفون على أمور المملكة و يقيمون حدود الله ؛ وكان الواحد منهم في آن واحد تقياً زاهداً وبطلاً مجاهداً وقاضياً فهماً ، وفقياً مجتهداً ، وأميراً حازماً وسياسياً محنكاً ، فكان الدين والسياسة يتمثلان في شخص واحد وهو شخص الخليفة وأمير المؤمنين ، حوله جماعة ممن تخرجوا — إن صح التعبير — من هذه المدرسة ، المدرسة النبوية ، أو المسجد النبوي ، أفرغوا في قالب واحد يحملون روحاً واحدة ، وتلقوا تربية واحدة ، يستشيرهم الخليفة ويستبين بهم ، فلا يقطع أمراً ذابال حتى يشهده ، فسرت روحهم في المدينة ونظام الحكم وحياة الناس واجتماعهم وأخلاقهم ، وانعكست ميولهم ورغباتهم في المدينة وظهرت خصائصهم فيها ، فلا عدااء بين الروح والمادة ، ولا صراع بين الدين والسياسة ، ولا تفريق بين الدين والدنيا ، ولا تجاذب بين المصالح والمبادئ ، ولا تراحم بين الأغراض والأخلاق ، ولا تناحر بين الطبقات ، ولا تنافس في الشهوات .

شروط الزعامة الإسلامية :

إن الزعامة الإسلامية تقتضي صفات دقيقة واسعة جداً نستطيع أن نجملها في كلمتين « الجهاد » و « الاجتهاد » فهاتان كلمتان خفيفتان بسيطتان ولكنهما كلمتان جامعتان عامرتان بالمعاني الكثيرة .

الجهاد :

أما الجهاد فهو بذل الوسع وغاية الجهد لنيل أكبر مطلوب ، وأكبر وطير للمسلم طاعة الله ورضوانه والخضوع لحكمه والإسلام لأوامره ، وذلك يحتاج إلى جهاد طويل شاق ضد كل ما يراحم ذلك من عقيدة وتربية وأخلاق وأغراض وهوى ، وكل من ينافس في حكم الله وعبادته من آلهة في الأنفس والآفاق ، فإذا حصل ذلك للمسلم وجب عليه أن يجاهد لتنفيذ حكم الله وأوامره في العالم حوله وعلى بني جنسه ، فريضة من الله وشفقة على خلق الله ، ولأن الطاعة الانفرادية قد تصعب وتمتنع أحياناً بغير

ذلك ، وذلك ما يسميه القرآن « الفتنة » . ومعلوم أن العالم كله بما فيه من جهاد ونبات وحيوان وإنسان خاضع لمشيئة الله وأحكامه التكوينية وقوانينه الطبيعية (وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب » . فيتعين أن جهاد المسلم إنما هو لتنفيذ شريعته التي جاء بها الأنبياء ، وإعلاء كلمته وإنفاذ أحكامه ، فلا حكم إلا لله ولا أمر إلا به ؛ وهذا الجهاد مستمر ماضٍ إلى يوم القيامة ، وله أنواع وأشكال لا يأتي عليها الحصر ، منها القتال ، وقد يكون أشرف أنواعه وغايته أن لا تبقى في الدنيا قوتان متساويتان متنافستان تنجاذبان الأهواء والأنفس « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

ومن مقتضيات هذا الجهاد أن يكون الإنسان عارفا بالإسلام الذي يجاهد لأجله وبالكفر والجاهلية التي يجاهد ضدها ، يعرف الإسلام معرفة صحيحة ويعرف الكفر والجاهلية معرفة دقيقة ، فلا تخدعه المظاهر ولا تغره الألوان ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنما ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية . ولا يجب على كل مسلم أن تكون معرفته دقيقة بالكفر والجاهلية ومظاهرها وأشكالها وألوانها ، ولكن على من يتزعم الإسلام ويتولى قيادة الجيش الإسلامي ضد الكفر والجاهلية ، أن تكون معرفته بالكفر والجاهلية فوق معرفة عامة المسلمين وأوساطهم .

كذلك يجب أن يكون استعدادهم كاملا وقوتهم تامة ، يقارعون الحديد بالحديد بل بأقوى من الحديد ، ويقابلون الريح بالإعصار ، ويواجهون الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه ، وبكل ما امتدت إليه يدهم ، وبكل ما اكتشفه الإنسان ووصل إليه العلم في ذلك العصر ، من سلاح وجهاز واستعداد حربي ، لا يُقصرُون في ذلك ولا يمجزون : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

الاجتهاد :

أما الاجتهاد ، فتريد به أن يكون من يرأس المسلمين قادراً على القضاء الصحيح في النوازل والحوادث التي تعرض في حياة المسلمين وفي العالم وفي الأمم التي يحكمها ، وفي المسائل التي تفاجئ وتتجدد والتي لا يستقصيها فقه مدون ومذهب مأثور وفتاوي مؤلفة ، ويكون عنده من معرفة روح الإسلام وفهم أسرار الشريعة والاطلاع على أصول التشريع الإسلامي وقوة الاستنباط — انفراداً أو اجتماعاً — ما يحل به هذه المشاكل ويرشد الأمة في الغمة .

ويكون عنده من الذكاء والنشاط والجد والعلم ما يستخدم به ما خلق الله في هذا السكون من قوى طبيعية ، وما بث في الأرض وتحت الأرض من خيرات ومنابع ثروة وقوة ، وأن يسخرها لمصلحة الإسلام بدل أن يستخدمها أهل الباطل لأهوائهم ، ويتخذونها وسيلة للعلو في الأرض ، ويسخرها الشيطان لتحقيق أغراضه والإفساد في الأرض .

انتقال الإمامة من الكفاء إلى غير الكفاء :

ولكن من الأسف ومن سوء حظ العالم البشري أن تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يكونوا له أكفاء ، ولم يعدوا له عدة ، ولم يأخذوا له أهبة ، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية كما تلقى الأولون وكثيرون في عصرهم وجيلهم ، ولم يسيغوا تعاليم الإسلام إساعة تليق بقيادة الأمة الإسلامية والاضطلاع بزعامتها ، ولم تنق رؤوسهم ولا نفوسهم من بقايا التربية القديمة ، ولم يكن عندهم من روح الجهاد في سبيل الإسلام ومن قوة الاجتهاد في المسائل الدينية والدنيوية ما يجعلهم يضطلعون بأعباء الخلافة الإسلامية — وهذا الحكم عام يشمل خلفاء بني أمية وبني العباس ، حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (م ١٠١) .

تحريفات الحياة الإسلامية :

فظهر من ذلك ثلمات في ردم الإسلام لم تسد إلى الآن ، ووقعت تحريفات في الحياة الإسلامية .

فصل الدين عن السياسة :

وقع فصل بين الدين والسياسة عملياً ، فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء وأهل الدين ، فاستبدوا بالحكم والسياسة ، واستعانوا — إذا أرادوا واقتضت المصالح — بالفقهاء ورجال الدين كمشيرين متخصصين ، واستخدموهم في مصالحهم واستغنوا عنهم إذا شاءوا ، وعصوهم متى شاءوا ، فتحررت السياسة من رقابة الدين ، وأصبحت قيصرية أو كسروية مستبدة ، وملكاً عضواً ، وأصبحت السياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، وأصبح رجال الدين والعلم بين معارض للخلافة وخارج عليها ، وحائد منعزل اشتغل بخاصة نفسه وأغرض العين عما يقع ويجرى حوله ، يأنساً من الإصلاح ، ومنتقداً يتلهف ويتنفس الصعداء مما يرى ويسمع ولا يملك من الأمر شيئاً ، ومتعاون مع الحكومة لمصلحة دينية أو شخصية ، ولكل ما نوى ، وحينئذ انفصل الدين والسياسة ، وعادا كما كانا قبل عهد الخلافة الراشدة ، أصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدي ، وأصبحت السياسة مطلقة اليد حرة التصرف نافذة الكلمة صاحبة الأمر والنهي ، ومن ثم أصبح رجال العلم والدين طبقة متميزة ، ورجال الدنيا طبقة متميزة ، والشقة بينهما شاسعة وفي بعض الأحيان بينهما عداً وتنافس .

النزعات الجاهلية في رجال الحكومة :

ولم يكن رجال الحكومة حتى الخلفاء أمثلة كاملة في الدين والأخلاق ، بل كان في كثير منهم عروق للجاهلية ونزعاتها ، فسرت روحهم ونفسياتهم في الحياة العامة والاجتماع ، وأصبحوا أسوة للناس في أخلاقهم وأعوادهم وميولهم ، وزالت

رقابة الدين والأخلاق وارتفعت الحسبة ، وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطانها ، لأنها لا تستند إلى قوة ولا تحميها حكومة ، وإنما يقوم بها متطوعون لا قوة لديهم ولا عقاب ، والدواعي إلى خلافها متوفرة قوية ، فتنفست الجاهلية في بلاد الإسلام ورفعت رأسها ، وأخذ الناس إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب ، وانغمسوا في اللذات والشهوات واستهتروا استهتاراً ، ونظرة في كتاب الأغاني وكتاب الحيوان للجاحظ تريك ما كان هنالك من رغبة جاححة إلى المهر ، وتهافت على الملاهي واللذات ، ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها ، وبهذه السيرة وبهذه الأخلاق المنحطة ومع هذا الانهماك في الملاهي لا تستطيع أمة أن تؤدّي رسالة الإسلام ، وأن تقوم في الدنيا مقام خلفاء الأنبياء ، وتذكر بالله والآخرة وتحضّ على التقوى والدين ، وأن تكون أسوة للناس في أخلاقها ، بل لا تستطيع أن تتمتع بالحياة والحرية زمنًا طويلاً : « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .

سوء تمثيلهم للإسلام :

وكان هؤلاء في كل ما باتون ويذرون ممثلين لأنفسهم وسياستهم فقط ، لا يمثلون الإسلام ، ولا سياسته الشرعية ، ولا قانونه الحربي ، ولا نظامه المدني ، ولا تعاليمه الأخلاقية إلا في النادر ، ففقدت رسالة الإسلام تأثيرها وقوتها في قلوب غير المسلمين ، وضعفت ثقفتهم بهم ، وفي لفظ مؤرخ أوربي — بدأ الإسلام بالانحطاط لأن البشرية بدأت تشك في صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة .

فقد الاهتمام بالعلوم العملية المفيدة :

إن العلماء المفكرين منهم لم يعتنوا بالعلوم الطبيعية التجريبية وبالعلوم العملية المثمرة المفيدة اعتناهم بعلوم ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهية التي تلقوها من اليونان ،

وما هي إلا وثنياتهم القومية التي ترجوها في لغتهم الفلسفية ، وأفاضوا عليها لباساً من الفن ، وما هي إلا ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى ، وقد أغنى الله المسلمين عنها وكفاهم هذا البحث والتنقيب ، وعملية تجزئة وتحليل في مسائل ذات الله وصفاته وما يتعلق بها أشبه بالتحليل الكيميائي ، بما أنزل إليهم بينات من الهدى والفرقان وجعلهم على نور من ربهم ، ولكن المسلمين لم يشكروا هذه النعمة العظيمة ، وظلوا قروناً طويلة يجاهدون من هذه العلوم والمباحث في غير جهاد ، ويضيعون ذكاهم في مباحث فلسفية وكلامية لا تجدى نفعاً ولا تأتي بنتيجة ، وليس لها دعوة في الدنيا والآخرة ، وتشاغلوا بها عن علوم واختبارات تسخر لهم قوى الطبيعة ويسخرونها لمصلحة الإسلام ، ويبسطون بها سيطرة الإسلام المادية والروحية على العالم كله .

وكذلك اشتغلوا بمباحث الروح وفلسفة الإثراق ومسائل وحدة الوجود وبذلوا فيها قسطاً كبيراً من أوقاتهم وجهودهم وذكائهم .

أما ما وصل إليه المسلمون في العلوم الطبيعية والتجريبية ، فإنه وإن كان أرق من

العصور السابقة وأكثر ثروة في العلم والاختبار ، إلا أنه لا يتناسب مع فتوحهم الواسعة في دوائر علمية أخرى ، ولا يتلاءم مع المدة الطويلة التي تمتعوا بها في التاريخ ولم يظهر فيها من النوابع والعقريين مثل ما ظهر في موضوعات أخرى . وإن ما خلفوه من كتب في الطبيعيات والكونيات والتجارب العلمية ، وإن كانت مما استفادت به أوروبا في نهضتها وأقرت بقيمتها ، إلا أنها تتضاءل جداً أمام هذه المكتبة الهائلة الزاخرة التي أنتجتها أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقط ، فهما افتخرنا بآثار علماء الأندلس وحكام الشرق ، فإنها لا تعد شيئاً بجانب الإنتاج الغربي الضخم في العلم والحكمة والتجربة والاختبار ، لا في الكمية ولا في الكيفية ، ولا في الإبداع ولا في الابتكار ، ولا في التدقيق العلمي ولا في الإتقان الفني ، وإذا أردت أن تعرف مقدار عناية الشرق الإسلامي بالناحية الروحية ونسبتها

إلى الناحية العلمية . التجربة فقارن بين كتاب الفتوحات المكية للشيخ ابن عربي مثلاً وبين أكبر كتاب في الطبيعيات والحكمة ، ترفقاً هائلاً في ضخامة المادة والعناية بالموضوع والجهاد في سبيله ، وبذلك تعرف ذوق الشرق الغالب عليه .

الضلالات والبدع :

وكاد يحجب توحيد الإسلام النقي حُجُب من الشرك والجهل والضلالة ، وطرأت على النظام الديني بدع شغلت مكاناً واسعاً من حياة المسلمين وشغلتهم عن الدين الصحيح ، وعن الدنيا ، وميزة المسلمين بين أمم الأرض وفضلهم إنما هو من هذا الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وميزة هذا الدين وإعجازه في صحته وحفظه ، لأنه يمتاز بأنه وحى الله وشريعته ووضع المعجز وشعره الحكيم (تنزيل من حكيم حميد) فإذا عملت فيه عقول الناس ودخلت فيه أعمال الناس وأهواؤهم لم يكن له فضل على الأديان التي حرفها أهلها ، والنظم التي نسجتها أيدي الناس إلا بمقدار ما فيه من الوحي المحفوظ والعلم المعصوم ، ولم يكن ضامناً لسعادة الدنيا والآخرة ، ولم يكن حقيقاً بأن تخضع له العقول وينجذب إليه الناس .

إنظر الدين على المسلمين وإهانة بهم :

ولا يعزبن عن البال أن الدين لم يزل طول هذه المدة حياً محفوظاً من التحريف والتبديل ، مهيباً بالمسلمين ناعياً عليهم انحرافهم عن طريقه ، ولم يزل مناره عالياً وضوؤه مشرقاً « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، ولم يزل الكتاب والسنة يبعثان في نفوس القراء نورة على الشرك والبدع ، وعلى الجهالة والضلالة ، ونورة على أخلاق الجاهلية وعواندها ، ونورة على ترف المترفين واستبداد الملوك ، ولم يزل ينهض بتأثيرها

في كل دور من أدوار التاريخ الإسلامي وفي كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي رجال يقومون في هذه الأمة على طريقة الأنبياء ، يحددون لها أمر دينها ، وينفخون فيها روح الجهاد ، ويفتحون لها باب الاجتهاد ، ويسعون لإقامة حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة ، فمنهم من استشهد في هذا السبيل ، ومنهم من استطاع أن يمثل دوراً قصيراً يذكر بالخلافة الراشدة : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً) وهم مصداق الحديث الشريف : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله » فتاريخ الجهاد والتجديد في الإسلام متصل لا تقطعه فترة ، ومشاعل الإصلاح متسلسلة متقد بعضها من بعض لم تطفئها العواصف .

تاج القروء المنحطة :

وظلت خلية الإسلام تعسل في أدوار الانحطاط أيضاً ، ويظهر من الملوك والفاحين أفرادهم أنموذج الصحابة والسلف الصالح في سيرتهم وأخلاقهم ، وفي دينهم وتقواهم ، وينهض في العالم الإسلامي رجال يتجمل التاريخ بذكرهم ، وكان المسلمون — رغم انحرافهم عن سيرتهم الأولى وطريقهم المثلى — أقرب إلى طريق الأنبياء وأطوع لله من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم ، وكان وجودهم ودولتهم أكبر عائق للجاهلية في انتشارها وازدهارها ، وكانوا رغم نقائصهم أكبر قوة في العالم تهابها الدول وتحسب لها كل حساب .

انهيار صرح القوة الإسلامية :

ولم تزل تضعف هذه القوة وتهدم بدون أن يشعر بذلك الأجانب حتى إذا خضعت شوكة المسلمين في القرن السابع لما مرق التتار حكومة خوارزمشاه

- المملكة الإسلامية الأخيرة - سقطت بغداد في أيديهم زال ذلك الشبح
الخفيف وسقط الجدار ، فعانت الطيور والوحش في الحقل ، وتجاسر الناس على
المسلمين وبلادهم .

ورث التتار والمغول تراث المسلمين وخآفهم في الحكومة ، وناهيك به بؤساً
وشقاء للإنسانية وخراباً للعالم أن يتولى قيادة العالم أمة جاهلة وحشية ليس عندها
دين ولا علم ولا ثقافة ولا حضارة .

الفصل الثالث

دور القيادة العثمانية

العثمانيون على مسرح التاريخ :

في ذلك الحين ظهر الترك العثمانيون على مسرح التاريخ ، وفتح محمد الثاني ابن مراد وهو ابن أربع وعشرين سنة القسطنطينية العظمى عاصمة الدولة البيزنطية المنيعه سنة ٨٥٣ هـ (١٤٥٣ م) فتجدد رجاء الإسلام وانبعث الأمل في نفوس المسلمين ، وكان الترك وعلى رأسهم آل عثمان موضعاً للثقة في قيادة الأمم الإسلامية وفي استرداد قوة المسلمين ومكائتهم في العالم ، وكان فتحهم للقسطنطينية التي استعصت على المسلمين ثمانية قرون^(١) دليلاً على كفاءتهم وقوتهم وبلوغهم درجة الاجتهاد في صفاة الحرب ، وحسن قيادتهم العسكرية وتفوقهم على الأمم المعاصرة في آلات الحرب واستخدامهم لمهمتهم قوة العلم والعمل ، وكل ذلك مالا غنى للأمة عنه .

تفوق محمد الفاتح في فن الحرب :

وقد كان محمد الفاتح — كما يقول درابر — يعرف العلوم الرياضية ويحسن تطبيقها على الفن الحربي ، وكان قد أعدّ لهذا الفتح عدته واستفاد كل ما في عصره من معدات حربية .

(١) غزا الأسطول العربي القسطنطينية بقيادة بسر بن أرطاة سنة ٤٤ للهجرة وفق ٦٦٤ للمسيح ، وحاصر يزيد بن معاوية القسطنطينية ٥١ هجرية وفق سنة ٦٧٢ مسيحية ، وحاصرها العرب أربع مرات على الأقل بعد ذلك ، ولم يفتحوها لمنعتها .

قال البارون « كارادفو » (Baron Carra de vaux) في كتابه « مفكرو الإسلام » في الجزء الأول منه عند ترجمة محمد الفاتح :

« إن هذا الفتح لم يُقْبِضَ لِمُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ اتفاقاً ، ولا تيسَّرَ لِمُجَرَّدِ ضَعْفِ دَوْلَةٍ بِيْزَنْطِيَّةٍ ، بل كان هذا السلطان يدبِّرُ التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له كل ما كان في عصره من قوة العلم ، فقد كانت المدافعُ حينئذٍ حديثة العهد بالإيجاد ، فأعمل في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذٍ وانتدب مهندساً بحرياً ركب مدفعاً كان وزن الكرة التي يرمى بها ٣٠٠ كيلو جرام ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيل إنه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه ، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل ، ومعه مدفعية هائلة ، وكان أسطولُه المحاصر للبلدة من البحر (١٢٠) سفينة حربية ، وهو الذي — من قريحته — تصور سحب جانب من الأسطول من البر إلى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم ٧٠ سفينة أنزلها في البحر من جهة قاسم باشا^(١) »

مزايَا الشعب التركي :

وقد تفرد الشعب التركي المسلم تحت قيادة آل عثمان بمزايا اختص بها من بين الشعوب الإسلامية يومئذٍ واستحق بها زعامة المسلمين :

أولاً — أنه كان شعباً ناهضاً متحمساً طموحاً فيه روح الجهاد ، وكان سليماً — بحكم نشأته وقرب عهده بالفطرة والبساطة في الحياة — من الأدواء الخلقية والاجتماعية التي أصابت الأمم الإسلامية في الشرق في مقتلها .

ثانياً — أنه كان متوفراً لديه القوة الحربية التي يقدر بها على بسط سيطرة الإسلام المادية والروحية ، ويرد بها غاشية الأمم المناوئة وعاديتها ، ويتبوأ بها قيادة

(١) من حواشي الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامي الجزء الأول ص ٢٢٠ الطبعة الثانية .

العالم ، فقد بادر العثمانيون في صدر دولتهم لاستعمال المعدات الحربية وخصوصاً النارية منها واهتموا بالمدافع ، وأخذوا بالحديث الأحدث من آلات الحرب ، وعُنُوا بفن الحرب وتنظيم الجيوش وتعبئتها حتى صاروا في صناعة الحرب أئمة بغير نزاع ، والمثل السكامل والقُدوة لأوربا .

وكانوا يحكمون في ثلاث قارات : أوربا ، وآسيا ، وإفريقية ؛ ملكوا الشرق الإسلامي من فارس حتى مراكش ، ودوَّخوا آسيا الصغرى وتوغلوا في أوربا ، حتى بلغوا أسوار « فينا » وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع قد جعلوه بحيرة عثمانية لا أثر للأجنبي حوله ، وقد كتب معتمد القيصصر بطرس الأكبر لدى الباب العالي أن السلطان يعتبر البحر الأسود كداره الخاصة فلا يباح دخوله لأجنبي ، وأنشأوا أسطولا عظيما لا يقبل لأوربا به حتى اجتمعت لسحقه كل من عمارات البابا والبندقية وأسبانيا والبرتغال ومالطه عام ٩٤٥ هـ = ١٥٤٧ م - ولكن لم تغن عنهم كثرتهم شيئا .

وقد جمعت الإمبراطورية العثمانية في عهد سليمان القانوني الكبير بين السيادةتين البرية والبحرية ، وبين السلطتين السياسية والروحية .

بلغت حدود الدولة العثمانية على ملك سليمان الطونة والصاوة (النهرين) في الشمال ونبع النيل والمحيط الهندي في الجنوب وسلسلة جبال القفقاس في الشرق وجبال أطلس في الغرب وهي مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف ميل مربع .

وكان الأسطول العثماني مؤلفا مما يزيد على ٣٠٠٠ مركب حربي ، وكان القسم الشرقي من بحر سفيد وبحر الأدرياتيك ومرمر وأزاق والأسود والأحمر وفارس في حوزته وتحت سيطرته .

ودخل كل مدينة شهيرة في العالم القديم ما عدا رومة في ضمن حدود الدولة العثمانية^(١) ، وكانت أوربا كلها ترتعد منهم فرقا ، ويدخل ملوكها الكبار في ذمة

(١) فلسفة التاريخ العثماني لمحمد جميل بيهم .

ملوكهم ، ويمسك أهل الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراماً للترك إذا نزلوا بها — وأمر البابا أن يحتفل بعيد ، وأن تقام صلوات الشكر مدة ثلاثة أيام لما أنهى نبي محمد الفاتح .

ثالثاً : كانوا في أحسن مركز للقيادة العالمية ، كانوا في شبه جزيرة البلقان بحيث يشرفون منها على آسيا وأوربا ، وكانت عاصمتهم واقعة بين البحرين الأسود والأبيض وواصلت بين البرين آسيا وأوربا ، فكانت خير عاصمة لأكبر دولة تحكم على آسيا وأوربا وأفريقية ، حتى قال نابليون : « لو كانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها » .

وكانت أوربا لها الخطر الكبير والشأن العظيم في المستقبل القريب ، تزخر فيها القوى الحيوية وتجيش في صدورهم عوامل الرقي ، فكان في استطاعة الترك — لو وفق الله — أن يتقدموا في ميدان العلم والعقل ويسبقوا أمم أوربا النصرانية ، ويصبحوا أئمة العالم يقودونه إلى الحق والهدى قبل أن تملك أوربا زمام العالم وتقوده إلى النار والدمار .

انحطاط الأتراك في الأخلاق وصمودهم في العلم وصناعة الحرب :

ولكن من سوء حظ المسلمين — فضلاً عن سوء حظ الأتراك — أخذ الترك في الانحطاط والتدلى ودب إليهم داء الأمم من قبلهم الحسد والبغضاء واستبداد الملوك وجورهم وسوء تربيتهم وفساد أخلاقهم وخيانة الأمراء وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة ، إلى غير ذلك من أخلاق الأمم المنحطة مما هو مبين في كتب التاريخ التركي ، وليس هذا موضع تفصيله ، وكان شر ما أصيبوا به الجود في العلم والجود في صناعة الحرب وتنظيم الجيوش ، وقد أسوا قول الله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ » إلخ . وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها » ، وكان خليفاً بهم — لخرج مراكزهم

السياسي والجغرافي ، وقد أحاطت بهم الدول الأوروبية إحاطة السوار بالمعصم —
أن يجعلوا وصية القائد الإسلامي الكبير عمرو بن العاص رضى الله عنه للمسلمين
في مصر نصب أعينهم : « واعلموا أنكم في رباط إلى القيامة لكثرة الأعداء حولكم
وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم » ولكن الترك وقفوا وتقدم الزمان ، وتحلفوا
وسبقت الأمم الأوروبية .

الجمود العلمي في تركيا :

وقد وصفت الفاضلة خالدة أديب هانم هذا الجمود العلمي في تركيا وصفاً يحسن بنا
أن ننقله هنا قالت :

« ما دامت فلسفة المتكلمين تهيمن على الدنيا ظل علماء الإسلام في تركيا
يقومون بواجبهم ويحسنون القيام به ، وكانت المدرسة السليمانية ومدرسة الفاتح
مركزين للعلوم والفنون السائدة في ذلك الزمان ، لكن لما نشط الغرب من عقل
الفلسفة الإلهية والمباحث الدينية الكلامية ووضع أساس العلم الحديث والحكمة الجديدة
فأحدث انقلاباً في العالم لم تعد جماعة العلماء تقدر على الاضطلاع بأعباء التعليم والقيام
بواجبات المعلمين ، كان يعتقد هؤلاء أن العلم لا يزال حيث كان في القرن الثالث عشر
المسيحي لم يتجاوز ذلك المقام ولم يتقدم ، ولم تزل هذه الفكرة الخاطئة سائدة على
نظامهم التعليمي إلى القرن التاسع عشر المسيحي » .

« إن فكرة علماء تركيا والبلاد الإسلامية الأخرى هذه ليست من الدين
في شيء ، إن الفلسفة الإلهية أو علم الكلام الذي كان عند المسلمين أو النصارى ،
إنما كان مبنياً على فلسفة الإغريق ، وكان الغلبة فيه لأفكار أرسطاطاليس الذي
كان فيلسوفاً وثنياً ، ويجدر بي في هذا المقام أن أقارن بإجمال بين عقلية العلماء
المسيحيين وعقلية علماء المسلمين .

لم يتعرض القرآن الكريم بالتفصيل لمسألة خلق العالم الطبيعي ، والقسط الأوفى
في تعليمه والأهمية الكبرى للحياة الخلقية والاجتماعية ، ومقصوده الأكبر فصل

ما بين الحسن والقبيح والخير والشر ، إنه جاء بشريعة للعالم ، وكلما ذكر مسألة من مسائل ما بعد الطبيعة أو المعارف الروحية قلما نرى فيها تعقداً أو إشكالا ، إن أساس تعليمه التوحيد ، فكان الإسلام ديناً سمحاً بسيطاً ، وهو أفسح صدرًا للنظريات الجديدة عن العالم الطبيعي من الأديان الأخرى بكثير ، ولكن هذا التسامح وهذه البساطة التي كانت تساعد في التحقيق العلمي الجديد لم تطل مدتها في حياة المسلمين ، قيّد العلماء والمتكلمون في القرن التاسع الهجري الإلهيات — فضلا عن الفقه — بسلاسل وقيود ، وأوصدوا باب التحقيق والاجتهاد ، في ذلك الوقت تغلغلت أفكار أرسطاطاليس في الفلسفة الإسلامية .

بالعكس من ذلك الدين المسيحي ، الذي هو أولى بأن يسمى دين الراهب بولس ، فإن « سفر بدء التكوين » يحتوي على تفصيل للعالم الطبيعي ، وإذا آمن النصراني بأنه كلام الله كان الواجب عليهم أن يقرروا صدقه ، ولما كانت المشاهدة لا تؤيدهم في هذا التأويل لجأوا إلى الاستدلال وتمسكوا بأهداب أرسطاطاليس ، لأن منطقته يعمل عمل السحر .

لما بدأ الغرب في دراسة الطبيعة بواسطة المشاهدة والاختبار والتحليل والتجزئة سقط في أيدي رجال الكنيسة ، ولما وصل العلماء بطرق عملية إلى اكتشافات مهمة خاف علماء النصرانية على سيادة الكنيسة أن تنقرض ، فحدث صراع عنيف بين الدين والعلم ، وذهب كبار علماء الطبيعة الذين كانوا عاكفين على دراستهم وتحقيقاتهم ضحية علمهم .

واضطرت الكنيسة النصرانية بعد المعارك الدموية بين الدين والعلم أن تواجه الواقع ، فأدخلت علوم الطبيعة في برنامج مدارسها وكلياتها ، وأصبحت جامعاتها التي لم تكن تختلف بالأمس عن مدارس المسلمين ، مركزاً للعلوم الطبيعية والعلوم الحديثة ، ولم تهجر مع هذا فلسفتها ، وكان نتيجة ذلك أن ظل للكنيسة سلطان على فريق من الطبقة المثقفة ، وكان للقسس الكاثوليك والبروتستانت مشاركة في العلوم الحديثة ، وكانوا يقدرون على أن يباحثوا الناشئة في كل موضوع .

وكان العلماء في تركيا العثمانية على الضد من ذلك ، فلم يُعنوا باكتساب العلوم الحديثة ، بل منعوا الأفكار الجديدة أن تدخل في منطقتهم ، وإذا كانوا متصرفين بزماد تعليم الأمة الإسلامية ولم يسمحوا لشيء طريف بأن يقرب منهم ، فإن الجمود قد تغلب على نظامهم التعليمي ، وكانت مشاغلهم السياسية قد طغت في دور الانحطاط ، وكانت لا تسمح لهم بأن يتحملوا متاعب المشاهدة والاختبار ، فلم يكن لهم إلا أن يلجؤوا على فلسفة أرسطاطاليس ، ويبنوا عليهم على الاستدلال ، فلم تزل المدارس الإسلامية في القرن التاسع عشر المسيحي ، كما كانت في القرن الثالث عشر المسيحي^(١) .

الانحطاط الفكري والعلمي العام :

ولم يكن الجمود العلمي والكلال الفكري مقتصرين على تركيا وأوساطها العلمية والدينية فحسب ، بل كان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصاباً بالجدب العلمي ، وشبه شلل فكري ، قد أخذه الإعياء والفتور ، واستولى عليه النعاس . ولعل القرن التاسع — إذا لم نقل القرن الثامن — آخر قرون النشاط والتوليد والابتكار في الدين والعلم ، والأدب والشعر والحكمة ، والقرن العاشر أول قرون الجمود والتقليد والمحاكاة ، وترى هذا الجمود عاماً شاملاً للعلوم الدينية والفنون الأدبية والمعاني الشعرية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم ، فلا تجد في كتب التراجم التي ألفت للعصور الأخيرة من تطلق عليه لقب العبقري ، أو النابغة أو المحقق على الأقل ، أو من جاء في فن من الفنون بشيء طريف مبتكر ، أو زاد في العلم زيادة حسنة ، إذا استثنينا بعض الأفراد في أطراف العالم الإسلامي ، كالشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م ١٠٢٤ هـ) صاحب الرسائل الخالدة في الشريعة والمعارف الإلهية ، والشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) صاحب حجة الله البالغة

(١) « صراع الشرق والغرب في تركيا » محاضرات في الإنجليزية لخالدة أديب ألفتها في الجامعة المليية الإسلامية ، الخطبة الثانية « انحطاط العثمانيين » — من ٤٠ — ٤٣ Conflict of East and west in Turkey by Halide Edib p. 40—43.

وإزالة الخفاء والفوز الكبير ورسالة الإنصاف ، وابنه الشيخ رفيع الدين (م ١٢٣٣ هـ) صاحب إبطال البراهين الحكيمة وتكميل الأذهان ، والشيخ إسماعيل ابن عبد الغنى بن ولى الله الدهلوى (م ١٢٤٦ هـ) صاحب منصب الإمامة والعقبات والصراط المستقيم ^(١) .

ولا تقرأ فى شعر هذه العصور الأخيرة على كثرة ما نُظِمَ وقيل فيها شعراً مطبوعاً يعلق بالذهن ، أو إنشاءً مترسلاً ينشرح له الصدر ، ترى أدباً فاتراً بارداً قد أفسده التألق فى الحلية اللفظية والمبالغة والتهويل فى الألفاظ والمعانى وكثرة التملق فى المدح والغزل بالمذكور فى الشعر ، والتكلف حتى فى الرسائل الإخوانية والأغراض الطبعية ، والسجع البارد حتى فى كتب التاريخ والتراجم .

كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدمين وحلت محلها كتب المتأخرين المتكلفين ، وغُصَّت بالحواشى والتقريرات والتلخيصات والمتون التى ضنَّ فيها مؤلفوها على القرطاس ، وتعمدوا التعقيد والغموض ، وكأنهم ألفوها فى صناعة الاختزال . وكل ذلك ينبىء عن الاحتطاط الفكرى والعلى الذى حل بالعالم الإسلامى وتغلغل فى أحشائه .

معاصرو العثمانيين فى الشرق :

وعاصرت الدولة العثمانية دولتان قريتان فى الشرق : إحداهما الدولة المغولية التى أسسها بابر التيمورى (سنة ٩٣٣ هـ ١٥٢٦ م) وكان معاصراً للسلطان سليم الأول وتوالى على عرشها ملوك من أعظم ملوك المسلمين شوكة وأبهة وقوة حرية واتساع مملكة ، وكان أعظمهم أورنگ زيب ، وكان آخر الملوك التيموريين الأقوياء وأوسعهم مملكة وأعظمهم فتوحاً وأمتهم ديانة وأعرفهم بالكتاب والسنة ، وقد عاش أكثر من تسعين سنة وحكم خمسين سنة ، وتوفى ١١١٨ هـ أى فى فجر القرن الثامن عشر المسيحى وهو عصر مهم جداً فى تاريخ أوروبا ، ولكنه لم يكن هو ولا سلفه على

(١) انظر تراجمهم فى كتاب نزهة الخواطر (٨ مجلدات) للسيد عبد الحى الحسنى .

شيء من الاتصال بما كان يجري في أوربا ، وما تتمخض به من حوادث جسام ، وما يفور في صدره من عوامل الرقي والنهضة ، وكانوا ينظرون إلى من يغشاهم من تجار أوربا وأطبائها أو سفراء دولها — على قلة ورودهم من هذه البلاد النائية — نظر الاستخفاف والاحتقار .

وكانت تصاقب دولتهم في أفغانستان الدولة الصفوية ، وكانت دولة راقية متحضرة ولكنها شُغِلت بنزعتها الشيعية وبالهجوم على الدولة العثمانية مرة والدفاع عن نفسها أخرى .

وانحصرت هاتان الدولتان في قطرها وكانتا بمعزل عما يقع في الشرق الأدنى فضلا عن الغرب وفي البلاد الإسلامية فضلا عن البلاد الأجنبية ، أما التحالف والتكتل فلم يكن يخطر من أحد منهم على بال ، وذلك مما طبعت عليه الدول الشرقية والحكومات الشخصية ووصى بها الآباء الأبناء ، وكذلك دراسة أحوال أوربا العلمية والحربية واقتباس العلوم والصنائع من الخارج فلم يكن يدور بخلد إنسان في ذلك العصر .

نهضة أوربا الجاهلية وسيرها الخبيث في علوم الطبيعة والصناعات :

وكان القرن السادس عشر والسابع عشر المسيحي من أهم أدوار التاريخ الإنساني الذي له ما بعده ، قد استيقظت فيه أوربا من هجمتها الطويلة ، وهبّت من مرقدها مجنونة تتدارك زمان الغفلة والجهل وتعدو إلى غايتها عدواً ، بل تطير إليها بكل جناح ، تُسخر قوى الطبيعة وتفضح أسرار الكون ، وتكشف عن بحار وقارات كانت مجهولة وتفتح فتوحاً جديدة في كل علم وفن وفي كل ناحية من نواحي الحياة ، ونبع في هذه المدة القصيرة رجال ومبتكرون في كل علم وعقريون أمثال كوبرنيكس (Copernicus) وبرونو (Brunoe) وغليليو (Galilio) وكبلر (Kepler) ونيوتن (Newton) ، وغيرهم الذين نسخوا النظام القديم وأسسوا نظاماً حديثاً واكتشفوا عوالم في العلم ، ومن الرحالين المكتشفين أمثال كلبس (Columbus) وفاسكو دى غاما (Vasco Dagama)

ومجلن (Maglin) . كان تاريخ الأمم في هذا الدور في صياغة وسبك ، وكانت نجوم الأمم والشعوب بعضها في أفول وبعضها في طلوع يصير الآفل منها طالعاً والظالع آفلاً ، وكانت ساعة في ذلك الزمان تساوى يوماً بل أياماً ، ويوم يساوى عاماً بل أعواماً ، فمن ضيّع ساعة فقد ضيّع زمناً .

تخلف المسلمين في مرافق الحياة :

ولكن المسلمين لم يضيّعوا ساعات وأياماً بل ضيعوا أحقاباً وأجيالاً انتهزت فيها الشعوب الأوروبية كل دقيقة وثانية ، وسارت سيراً حثيثاً في كل ميدان من ميادين الحياة وقطعت في أعوام مسافة قرون .

ومما ينبغي عن مقدار خمول تركيا في ميدان العلوم والصناعات أن صناعة السفن لم تدخل في تركيا إلا في القرن السادس عشر المسمى ، ولم تدخل المطابع في العاصمة والمحاجر الصحية في هذه الدولة إلا في القرن الثامن عشر ، وكذلك مدارس الفنون الحربية على النسق الأوربي ، وفي آخر هذا القرن كانت تركيا بمعزل عن الصناعات والاكتشافات ، حتى لما شاهدوا بالونا يحاق فوق العاصمة ظلّوه من أعمال السحر والكيمياء . قد سبقتها دول أوربا الصغيرة في الأخذ بأسباب المدنية والرفاه العام ، وحتى سبقتها مصر في اتخاذ السكك الحديدية واستعمال القطارات بأربعة أعوام وفي استعمال طوايع البريد ببضعة أشهر .

تخلفهم في صناعة الحرب :

ولم يكن انحطاط المسلمين في العلوم النظرية والحكومية والمدنية فحسب ، بل كان هذا الانحطاط عاماً شاملاً ، حتى تخلفوا عن أوربا في صناعة الحرب التي كان التركي في الزمن الأخير ابن يجدتها وأبا عذرتها ، قد أقرّ بفضلهم وتبريزهم فيها العالم ، ولكن سبقتهم أوربا باختراعها وقوة إبداعها وحسن تنظيمها حتى هزمت جيوشها الجيوش العثمانية هزيمة منكرة (سنة ١٧٧٤ م) وظهر سبقها في ميدان القتال أيضاً فانتبهت

الدولة العثمانية بعض الانتباه وانتدبت الماهرين الأوربيين لتنظيم الجيش وتربية العساكر ، وعُني السلطان سليم الثالث في فجر القرن التاسع عشر بالإصلاح ، وكان عصامياً قد نشأ وتعلم خارج البلاط — خلافاً لسابقيه — وأنشأ مدارس جديدة وكان يُعلم بنفسه في مدرسة الهندسة ، وألف جيشاً على الطراز الحديث ، وأدخل تعديلات وتحسينات في النظام السياسي ، وقد بلغ الشعب حدّاً كبيراً من الجمود والمحافظة على القديم في كل شيء حتى ثار عليه الجيش القديم واغتاله ، وخلفه محمود الثاني الذي حكم من سنة ١٨٠٧ إلى ١٨٣٩ م ومن بعده عبد الحميد الأول (١٨٣٩ — ١٨٥١ م) خلفاً سليمان الثالث في مهمته وتقدمت تركيا بعض التقدم .

قارن هذا الشوط الذي قطعته تركيا الإسلامية في ميدان الرقي والتقدم ، بالأشواط التي قطعتها أوروبا في القرن الثامن عشر والناسع عشر تجدد الفرق هائلاً ، فلم يكن جريهما في الميدان إلا مسابقة بين سلحفاة وأرنب ، إلا أن الأرنب ساهر دائب في عمله ، والسلحفاة قد يغلبها النوم وتغفى إغفاءة .

الباب الرابع

العصر الأوربي

الفصل الأول

أوروبا المادية

طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها :

قبل أن ننظر ماذا حوّل القيادة من الأمم الإسلامية إلى الأمم الأوربية في عقلية العالم وأخلاق الشعوب والأمم والمدنية والاجتماع واتجاهات الإنسانية وميولها ، وماذا جنى منه النوع الإنساني ، وهل كان ربحه أكثر من خسارته ووزنه أوبالعكس ؟ . . يجب علينا أن نعرف طبيعة الحضارة الغربية ووضعها وروحها وفلسفة حياة هذه الأمم وكيف نشأت ؟

ليست الحضارة الغربية في القرن العشرين المسيحية وليدة هذه القرون المتأخرة التي تلت القرون المظلمة في أوروبا أو حديثة كما يتوهم كثير من الناس ، بل يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين ، فهي سليلة الحضارة اليونانية والحضارة الرومية قد خلفتهما في ترانيمهما السياسي والعقلي والمدني ، وورثت عنهما كل ما خلفتا من ممتلكات ونظام سياسي وفلسفة اجتماعية ، وتراث عقلي وعلمي ، وانطبعت فيها ميولها وزعانيمها وخصائصهما ، بل انحدرت إليها في الدم ، فقد كانت الحضارة اليونانية أول مظهر رائع — حفظه لنا التاريخ — للعقلية الأوربية ، وأول حضارة

— سجلها التاريخ — قامت على أساس الفلسفة الأوربية تجلت فيها النفسية الأوربية ، وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومية تحمل روحاً واحدة هي الروح الأوربية ، وظلت الشعوب الأوربية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها ورأية لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها ، حتى برزت بها في القرن التاسع عشر في ثوب برّاق يوهك بطلاوته وزهو ألوانه أنه جديد النسيج ، ولكن لحمته وسداه من نسيج اليونان والرومان .

إذاً يحسن بنا أن نتعرف بالحضارة اليونانية والرومية أولاً وأن نعرف طبيعتهما وروحهما ، حتى نكون على بصيرة في انتقاد الحضارة الغربية والحكم عليها في القرن العشرين . .

خصائص الحضارة الإغريقية :

اليونان أمة موهوبة ، من أنجب أمم العالم وأذكأها وأكثرها استعداداً للعلم والأدب ومن أخصبها أذهاناً وعقولا ، وقد مثلت في العالم دوراً خالداً بفلسفتها وأدبها ووفرة من نبغ فيها من العلماء والحكماء والعقبريين تزهو بآثارهم مكتبات العالم . والذي يعنيننا الآن هو أن نعرف طبيعة الحضارة التي أنشئوها ، فإذا نظرنا فيها نظرة تحليل وانتقاد وسرفنا النظر عما تشترك فيه مع الحضارات من مظاهر وظواهر وبحثنا عن طبيعتها وخصائصها وجدنا من المزايا التي تمتاز بها عن المدينيات الأخرى خصوصاً المدينيات الشرقية ما يلي :

- (١) الإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس (٢) قلة الدين والخشوع (٣) شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها (٤) النزعة الوطنية .

ويمكن أن نحصر هذه المظاهر المشتقة في كلمة مفردة وهي « المادية » فكانت الحضارة اليونانية شعارها « المادية » وهي التي ينمُّ بها كل ما يتصل باليونان من ثقافة وعلم وفلسفة وشعر ودين ، فلم يستطيعوا أن يتصوروا صفات الله وقدرته إلا في

شكل آلهة شتى نحتوا لها تماثيل وبنوا لها معابد وهياكل ، فللرزق إله وللرحمة إله وللقهر إله ، ثم نسبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادى ونسجوا حولها نسائج من أساطير وخرافات ، وصوَّروا المعانى المجردة وتصوَّروها فى أجسام وأشكال ؛ فلاحب إله وللجمال إله ، وليس نظام العقول العشرة والأفلاك التسعة فى فلسفة أرسطاطاليس إلا رتحة من رشحات هذه المادية التى لا تتخلى عنها الطبيعة اليونانية .

وقد سلم العلماء الأوربيون بغلبة المادية فى الحضارة اليونانية ونوهوا بها فى كتبهم وبحوثهم العلمية ، وقد ألقى العالم الألمانى الدكتور « هاس » (Haas) ثلاث محاضرات فى جنيف عنوانها « ماهى المدنية الأوربية ؟ » وهو من العلماء الذين يرون أن المدنية الغربية لم تتأثر بالشرق وأنها مدنية مفردة ممتازة ، ونلخص هنا كلامه فيما نحن بصدده :

« المدنية اليونانية هى مركز المدنية الغربية الحاضرة ، وكان الميهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءاً متناسباً ، وكان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المتناسب ، وليس هذا إلا اعتداداً بالحسوسات اعتداداً كبيراً ، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة البدنية والألعاب الرياضية والرقص وغيره ، وكان التثقيف الذهنى الذى يحتوى على الشعر والغناء والتمثيل والفلسفة وعلوم الطبيعة لا يتجاوز حدّاً خاصاً حتى لا يكون ارتقاء الذهن على حساب الجسم ، وكان الدين خلواً من الروحانية المعنوية لم يكن فيه علم الدين ولا طبقة رجال الدين . أما اللون الروحى الذى فى تقاليد « أرفس » وغيرها فإنما هو مستعار من الشرق ولا يصح أن ينسب إلى المدنية اليونانية » .

ولاحظ كثير من العلماء الأوربيين رقة الدين فى اليونان وقلة الخشوع والجد فى أعمالهم وكثرة اللهو والطرب فى حياتهم . يقول ليكى فى كتابه « تاريخ أخلاق أوربا » : إن الحركة اليونانية كانت عقلية وذهنية محضة ، وكانت الحركة المصرية بالعكس من الأولى ، روحية باطنية . وينقل « أبوليس » المؤلف الرومى قوله :

« إن المصريين كانوا يعظمون آلهتهم بالتضرع والبكاء ، وكان اليونانيون يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء » ويعلق عليه بقوله : « لاريب أن التاريخ اليونانى يصدق ذلك ويؤيده ، فلا نعلم ديناً من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليده فى كثرة الأفراح والأعياد والألعاب وفى قلة الخشية والخشوع ، فلم يكن اليونان يعظمون الله تعالى إلا كما يعظمون شيوخهم وعظماهم ، وكانوا يكتفون فى تعظيمه وتمجيده برسوم عادية وتقاليد جارية » .

وكان لليونان فلسفة إلهية وعقائد يستغرب معها الخشوع لله وعبادته والتضرع له والالتجاء إليه والأطراح على عتبته ، فإن من ينفى الصفات عن الله تعالى ويعظله وينفى عنه الاختيار والأفعال والخلق والأمر فى هذا السكون ، ويربط هذا العالم بما يسمونه « العقل الفعال وحركات الأفلاك » فإنه بطبيعة هذه العقيدة لا يقصد الله فى حياته العملية إلا تقليداً ، ولا يرجوه ولا يهابه ولا يحبه ولا يخرج لعظمته ، ولا يستغيث به فى شدته ولا يسبح بحمده ويعيش كأنه لا إله له ولا رب ، فإذا سمعنا أن اليونان لم يكونوا خاشعين لله وكانت عباداتهم وأعمالهم الدينية أجساداً بغير أرواح ، وأنهم كانوا يعظمون الله كما كانوا يعظمون شيوخهم وكبارهم لم نستغرب به البتة ، وإنما نتعجب إذا سمعنا عكس ذلك ، وقد أثرت شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والمبالغة فى قيمتها ، وكذلك الولوع بالتمائيل والصور والغناء والموسيقى التى يسميها اليونان الفنون الجميلة ، ولهج الأدياء والمؤلفين بالحرية الشخصية التى لا تعرف قيوداً ولا تقف عند حد تأثيراً سلباً فى أخلاق اليونان ومجتمعها ، فانتشرت القوضى فى الأخلاق وحدثت ثورة على كل نظام ، وأصبح شعار الرجل الجمهورى (وهو كناية عن الحر والمتنور) الجرى وراء الشهوات العاجلة وانتهاب المسرات والتهام الحياة التهام الجائع النهم ، يصف سقراط — كما ينقل عنه أفلاطون فى كتابه « المملكة » — الرجل الجمهورى فكأنما يصف ناقد من نقاد هذا القرن ففى القرن العشرين فى إحدى عواصم المدنية الغربية .

« إذا قيل له إن بعض المسرات من الرغبات التي هي طيبة وتستحق الاحترام وبعضها من الشهوات التي هي قبيحة وإن الأولى ينبغي أن يُعمل بمقتضاها وتحترم، والأخرى مما ينبغي أن يمنع عنها ويقام عليها الحجر، لم يقبل هذا الرجل هذا القانون الصحيح ولا يسمح بسماعه، فإذا عرضت عليه هذه الحقائق أنقض إليك رأسه مستهزئاً وأكد لك أن جميع الشهوات سواء وتستحق الاحترام بغير فرق بينها، وهكذا يعيش ويقضى أيامه مُرضياً شهواته التي تعتبره أحياناً، ذات يوم تراه سكران ثملاً مصغياً إلى الغناء، وفي يوم آخر تراه صائماً يجتريء بالماء، وتارة يدخل في التربة والتمرين، وأخرى تراه كسلان عاطلاً يهمل كل شيء، ومرة تراه يعيش عيش فيلسوف، وأحياناً يدخل في السياسة وينهض ويخطب بمقتضى الوقت، ربما يمدح بعض رجال الحرب والجنديّة ويميل إليهم أو يشرع في التجارة لأنه يغبط التاجر الراجح، ليس لحياته نظام ولا ضبط ولكنه يعد هذه الحياة هنيئة ناعمة سارة ويواصلها إلى النهاية » .

أما الوطنية فهي من لوازم الطبيعة الأوربية، وهي أظهر وأقوى في أوربا منها في آسيا، وقد أغرى بذلك الطبيعة الجغرافية وأوحته، لأن المناطق الطبيعية في آسيا واسعة جداً وتشتمل على مناخات وعلى أجيال وأنواع كثيرة للبشر، وهي غنية مخصبة في وسائل المعيشة؛ فالمملكة في القارة الآسيوية تنجح بحكم الطبيعة إلى السعة والعموم، وظهرت في أرضها وازدهرت أوسع ممالك عرفها التاريخ. أما في أوربا فالتنازع على البقاء فيها شديد، والكفاح للحياة دائم مستمر، لتزاحم العمران وضيق المناطق وقلة وسائل المعيشة، وقد حصرت الجبال والأنهار الاجناس الأوربية في نطاق ضيق طبعي دائم وبالأخص الجزء الأوسط الغربي والجزء الجنوبي من أوربا، لا يسمح للمالك واسعة عظيمة، وقد شاعت طبيعة هذه القارة أن تكون منشأ لممالك ضيقة صغيرة؛ لذلك كان التصور السيامي في أوربا في القديم لا يكاد يجاوز ممالك بلدية لا تزيد منطقتها على أميال مستقلة استقلالاً تاماً؛ وأكبر مظهر لهذا

التصوير أرض يونان حيث وجدت من فجر التاريخ عشرات من مدن صغيرة مستقلة .

فلا عجب إذا كان اليونان يدينون بالوطنية وينتحلوها ، وقد سلم ليكي أن الفكرة الوطنية هي الفكرة السائدة في اليونان ، وكانت الفكرة العالمية التي قد نطق بها بعض حكماءهم كسقراط وانكساغورس شاذة لم تنل أنصاراً وانتصاراً في يونان ، فكان نظام أرسطاطاليس الأخلاقي مبنياً على التمييز بين اليوناني وغير اليوناني ، وكان حب الوطن يتقدم فضائل الأخلاق التي أجمع عليها حكماء اليونان ، وأن أرسطاطاليس لم يكتف بحب وطنه والولاء له فحسب ، بل قال إن اليونانيين ينبغي لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهايم ؛ وقد راجت هذه الفكرة الوطنية الضيقة في الأوساط اليونانية وتغلغلت في الأحشاء ، حتى لما قال فيلسوف إنه لا يخص مواطنيه بمواساته بل سيكون برّه عاما لجميع اليونانيين استشرفه الناس عجباً ونظروا إليه شزراً .

خصائص الحضارة الرومية :

خلفَ اليونانَ الرومُ وفاقوهم في القوة والتنظيم للمملكة واتساع الدولة وصفات الجندية ، ولكن لم يلحقوا بهم بعد في العلم والفلسفة والآداب والشعر والتهذيب واللباقة والمدنية التي كان للإغريق فيها فضل وتقدم على جميع الأمم المعاصرة وعلى الروم أيضاً الذين كانوا لا يزالون في دورهم العسكري ، فضعوا لهم علمياً وتطفلوا على عائدتهم واقتبسوا من علومهم وفلسفتهم وأفكارهم . يقول ليكي : « إن اليونان كانت لهم ثروة علمية ضخمة أنتجوها وزادوا فيها على مر القرون والعصور ، وكانت رومة لا تزال في طورها الجندى لا تملك أثراً من الآثار الأدبية ، بل كانت لغتها قاصرة في التعبير عن الأفكار والمعاني العالية ، فعُلبَ الروم بتخلفهم وقصورهم في العلم ، وانقلبوا صاغرين للمدنية اليونانية التي غلبَ أهلها في السياسة ، ولم يزالوا مأخوذِينَ بسحرهم في كل قسم من أقسام العلم ، فكان المؤرخون الأقدمون في الروم يؤلفون

كتبهم اليونانية ، واستمرت اليونانية لغة التأليف والعلم بعد ما بدأ شعراء الروم ينظمون الشعر في اللاتينية » ولم يكن هذا الخضوع خاصاً في عالم التأليف والأدب فحسب ، بل غلبت المدنية الإغريقية المدنية الرومية في الأخلاق والسجايا والعشرة والاجتماع وفي العواطف والنزعات ، وفي كل ناحية من نواحي الحياة العامة ، وأصبح الروم يقلدون الإغريق ويتنبلون بذلك ويتظرفون .

وهكذا انتقلت الفلسفة اليونانية والثقافة اليونانية ، بل النفسية اليونانية إلى الروم ، وجرت منهم مجرى الروح والدم ، ولم يكن الروم — بطبيعتهم الأوربية — يختلفون عن اليونان في الخصائص الفطرية كثيراً ، بل هنالك شبهة عظيمة بين الأمتين ، إيمان بالحسوس وغلو في تقدير الحياة وشك في دين ، وضعف في يقين ، واضطراب في العقيدة ، واستخفاف بالنظام الديني وطقوسه ، واعتزاز بالقومية وتعصب لها ، وحب مفرط للوطن ، زد إلى ذلك كله اعتداداً بالقوة واحتراماً زائداً لها يبلغ العبادة والتقديس .

يظهر من التاريخ أنه لم يكن للرومان إيمان راسخ في دينهم ، وإني لأعذرهم في ذلك ، فإن النظام الديني الوثني الخرافي الذي كان سائداً في رومية يقتضي بطبيعته الشك والاضطراب وضعف الإيمان ، فكما تقدموا في العلم وتنورت أفكارهم ، ازدادوا استخفافاً به ، وقد قضوا من أول يوم أن الآلهة لادخل لهم في السياسة وأمور الدنيا ، يقول سيسرو Cicero : لما كان الممثلون ينشدون في دور التمثيل أبياتاً معناها أن الآلهة لادخل لهم في أمور الدنيا يصفى إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة . ويقول الراهب أغستين Auguostine :

« إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزأون بهم في دور التمثيل » وقد فقد الدين الرومي سلطانه الروحي على معتقيه ، وبردت العاطفة الدينية في قلوب الناس حتى تجرأ الناس على الآلهة وأهانوها في بعض الأحيان ، فإن التاريخ يحدثننا أنه لما غرق أسطول للإمبراطور أغسطس Augustus استشاط غضباً ، وحطم تمثال

نبتون Neptune إله البحر ، ولما مات جرمينيكس Germanicus رجم الناس أنصاب الآلهة (التي كانوا يذبحون عليها)^(١) .

فلم يكن للدين تأثير في أخلاق الأمة وسياستها ومجتمعها ، ولم يكن يملك عليهم شعورهم وميولهم ويراقب عليهم أخلاقهم ونزعاتهم ، ولم يكن ديناً عميقاً يحكم على الروح وينبعث من أعماق القلب ، بل كان تقليداً من التقاليد ، كانت السياسة تقتضى البقاء عليه ولو بالاسم والرسم . يقول ليكي : « إن الدين الرومى كان أساسه على الأثرة ، ولم يكن يرمى إلا إلى رفاهة الأفراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب ، والشاهد على ذلك أنه ظهر في رومة مئات من الأبطال والعظماء ولكن لم ينهض فيها زاهد في الدنيا عزوف عن ملذات الحياة ، ولا تسمع مثالا في تاريخ الروم للتضحية والإيثار إلا وتجده لا تأثير فيه للدين ولكن مبنياً على الوطنية »^(٢) .

والظاهرة التي يمتاز بها الروم من بين أمم الأرض المعاصرة بل بعدها ، والتي أصبحت لها ديناً تدين به وشعاراً تعرف به هي روح الاستعمار والنظر المادى البحت إلى الحياة ، وذلك ما ورثته أوروبا المعاصرة عن سلفها الروميين وخلقتهم فيه ، وقد أجاد وصفه العالم الألماني المسلم الأستاذ محمد أسد في كتابه النفيس « الإسلام على مفترق الطرق » . قال :

« إن الفكرة التي كانت تسيطر على الإمبراطورية الرومانية هي احتكار القوة لها واستغلال الأمم الأخرى لمصلحة الوطن الرومى فقط ، ولم يكن رجالها والقائمون عليها يتحاشون من أى ظلم وقسوة في سبيل حصول خفض العيش لطبقة ممتازة ، أما ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن إلا للروم فقط ، إن هذه السيرة لا يمكن أن تقوم إلا على إدراك مادى محض للحياة والحضارة ، وإن كانت ماديتهم قد هذبت بذوق عقلى ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحية ، إن الروم لم يدينوا بالدين جدياً

(١) تاريخ أخلاق أوروبا «Th spagan empire» History of Europeon morals

(٢) المصدر نفسه .

أبداً ، كانت آلهتهم التقليدية محاكاة شاحبة لأساطير الإغريق وخرافاتهم ، وقد آمنوا بهذه الأرواح محافظة على الرابطة الاجتماعية التي كانت تربطهم وتوحدهم ، فلم يكونوا يسمحون لهذه الآلهة بالتدخل في حياتهم العملية ، كان لها أن تتكهن بالغيب — إذا سئلت عن ذلك — على لسان الكهان ، ولكن لم يحلوا لها أبداً أن تفترض شرائع أخلاقية على الناس ^(١) .

الانحطاط الخلفى فى الجمهورية الرومية :

وفى نهاية دور الجمهورية سال بالروم سيل الانحطاط الخلقى والبهيمية ، وفاض بحر الترف فى العيش والبذخ فيضانا عظيما — غاص الروم فيه إلى القاع وسالت فيه النظم الأخلاقية التى كان الروم معروفين بها كالغشاء ، وتزعزع البناء الاجتماعى حتى كاد ينهدم ، وقد صورته « درابر » الأمريكى بقلمه البليغ :

« لما بلغت الدولة الرومية فى القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت فى فساد الأخلاق وفى الانحطاط فى الدين والتهايب إلى أسفل الدرجات . بصر الرومان معيشتهم وأخذوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ومن لذة إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان إلا ليعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهر بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام فى ملابس جميلة خلاصة وغادات رومية حسناء وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالة ، ويزيد فى نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى ينخر الواحد منهم صريعاً يتشظى فى دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هنالك شئ يستحق العبادة فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التى

يجمعها أصحابها بعرق الحبين وكذب اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأموال ويعين إيرادات الإقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام رومة المدنى يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذى نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها .

تنصر الروم :

وها هنا حادثة عظيمة يجب أن يسجلها المؤرخ وينوه بها ، وهى اعتلاء النصرانية عرش رومة الوثنية ، وكان ذلك بجلوس قسطنطين الذى اعتنق النصرانية على سرير الأباطرة سنة ٣٠٥ م فانتصرت فيه النصرانية على الوثنية ونالت نجاة مالم تكن تحلم به من ملك عريض ودولة مترامية الأطراف وكلمة لا تعلوها كلمة . ولما كان قسطنطين إنما توصل إلى الملك على جسر من أشلاء النصارى وأنهار من دماهم التى أريقَت في الذب عنه والنصر له ، عرف لهم الجليل وبذل لهم وجهه ، ووطأ لهم أكنافه وقدم مفاتيح ملكه .

خسارة النصرانية في دولتها :

ولكن انتصر النصارى في ساحة القتال وانهزموا في معترك الأديان ، ربحوا ملكاً عظيماً وخسروا ديناً جليلاً ، لأن الوثنية الرومية مسخت دين المسيح ومسحه أهله ، وكان أكثر مسخاً له وتحريفاً هو قسطنطين الكبير حامى دمار النصرانية ورافع لوائها . يقول « درابر » :

« دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المناققين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهريهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره (٣٣٧ م) .

إن الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولّت قسطنطين الملك ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها ، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تنجلي فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء — هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية ، إذ قضى الإسلام على منافسه (الوثنية) قضاءً باتاً ، ونشر عقائده خالصة بغير غش .

وإن هذا الامبراطور الذي كان عبداً للدنيا والذي لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئاً رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين — النصراني والوثني — أن يوحدهما ويؤلف بينهما ، حتى إن النصراني الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة ، ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طُمست ولُغّحت بالعقائد الوثنية القديمة ، وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها .

الرهبانة العاتية :

فلم تستطع هذه النصرانية الملقحة بالوثنية المشوهة التي قد فقدت روحها وجمالها أن تغير من سيرة الروم المنحطة وأن تبعث فيهم حياة جديدة ، حياة دينية نقية طاهرة وأن تفتح عهداً زاهراً في تاريخ الروم ، بل إنها ابتدعت رهبانية لعلها كانت شراً على الإنسانية والمدنية من بهيمية رومة الوثنية ، وقد جنّ جنون هذه الرهبانية في العالم النصراني وتخطى حدود القياس ، وإنا نلتقط أمثلة من كتاب تاريخ أخلاق أوربا وهو قليل من كثير جداً :

« زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس ، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة ، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبان ، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على

خمسة آلاف راهب وكان الراهب « سرايين » يرأس عشرة آلاف ، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر .

عجائب الرهبان :

ظل تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في الدين والأخلاق إلى قرنين ، وروى المؤرخون من ذلك عجائب ، فحدثوا عن الراهب ماكارىوس (Macarius) أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العاري ذباب سام ، وكان يحمل دائماً نحو قنطار من حديد ، وكان صاحبه الراهب يوسيبس (Eusebius) يحمل نحو قنطارين من حديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نرح ، وقد عبّد الراهب يوحنا (St. Jhon) ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة ، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة ، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ، ويأكل كثير منهم الكلاً والحشيش ، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس ، يقول الراهب اتيهينس إن الراهب انتونى لم يقترب إنم غسل الرجلين طول عمره ، وكان الراهب ابراهيم لم يغس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة ، وقد قال الراهب الإسكندرى بعد زمن متلفاً : وأسفاه ! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً فإذا بنا الآن ندخل الحمامات ، وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهربونهم إلى الصحراء والأديار ، وينزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً ، والجمهور والدعاة يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم ، وعُرف كبار من الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب ، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب

أمبروز (Ambrose) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئاً وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس^(١).

تأثير الرهبانية في أخلاق الأوروبيين :

كان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال الفتوة والمروءة التي كانت تعد فضائل ، عادت فاستحالت عيوباً ورذائل ، وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح والصرامة والسماحة والشجاعة والجرأة وهجروها ، وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المنزلية ، وعمّ السكنود والقسوة على الأقارب ، فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حناناً ورحمة ، وعيونهم من الدمع ، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد ، فيخلفون الأمهات ثكالى والأزواج أياحى والأولاد يتامى ، عالة يتكففون الناس ، ويتوجهون قاصدين الصحراء ، همهم الوحيد أن ينفذوا أنفسهم في الآخرة لا يبالون ماتوا أو عاشوا ، وحكى ليكى من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب^(٢).

وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادقهن في الطريق والتحدث إليهن ولو كن أمهات وأزواجا أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية ، وروى « ليكى » من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً^(٣).

عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجاهلة :

ولا يتوهم أحد أن هذه الرهبانية الغالية قد عدلت من شيرة المادية الرومية ، وكبحت من جماحها وغلواتها في البهيمية والشهوات ، فإن هذا لم يكن ولا يكون في الغالب وتآباه الفطرة الإنسانية ويكذبه التاريخ ؛ فإن الذى يوجد الاعتدال ويخفف

(١) اقرأ تاريخ أخلاق أوروبا « ليكى » History of European Morals, by Lecky Chapter IV.

(٢) History of European Morals. Part II Chapter IV "from (٣٠٢) Constantine to Charlemagn.

من المادية الجامحة ويجعل منها حياة معتدلة هو النظام الروحي الديني الخلاق الحكيم الذي يوافق الفطرة الإنسانية الصحيحة والذي لا يتصدى لأن يزيل الفطرة الإنسانية ، بل يوجهها توجيهاً نافعاً ، فإنها لا تزول ولكن تميل من شر إلى خير ؛ وهكذا فعل الإسلام ، وهكذا فعل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد صرف شجاعة العرب من المنافسات القبلية والتقاتل وأخذ الثأر والأحقاد القديمة إلى الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله ، وصرف تبذيرهم وسماحتهم إلى الإنفاق في سبيل الله ، وشغلهم عن الجاهلية بالدين الإسلامي ، وأبدل الشيء بالشيء ، وأعطى النفس حقها من النشاط والترويح ، فإن النفوس كما قال عالم من علماء المسلمين لا تترك شيئاً إلا بشئ* ، وإن النفوس قد خُلِقَتْ لتعمل لا لتترك^(١) . وإن الأنبياء قد بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها وتغييرها^(٢) . قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال : ما هذان اليومان ؟ قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما ، يوم الأضحى ويوم الفطر^(٣) وعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعث قالت وليستا بتغنيتين ، فقال أبو بكر : أبحر من الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وذلك يوم عيد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا . وفي رواية أنه قال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد^(٤)

أما النصرانية الرومية فقد حاولت عبثاً تغيير الفطرة وإزالتها وجاءت بنظام لا تطيقه الفطرة الإنسانية ولا تسيفه ، وحملت النفوس ما لا طاقة لها به فرغبت فيه

(١) من كلام شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية م ٧٣٧ في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ١٤٣ .

(٢) ابن تيمية في كتابه النبوءات .

(٣) رواه أبو داود بإسناده عن أنس وأحمد والنسائي .

(٤) حديث متفق عليه .

كرد فعل ضد المادية الطاغية واحتملته كارهة ، ثم تخلصت منه وثار عليه ولم تقدر النصرانية بإسرافها في الرهبانية والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوائدهم ، وتمسك بضبع المدنية الساقطة إلى الهاوية وتمنعها من التردى ، فكانت حركة الفجور والإباحة وحركة الغلو في الزهد والرهبانية تسيران في البلاد النصرانية جنباً إلى جنب . بل الأصح أن الرهبانية كانت معتزلة في الصحارى والخلوات لا سلطان لها على الحياة ، وحركة الخلاعة والإباحة كانت زاخرة طامة في المدن والحوضر .

بين الرهبانية العاتية والمادية الجاحدة :

يصور « ليكي » ما كان عليه العالم النصراني في ذلك العصر من التآرجح بين الرهبانية والفجور :

« إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما في أخلاق الناس واجتماعهم ، وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف والنساقط على الشهوات والتلق في مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء والمسابقة في زخارف اللباس والحلى والزينة في حديثها وشدهتها ، كانت الدنيا في ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى وإن المدن التي ظهر فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته . وقد ضعف رأى الجمهور حتى أصبح الناس لا يحتفلون بسوء الأحداث والنضيحة بين الناس ، وكان الضمير الإنساني ربما يخاف الدين ووعيده ولكنه أمن واطمأن ، لا اعتقاده أن الأدعية وغيرها تُكفر عن جميع أعمال الإنسان ، لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب حتى فاق هذا العصر في ذلك عصر القياصرة ، ولكن الظلم والاعتداء والقسوة والخلاعة كانت تؤدي إلى انحطاط في حرية الفكر والحماسة القومية^(١) .

الفساد في المراكز الدينية:

ولم تسكن الرهبانية والنظام الديني الساسي إلا مصادمة للفطرة ، فبقيت مقهورة بعوامل الديانة الجديدة وسلطانها الروحي وساعدتها عوامل أخرى ، ثم قهرت الطبيعة وتسرب الضعف والانحراف في المراكز الدينية حتى صارت تزامم المراكز الدينية وربما تسبقها في فساد الأخلاق والدعارة والفجور ، لذلك وقفت الحكومة المسآب الدينية التي كانت ترمى إلى عقد الألفة والأخوة بين المسيحيين ، وأعياد الشهداء والأولياء وذكرياتهم التي وجدت فيها الخلاعة والفجور حتى ومرتعاً ، وأتهم القسوس بكبائر ومنكرات . ويقول الراهب جروم (Jarum) إن عيش القسوس وغميهم كان يزرى بترف الأمراء والأغنياء المترفين ، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً واستحوذ عليهم الجشع وحب المال وعدوا طورهم ، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع ، وقد تباع بالمزاد العلني ، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ويأذنون بنقض القانون ، ويمنحون شهادات النجاة وإجازات حلّ المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد ، ويرتشون ويرابون ، وقد بذروا المال تبذيراً حتى اضطر البابا انوسنت الثامن أن يرهن تاج البابوية . ويذكر عن البابا ليو العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال وأنفق نصيبه ودخله وأخذ إيراد خليفته المترقب سلفاً وأنفقه ، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم^(١) .

تنافس البابوية والإمبراطورية

وبدأ النزاع والمنافسة بين البابوية والإمبراطورية في القرن الحادي عشر فاشتدت بعنف وحمى وطليسيا ، وانتصرت فيها البابوية أولاً حتى إن هنري الرابع ممثل الإمبراطورية اضطر سنة ١٠٧٧م أن يتقدم بخضوع نحو البلاط البابوي في قلعة

كانوسا ولم يسمح له البابا بالدخول إلا بعد أن شفع له الرجال ، فسمح له بالمشول بين يديه ، فدخل الإمبراطور صاغراً خافياً لابساً الصوف وتاب على يديه ، فغفر له البابا زلته . وكانت الحرب بين البابوية والإمبراطورية بعد ذلك سجلاً حتى ضعفت البابوية ، وبقي الناس هذه المدة الطويلة يقنازهم عاملان ديني ودنيوي وبقوا يرزحون تحت نيرين إمبراطوري و بابوي .

وكان الباباوات يتمتعون في هذه العصور الوسطى بنفوذ واسع وسلطان عظيم لم يكن للملوك والأباطرة ، وكان يمكن لهم أن يتقدموا بأوربا تقدماً صحيحاً في العلم والمدنية تحت ظل الدين لأن نوابهم وممثليهم كانوا يتجولون في البلدان الأوربية وينزلون من أهلها في جناب مربع وظل ظليل ، ويتفاهمون معهم بلغة واحدة ويتدخلون في أمور سياسية مهمة ، ووجدوا في كل بقعة أنصاراً لهم من ذوى الرأي والسياسة يتكلمون بلغة واحدة ويساعدونهم في مهمات الدولة .

سفراء أوربا برجال الدين :

ولسكن رجال الدين من سوء حظ النصرانية ومن سوء حظ الأمم التي دانت بها أساءوا استعمال هذا السلطان الهائل ، فاستغلوه لأنفسهم ونفوذهم وجاههم ، وبقيت أوربا تنسكع في دياجير الجهل والخرافة والانحطاط ، وأصبحت المدنية بحكمهم ورهبانيتهم في صميمها ، فلم يتضاعف عدد سكان القارة الأوربية في ألف سنة ، ولم يتضاعف عدد سكان انكلترا في خمسمائة سنة . ولا شك أن من أسبابها حياة العزوبة التي كان القسوس والرهبان يزنبونها للناس ويرغبون فيها ، ولم يشأ السكهان والأساقفة أن يساهم الأطباء في مرافقهم وغلاتهم فانتشرت الأوبئة والأمراض في طول القارة وعرضها وتعرف من رحلة أنبليس سلوئيس الذي اشتهر بعد بلقب (Puis the Second) التي قام بها في الجزائر البريطانية حول سنة ١٤٣٠ م ما كانت عليه هذه الجزائر من بؤس وانحطاط في المدنية وفقير مدقع .

جناية رجال الدين على الكتب الدينية :

ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين في أوروبا ومن أكبر جنایاتهم على أنفسهم وعلى الدين الذى كانوا يمثلونه أنهم دسوا فى كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلّمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم فى ذلك العصر ، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر ، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنسانى ، وإذا كان ذلك فى عصر من العصور غاية ما وصل إليه علم البشر فإنه لا يؤمن على التحول والتعارض فإن العلم الإنسانى متدرّج مترق ، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصرا على كتيب مهيل من الرمل . ولعلهم فعلوا ذلك بنية حسنة ولكنه كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين ، فإن ذلك كان سببا للكفاح المشثوم بين الدين والعقل والعلم انهزم فيه الدين ، ذلك الدين المختلط بعلم البشر الذى فيه الحق والباطل والخالص والزائف هزيمة منكرة ، وسقط رجال الدين سقوطا لم ينهضوا بعده ، وشر من ذلك كله وأشأم أن أوروبا أصبحت لا دينية .

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه فى كتبهم المقدسة ، بل قد دسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية ، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التى يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها ، وألفوا فى ذلك كتباً وتآليف ، وسموا هذه الجغرافية التى ما أنزل الله بها من سلطان ، الجغرافية المسيحية (Christian Topography) وعضوا عليها بالنواجذ وكفّروا كل من لم يدين بها .

مضطهد الكنيس للعلم :

وكان ذلك فى عصر انفجر فيه بركان العقلية فى أوروبا ، وحطّم علماء الطبيعة

والعلوم سلاسل التقليد الديني فزَيَّفوا هذه النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب ، وانتقدوها في صرامة وصراحة ، واعتذروا عن عدم اعتقادها والإيمان بها بالغيب ، واعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم ، فقامت قيامة الكنيسة ، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوروبا وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم في سبيل الدين المسيحي ، أنشأوا محاكم التفتيش التي تعاقبُ — كما يقول البابا — أولئك الملحدون والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن وفي البيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول ، فجذت واجتهدت وسهرت على عملها ، واجتهدت أن لا تدع في العالم النصراني عرقاً نابضاً ضد الكنيسة ، وانبثَّ عيونها في طول البلاد وعرضها ، وأحصت على الناس الأنفاس ، وناقشت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصراني : « لا يمكن لرجل أن يكون مسيحياً ويموت حتف أنفه » ويقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلثمائة ألف ، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء كان منهم العالم الطبيعي المعروف برونو ، نعت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم ، وحكمت عليه بالقتل ، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه ، وكان ذلك يعني أن يحرق حياً ، وكذلك كان .

وهكذا عوقب العالم الطبيعي الشهير غيليو (Galileo) بالقتل لأنه كات يعتقد بدوران الأرض حول الشمس .

ثورة رجال التجديد :

هنالك ثار المجدودون المتنورون وعيل صبرهم ، وأصبحوا حرباً لرجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم ، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب ، وعادوا الدين المسيحي أولاً والدين المطلق ثانياً ، واستحالت الحرب بين زعماء العلم والعقلية ، وزعماء الدين المسيحي ، — وبلغت أوج الديانة البوليسية — حرباً بين العلم والدين مطلقاً ، وقرَّر الثائرون أن العلم والدين ضرطان لا تتصالحان ، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان ،

فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثاني ، وإذا ذكروا الدين ذكروا تلك الدماء الزكية التي أريقَت في سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية لفسوة القساوسة ووساوسهم ، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة ؛ وجباه مقطّبة ، وعيون ترمى بالشرر ، وصدور ضيقة حرجة ، وعقول سخيصة بليدة ، فاشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية في أعقابهم .

تفسير الثَّابِرِينَ وعدم تنبئهم :

ولم يكن عند هؤلاء الثَّابِرِينَ من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير ، ومن الوداعة والهدوء ، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتسرين لزعامته ويفرقون بين ما يرجع إلى الدين من عهدة ومسئولية ، وما يرجع إلى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل ، فلا ينبذوا الدين نبذ النواة ، ولكن الحفيظة وشنآن رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر في أمر الدين والتريث في شأنه كغالب الثَّوار في أكثر الأعصار والأمصا .

ولم يكن عندهم من صدق الطلب والنصيحة لأنفسهم وأمتهم وسعة الصدر ما يحملهم على النظر في الدين الإسلامي الذي كان يدين به أم معاصرة لهم ، الدين الذي يخلصهم من هذه الأزمة و « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » . ولكن حمية الجاهلية والسدود التي أقامتها الحرب الصليبية بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي ودعاية الكهنة ورجال الكنيسة ضد الإسلام وصاحب رسالته عليه الصلاة والسلام ، وعدم تجشم التعب والمطالعة ، وقلة الحرص على النجاة الأخروية ، والاهتمام بما بعد الموت ، زد إلى ذلك تفریط المسلمين في التبشير الإسلامي ، ونشر الإسلام في أوربا ، كل ذلك منعهم من الرجوع إلى الدين

الإسلامي والأخذ به في ساعة كانوا يحتاجون إليه حاجة السليم إلى راق والمسموم إلى ترياق .

اتجاه الغرب إلى المادية :

وعلى كل فقد وقع المخذور وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها ، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر نفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم ، وكان ذلك تدريجياً ، وكان أولاً ببطء وعلى مهل ، ولكن بقوة وعزيمة ، فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون في السكون نظراً مؤسساً على أنه لا خالق ولا مدبر ولا أمر ، وليس هنالك قوة وراء الطبيعة والمادة تتصرف في هذا العالم وتحكم عليه وتدبر شئونه ، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعي ، ويعلمون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكي بحث ، وسموا هذا نظراً علمياً مجرداً ، وسموا كل بحث وفكر يعتقد بوجود إله ويؤمن به طريقاً تقليدياً لا يقوم عندهم على أساس العلم والحكمة ، واستهزأوا به واتخذوه سخرياً ، ثم انتهى بهم طريقهم الذي اختاروه وبحسبهم ونظرهم إلى أنهم جعلوا كل شيء وراء الحركة والمادة ، وأبوا الإيمان بكل ما لا يأتي تحت الحس والاختبار ، ولا يدخل تحت الوزن والعد والمساحة ، فأصبح بحكم الطبيعة ، وبطريق اللزوم الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة من قبيل المفروضات التي لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم .

إنهم لم يجهلوا بالله إلى زمن طويل ، ولم يكشفوا الدين العدا ، ولم يجهلوا به كلهم ، ولكن منهج التفكير الذي اختاروه ، والموقف الذي اتخذوه في البحث والنظر لم يكن ليتفق والدين الذي يقوم على الإيمان بالغيب وأساسه الوحي والنبوة ودعوته ولهجه بالحياة الأخروية ، ولا شيء من ذلك يدخل تحت الحس والاختبار ويصدق الوزن والعد والمساحة ، فلم يزالوا يزدادون كل يوم شكاً في العقائد الدينية .

افتتاح المادة في الدور الأخير

ولكن رجال النهضة الأوربية ظلوا قرونًا يجمعون بين النظر المادى الجاحد والحياة المادية ، والطقوس الدينية المسيحية ، بالتقليد أو بتأثير المحيط الذى لا يزال فى العالم النصرانى ، أو بمصالح خلقية واجتماعية كانت تقتضى البقاء ولو بالاسم على نظام دينى يؤلف بين أفراد الأمة ويحفظها من الفوضى ، حتى افتضحوا فى الأخير وصعب الجمع بينهما بسرعة سير الحضارة المادية ، وتخلف الدين والتقاليد وعجزها عن مسايرتها وما فى الجمع بينهما من متاعب وضياح للوقت وتكلفتهم فى غنى عنه ، فطرحوا الحشمة ورموا برقع النفاق .

جنود المادية ودعاتها

ونهب الكتاب والمؤلفون والأدباء والمعلمون والاجتماعيون والسياسيون فى كل ناحية من نواحي أوربا ينفخون صور المادية ، وينفثون بأفلامهم سمومها فى عقل الجمهور وقلبه ، ويفسرون الأخلاق تفسيراً مادياً ، تارة ينشرون الفلسفة النفعية ، وطوراً فلسفة اللذة الأبيقورية .

والسياسيون أمثال (ميكائيلى الفلارنساوى ١٤٧٩ م — ١٥٢٧ م) دعوا من قبل إلى فصل الدين عن السياسة وتقسيم الأخلاق إلى شخصية واجتماعية ، وقرروا أن الدين — إذا كان لا بد منه — قضية شخصية لا ينبغى أن تتدخل فى أمور السياسة والدولة ، وأن الدولة عندهم أعز وأهم من كل شئ . وأن النصرانية إنما موضوعها الحياة الأخروية ، وأن المتدينين والصالحين لا يفيد وجودهم الدولة وإن كان يفيد الكنيسة ، لأنهم يتقيدون بأحكام الدين ، ولأنهم لا يستطيعون أن يحيدوا عن أحكام الدين ومبادئ الأخلاق إذا اقتضت المصلحة غير ذلك ، وأن الملوك والأمراء يجب عليهم أن يتخلقوا بأخلاق الثعالب ، ولا يحتمسوا من نقض العهود والكذب والخيانة والغش والنفاق إذا كان فى ذلك أدنى مصلحة للدولة

إلى غير ذلك ، ونجحت هذه الدعوة وساعدتها عوامل كثيرة من الوطنية والقومية التي خلفت الديانة القديمة .

وأحدث الأدباء والمؤلفون وأصحاب البراعة والقريحة والذكاء ، خصوصاً في ثورة فرنسا وبعدها ، الثورة على الأخلاق القديمة ، والنظم الاجتماعية ، وزينوا للناس الإنم ، ونشروا دعوة الإباحة ، وإطلاق الطباع من كل قيد والفرد من كل مسئولية ، ودعوا إلى التهام الحياة البهيمية ، وإرضاء الشهوات ، وانتهاك المسرات ، واستعجال الطبيبات ، وغلوا وأسرفوا في تقدير قيمة هذه الحياة وجحدوا كل شيء سوى اللذة العاجلة والنفع المادي الظاهر الحسوس .

نسخة صادقة من الحضارة اليونانية :

فأصبحت الحياة في أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين نسخة صادقة من الحياة في يونان وروما الوثنيتين الجاهليتين ، وعادت الطبيعة الأوربية (التي كانت النصرانية الشرقية قد قهرتها) جذعة .

ولا غرابة في ذلك ، فالأوروبيون اليوم ، إنما ينحدرون من أولئك اليونان والرومان والسلاسل الأوربية الأخرى ، ترى ديناً خلواً من الروحانية — كما لاحظ الدكتور « هاس » في ذكر الحضارة اليونانية — وترى رقة الدين وقلة الخشوع والجد في أعماله ، وكثرة اللهو والطرب في الحياة ، كما ذكر « ليكي » عن الديانة اليونانية ، وهونتيبة الوضع الديني الذي وصلت إليه أوروبا ، فإنه لا يتفق والخشوع لله والجد في عبادته ، ونتيجة تلك النظريات والغايات التي وصل إليها علماء الطبيعة والحكمة في أوروبا وأعلنوها وتلقاها الجمهور بالقبول وحلت محل الدين .

وترى كذلك تهافتاً على ملذات الحياة تهافت الظمآن على الماء والفراش على النار ، والحرص على اقتطاف جنى الحياة وثمارها باليدين ، كما وصف به سقراط الرجل الجمهوري اليوناني في عصره .

وكذلك ترى شكاً في الدين واضطراباً في العقيدة ، واستخفافاً بالنظام الدينى
وطفوسه وتقاليده ، كما رأيت في روما بعد التنوير .

وبأنه أوروبا اليوم المادية لا النصرانية :

فما لاشك فيه أن دين أوروبا اليوم الذى يملك عليها القلب والمشاعر ويحكم على
الروح هو المادية لا النصرانية ، كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الأوروبية وانصل
بالأوربيين عن كذب لا عن كتب ، بل وعن كتب أيضاً — ولم ينفذع بالمظاهر
الدينية التى تزيد في أبهة الدولة والتى يجد فيها الشعب ترويحاً للنفس وتنوعاً ، ولم
ينفذع بزيارتهم للكنائس وحضورهم في تقاليدها .

وقد بين ذلك في وضوح وصراحة الأستاذ الألمانى المهتدى محمد أسد السابق
ذكره في كتابه : « الإسلام على مفترق الطرق » قال :

« لاشك أنه لا يزال في الغرب أفراد يشعرون ويفكرون على أسلوب دينى
ويبدلون جهدهم في تطبيق عقائدهم بروح حضارتهم ، ولكنهم شواذ . إن الرجل
العادى في أوروبا ، ديمقراطياً كان أو فاشياً ، رأسمالياً كان أو اشتراكياً ، عاملاً
باليدين أو رجلاً فكرياً ، إنما يعرف ديناً واحداً ، وهو عبادة الرقى للمادى والاعتقاد
بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل ، وبالتعبير الدارج « حرة مطلقة »
من قيود الطبيعة ، أما كنائس هذا « الدين » فهى المصانع الضخمة ودور السينما
والمختبرات الكيميائية ودور الرقص ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها
فهم رؤساء المصارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة
والصناعة والطيارون والمبرزون الذين يضربون رقماً قياسياً ، ونتيجة هذه النهماء
للثروة ، والشره للذة ، النتيجة اللازمة ظهور طوائف متنافسة مُدَجَّجة بالسلاح ،
والاستعدادات الحربية ، مستعدة للإبادة بعضها بعضاً إذا تصادمت أهواؤها
ومصالحها ، أما في جانب الحضارة فنقيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة

في الفائدة العملية ، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح
للمادى لا غير^(١) .

« إن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة ، ولكن ليس في نظامها
الفكرى موقع لله في الحقيقة ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه^(٢) .

ربما يقلل من قيمة هذه الشهادة على مركز الدين في الحياة الأوروبية ومدى
تأثيره كون صاحبها قد انتقل من النصرانية إلى الإسلام ومن أوروبا إلى الشرق
الإسلامي ، فها هنا شهادة أصرح منها وأدل على اضمحلال الدين الرسمي في أكبر
مراكزه ، واستنكاف أهله من الانتساب إليه لأحد كبار المعلمين في « لندن » وكتاب
الإنكليزية البارزين ، قال الأستاذ جود (Joad) رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس في
جامعة لندن في كتابه : (Guide to modern wickedness) :

« سألت عشرين طالباً وتلميذة كلهم في أوائل العقد الثاني من أعمارهم كم منهم
مسيحي بأى معنى من معانى الكلمة ، فلم يجب بنعم إلا ثلاثة فقط ، وقال سبعة
منهم إنهم لم يفكروا في هذه المسألة أبداً ، أما العشرة الباقية فقد صرّحوا أنهم
معادون للمسيحية ، أنا أرى أن هذه النسبة بين من يؤمن بالمسيحية ويدين بها وبين
من لا يؤمن في هذه البلاد ليست شاذة ولا غريبة ، نعم إذا وُجّه هذا السؤال إلى
مثل هذه الجماعة قبل خمسين سنة أو عشرين ، كانت الأجوبة مختلفة ، بناءً على
ذلك الذين يتفقون في الرأي مع (Canon Barry) ويزعمون أن نهضة مسيحية
كبيرة يمكن أن تنقذ العالم سيكونون قليلاً جداً ، فإني لا أرى لرأيه هذا مؤيداً
ومبرراً إلا أن يكون ذلك رغبته وهواه ، فإن الأهواء كثيراً ما تخلق الأفكار ،
ولكنها لا تولد الشهادات والوثائق ، وإن الأحوال والآثار في هذه البلاد لتدلُّ
على أن الكنيسة النصرانية ستموت في القرن الآتى ، وإليك ما يؤيد هذا الرأي
نقلاً من صحيفة يومية :

Islam At the Cross Roads P. 50 Fifth Edition. (١)

Islam At the Cross Roads P. 40. (٢)

اخترع رجل في السابع والسبعين من عمره طريقة يحوّل بها نسخ الكتاب المقدس العتيقة إلى حشو البنادق والحرير الصناعى والدائن وأوراق النقد الثمينة ، وإن آله قد نصبت في (Cardiff factory) وفي ثمانية مصانع أخرى وتضنع بنسخ التوراة القديمة أسلحة حربية وقد استثمر المخترع بالآلة ثروة عظيمة بعد ما عاش في ضنك من العيش .

ويختتم الأستاذ مقالته هذه بجملة من التوراة ، ولا أجمل منها لمخاطبة القسوس ورجال الدين أمثال (كينين بيرى) وغيره فليسمع من له أذنان ^(١) .

ويقول هذا المؤلف في كتابه الثانى (Philosophy for our Times) :
« لم يزل سائداً على عقلية انكلترا منذ قرون شره المال والتملك ، وكانت رغبة نيل الثروة أقوى عامل في حياة البلاد وأكبر باعث على العمل ، لأن الثروة وسيلة للتملك ، وضخامته ووفرته مقياس لكفاءة الإنسان ، ولم يزل الناس يتلقون من طرق السياسة والأدب والتمثيل والسينما والإذاعة اللاسلكية ، وفي بعض الأحيان من منابر الكنائس في كل عام وشهر — التحريضات على جمع المال واقتنائه والإقناع بأن الأمة المتقدمة هي التي ارتقت فيها عاطفة الشره والتملك .

إن هذه العبادة للمال تناقض عقائدنا الدينية ، لأن الدين يمدح الفقر ويذم الغنى ويقول إن الفقير أقدر على الصلاح من الغنى ، ومع أن الحكمة والتعيم الدينى متفقان على أن الفقر أوفق لعبادة الله ودخول الجنة ، ولكن الناس لم يرغبوا إلى تصديق الدين في ذلك والعمل بأحكامه ، ولم يزالوا يؤثرون الثروة الحاضرة على نعيم الجنة الموعود ، لعلهم يظنون أنهم إذا تابوا في آخر عهدهم بالدنيا فإنهم يحرزون حسن الآخرة ، كما ظفروا بحسن الدنيا بأموالهم المودعة في المصارف .

وقد أعرب عن فكرتهم هذه (Samuel Butler) في كتابه بقوله : (إن بعض المؤلفين يقولون إننا لانستطيع أن نجتمع بين عبادة الله وعبادة المال ، وأنا أسلم أن

الأمر ليس بميسور ، ولكن متى تكون المهمات في الدنيا ميسورة سهلة ؟ .
فهما اختلفنا في المبادئ ، فإن الحقيقة الراهنة أن كلنا راسخ في تقليد بتل
وأتباعه ، فنحن مشغوفون بحب المال ، وعقيدتنا أن الثروة هي المقياس الصحيح لعظمة
الفرد والحكومة ، كانت سبباً لظهور مبدئين لها الأهمية التاريخية الكبرى :
أحدهما مبدأ عدم التدخل الاقتصادي الذي كان سائداً على القرن التاسع عشر ،
ويدعى أصحاب هذا المبدأ أن الإنسان يبني عمله على أعظم نفع يجلبه ، وأن ليس
الباعث على الأعمال الالتذاذ بالعواطف القلبية ، بل الالتذاذ بالثروة .

والمبدأ الثاني الذي يسود القرن العشرين هو مبدأ التنظيم الاقتصادي
المنسوب إلى ماركس ، ويقوم هذا المبدأ على أن نظام الإنسان الاقتصادي إنما
يتأسس على حوائج الإنسان المالية ، وهذا النظام هو الذي يخلق الأدب والأخلاق
والدين والمنطق ونظام الحكومة ، ولم يكن هذان المبدئان لينالا القبول الذي نالاه
لولا شغف الناس في بلادنا بالمال والاهتمام الزائد به .

ويقول في مكان آخر من هذا الكتاب :

« إن نظرية الحياة التي تسود على هذا العصر وتحكم عليه : هي النظرية في كل
مسألة وشأن من ناحية المعدة والجيب (Stomach and pocket view of life) .
وقد أجاد الصحفي الأمريكي المشهور (Jhon Gunther) تمثيل هذه النفسية
في كتابه في داخل أوروبا (Inside Europe) بقوله :

« إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا (Bank of England) ستة أيام
في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة » .

مظاهر الطبيعة المادية في أوروبا :

إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بحياة أخرى ولا يعتقدون وراء اللذة والتمتع بالحياة
والملو في الأرض غاية عليا ، ولا يذكرون الله إلا نادراً ، ولا يرجون له وقاراً ، كيف
يرجى منهم أن يتضرعوا إلى الله إذا مسهم الضر ، ويخبتوا إليه ويُنْفِيبوا إذا دهمهم

الخطر كما ذكر الله عن المشركين الذين كانوا يؤمنون بالله : (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين لئن أُنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) ولكن هؤلاء بآعائهم في المادية والتمسك بالأسباب الظاهرة والتعلل بها واستغنائهم عن الله ، قد وصلوا من القسوة والغفلة إلى حيث صدق عليهم قول الله : (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وريّ لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وقوله عز وجل : (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) فلا تسكاد تشعر في خطب الزعماء والوزراء في أوربا برقة قلب وانكساره وإخبات إلى الله في أدمى ساعات الحرب وأمرها ، ولا تشاهد شيئاً من ذلك في أخلاق الشعب وأعماله وأفراحه ، وبعد ذلك مفكرو الغرب وأدباؤه من باب التجلد وقوة القلب وإباء الضيم ، وقد افتخر أحد زعماء الإنجليز وكبار رجال السياسة في البرلمان الإنجليزي بأن رجال الشعب الإنجليزي لم يستسلموا للحوادث والنوازل ، واستشهد على ذلك بأن المشتغلين بالرقص واللهو في سنغافورة لم يتحولوا عن مكانهم ولم يؤخروا أدوار الرقص والغناء ، وطيارات اليابان تمطر المدينة شاييب القنابل ، ويحكى هندي عن سهرة شهدها قال : « بينما نحن في الرقص إذ سمعنا الإنذار بالغارة الجوية فساد الهدوء في المكان ، ثم قال أحد أصحاب المجلس : ماذا ترون ؟ هل يستمر الرقص أم يؤخر ؟ فأجابت فتاة : بل نستمر راقصين ، وهكذا كان ، ودوت الحارة فضلاً عن النادي الذي كنا فيه بالأغاني ^(١) » ، ويقول : « من العادات اليومية أنه يعلن في السينما : تبدأ الغارة الجوية ولكن يستمر هذا الفصل ومن أراد أن يذهب إلى الخبأ فطريقه أسفل إلى اليسار . ولكن الناس يستمرون جلوساً ولا أحد يبرح من مكانه ويبدأ الفصل ^(٢) » ويقول كاتب انجليزي تعليقاً على صورة نشرت في (Statesman) الصحيفة الإنجليزية اليومية الكبرى في الهند في ٢٤ من يناير ٤٢ م « من الغريب أن أجمل التمثيليات

(١) الغارات الجوية لأغا محمد أشرف الدهلوي ص ٧١ .

(٢) أيضاً ص ٧٠ .

إنما ظهرت أيام الحروب الكبرى في التاريخ ، كذلك الشأن في بريطانيا اليوم
فالناظر يرى في الملامى والسينما والتمثيلات والصور ما لم يكن يرى أجمل وأدع منها
قبل الحرب والمتفرج يجد في ملامى لندن كل ما يسليه ويرضى ذوقه « وفي عدد آخر
من هذه الجريدة الصادر في ١٦ من ديسمبر ٤٣ م « إن صناعة الأفلام في لندن
ولشبونة وموسكو إلى تقدم وفي ازدهار » .

ولانجد مثلاً لهذا التجلد والمكوف على اللذة واللهو في أشد ساعات الحرج وفي
آخر ساعات العمر إلا في يونان وروما في العهد القديم .

وقد روى مراسل روتر كيف استقبل المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية
العام المقبل وودع العام الراحل وذلك في يوم عصيب من أيام الحرب يلجأ فيه الإنسان
إلى الله ويفيق السكران ويخشع القاسى ، وإليك نص البرقية :

« واشنطن ، اليوم الأول من يناير (عام ١٩٤٢ م) البارحة لما كان العام
الجديد يلتقى بالعام المنصرم وكان المستر تشرشل رئيس الوزراء مُسافراً من كندا
إلى الولايات المتحدة في قطار رسمى خرج رئيس الوزراء مستصحباً سير شارليس
بورتل بغتة ودخل مطعم القطار والسيجار في فمه وكأس شمبينية في يده ، وتعجب ممثلو
الصحف الذين كانوا سائرين معه . تناول المستر تشرشل الكأس مبتسماً وقال :
« باسم عام ١٩٤١ م ذلك العام القائد إلى الاجتهاد والتعب والفتح » في ذلك الوقت
لَقَطَ العام الراحل نفسه الأخير وتنفس العام الجديد وأعلنت الساعة بوفوده وهنا
الصحفيون ورؤساء القطار المستر تشرشل ، وأخذ رئيس الوزراء يد سير شارليس
بورتل بيد ، وأخذ يد كاربورل هارز بيده الأخرى وأخذ كل واحد بيد الآخر
وبدأوا يغنون في رقصة وانطلق المستر تشرشل إلى الباب وقال : ليهنكم جميعاً ورزقنا
الله الفتح ، وجعلت الجماعة تغنى في حدة وتُصَفِّق ، وخطَّ رئيس الوزراء حرف V
وانصرف إلى عربته سعيداً مسروراً » .

قارن هذه الطبيعة المادية بالنفسية الدينية وتعاليم الدين وعمل المتدينين وسيرتهم

في الحروب والأخطار في القرآن (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وفي سيرة ابن هشام في وقعة بدر الكبرى قال ابن إسحق : ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ورجع إلى العريش فدخله ومعه فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليس معه غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد .

والمادية لأسباب حتمية طبيعية وتاريخية وعلمية قد أصبحت شعار الحضارة الغربية والحياة الغربية منذ عهد عريق في التاريخ ، ولم تزدها النشأة الجديدة والنهضة العلمية والسياسة في أوروبا إلا حدة وقوة ، وقد لاحظ هذا الامتياز كثير من علماء الغرب والشرق ، فمن علماء الشرق الأستاذ الأملئ الرحالة ذو النظر الثاقب عبدالرحمن السكواكبي في مستهل هذا القرن ؛ فقد قال في كتاب طبائع الاستبداد :

« الغربي مادي الحياة قوى النفس شديد المعاملة حريص على الاستئثار حريص على الانتقام كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق ، فالجرماني مثلاً جاف الطبع يرى أن العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت ، ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال ، فهو يحب العلم ولكن لأجل المال ويحب المجد ولكن لأجل المال ، واللاتيني منه مطبوع على العجب والطيش ، يرى العقل في الانطلاق ، والحياة في خلع الحياء ، والشرف في الزينة واللباس ، والعز في التغلب على الناس » .

وهذا تصوير صادق للطبيعة الأوروبية وتحليل صحيح للنفسية الغربية ، ولا نظن المرحوم السكواكبي قد تحامى الكلام على غير الجنسيتين الألماني واللاتيني إلا تفادياً من الوقوع في العنت فجعل الألماني واللاتيني مثلاً لسائر الأوربيين .

الغابات المادية للحركات الروحية العلمية :

وترى هذا الروح المادي في جميع نظم أوروبا السياسية والاجتماعية والخلقية التي ابتكرتها أو جددتها شعوبها لهذا العهد ، حتى أن الحركة الروحية التي شغلت الناس

كثيراً في أوروبا في الزمن الأخير إنما روحها المادية ، فقد أصبحت صناعة وفناً كسائر الصناعات والفنون في أوروبا غايتها مشاهدة عجائب إقليم الروح والاطلاع على أسرارها والتحدث إلى أرواح الموتى وترويح النفس والتلهي ، وليست من تركية النفس وتصفية القلب والخشوع لله والعمل الصالح والاستعداد للموت والصبر على مكاره الحياة وهضم النفس في شيء ، خلافاً للحركة الروحية والتصوف في الشرق الإسلامي .

وكذلك الأعمال التي يضحي فيها الناس بنفوسهم وأرواحهم في الغرب إنما ترجع في الغالب إلى غايات مادية كحسن الأحدثنة وانتشار الصيت وخلود الذكر في التاريخ والتبريز على الناس وأن يتمجد به شعبه ويفتخر ويتشرف به وطنه ويغبط ، خلافاً للأعمال التي يُبتغى بها وجه الله ، فالمسلم يخاف أن يشوب عمله شيء من الرياء والسمعة فيحبطه ويسمع قول الله تعالى : « هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا تقيم لهم القيامة وزناً » ، وقوله عز وجل : « وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً » وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل الذي يقاتل شجاعة ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لشكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه : « اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله كله لوجهك خالصاً ولا تجعل لغيرك فيه شيئاً » واجتهاد الصالحين من هذه الأمة في إخفاء عبادتهم وصدقاتهم معروف في كتب التاريخ والسير .

التصوف المادي الغربي وروعة الوجود الاقتصادية :

وقد بلغ النظر المادي والفكر المادي في أوروبا درجة الاستغراق فيه والفناء ونسيان ما سوى القيم المادية ، ولنضرب بذلك مثلاً بكارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣ م مؤسس الفلسفة الشيوعية .

يرى كارل ماركس أن النظام الاقتصادي هو روح الاجتماع وأن الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون الجميلة كلها عكس لهذا النظام الاقتصادي ، هو يقول إن في كل عصر وفي كل دور من أدوار التاريخ طريقة خاصة للإنتاج الصناعي وعلى وفقها تتعين العلاقات الاجتماعية ، ولكن بعد قليل لا تبقى هذه العلاقات الاجتماعية متوافقة متناسبة مع طرق الإنتاج ويجهت بعض الناس لتشكيل هذه العلائق تشكيلاً جديداً ، وهذه هي التي تعرف في التاريخ بالانقلابات والثورات ، والمؤرخ يجهل ماهيتها ولكن لا غرابة في ذلك ، فإن الذين يشتركون في هذه الثورات قد لا يشعرون أنفسهم بالغاية التي يقاتلون لأجلها ، ولكن يمكن لنا أن نحل هذه الألغاز ونعلم أن الارتقاء السياسي والتعديلات والتحسينات في النظم السياسية وما يطرأ عليها من التغيير والتطور ليست إلا صوراً جديدة للعلائق الاجتماعية تظهر لتجعل هذه العلائق متناسبة متوافقة بطرق الإنتاج الجديدة من جديد ، ولما كان الاختلاف بين طرق الإنتاج الصناعي والعلائق الاجتماعية التي تقوم عليها مستمرا فيكون الجهد لتطبيقها مستمرا أيضاً ، وإذا تجاوز الاختلاف واشتد ظهر في شكل ثورة ، ولكن لا ينبغي لنا إذا لم تكن الاختلافات واضحة أن ننفي وجودها وننكرها ؛ والاختلاف بين مناهج الإنتاج الصناعي والوشائج الاجتماعية يظهر في حرب الطبقات ، لأن جميع طبقات الاجتماع إنما هي أجزاء النظام الاقتصادي ، ويستنتج من ذلك كارل ماركس أن التاريخ البشري غير العهد الذي كانت الحياة البشرية في طفولتها ليس إلا قصة حرب الطبقات الاجتماعية المختلفة .

وهكذا جحد الرجل جميع نواحي البشرية غير الناحية الاقتصادية ولم يعر غيرها شيئاً من العناية ، ولم يقدّر للدين والأخلاق والروح والقلب وحتى العقل وزناً وقيمة ، ولم يعترف أن أحداً منها كان عاملاً من عوامل التاريخ ، وأن جميع الحروب والثورات في التاريخ لم يكن إلا ثأراً لبطن من بطن ، وجهاداً في سبيل تنظيم جديد للنظام الاقتصادي وطرق الإنتاج الصناعي ، وحتى الحروب الدينية لم تكن عنده إلا حرب الطبقات الاقتصادية استأثرت إحداها بموارد الثروة ووسائلها وطرق

الإنتاج واجتهدت الأخرى في أن تنافسها وتتناول قسطها أو أن تنظمها من جديد ف وقعت الحرب ، وكانت كذلك في رأيه بدر وأحد الأحزاب والقادسية واليرموك ، ووقائع ومعارك حفظها التاريخ .

فهذا هو كما ترى التصوف للمادى الغربى ، وهذه هى فلسفة وحدة الوجود ، وحدة وجود الاقتصاد ، ولما كان الشرقيون إنما يغلبهم الروح الدينى والتأله نقي المتألهون منهم والمغلوبون وجود كل شىء سوى الله ، وهتفوا فى سُكرهم وغلبة الحال عليهم : لا موجود إلا الله ، ولما كان المفكرون الأوربيون إنما تغلبهم المادية نفوا وجود كل شىء سوى الناحية الاقتصادية وهتفوا لا موجود إلا البطن والمعدة . إن صوفية الشرق كانوا يرون الإنسان ظلاً ربانياً ، أما الماديون فى الغرب فلا يرونه إلا وجوداً بهيمياً حيوانياً .

نظريه دارون وتأثيرها فى الأفكار والحضارة :

وساعدهم فى وجهة نظرهم هذه فى جميع مسائل الإنسان ، وزاد الطين بلة النظرية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر عن ارتقاء الإنسان ، وكونه حيواناً مترقىاً عما دونه من الحيوانات ، لم يزل يحتاز بمرحلة بعد مرحلة فى رحلته النوعية التى استغرقت ألوفاً من السنين ولم يزل ينتقل من طور حيوان إلى طور آخر من امبيا (Amoeba) إلى قرد ومن قرد إلى إنسان حتى بلغ كماله النوعى ، وزعيم هذه النظرية وبطلها دارون الذى ظهر كتابه أصل الأنواع (Origin of Species) سنة ١٨٥٩ م فكان حديث النوادى والمجامع والمدارس وشغل الناس الشاغل ، وكانت هذه النظرية اتجاهاً جديداً لم يسبق فى المسائل البشرية وما يتعلق بها ، تقلب تيار الفكر وتصرف نظر الإنسان فى الاستعلام والاستهداء فى مسائله وفى تاريخه من الإنسان إلى الحيوان ، وتجعله يعتقد أن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية ، وبغير أن تتداخل فيه قوة غير طبيعية ، وأن لاعلة فى الكون سوى السنن الطبيعية ، وأن الموجودات ترتقى من مراتب الحياة الأولى إلى مراتبها العليا بعمل فطرى تدريجى عار من العقل والحكمة ، وأن

الإنسان وسائر أنواع الحيوان ليس من صنع صانع حكيم بل هو نتيجة زوايس طبيعية انتهت بها التنازع للبقاء وناموس بقاء الأصلح والانتخاب الطبيعي الذي هو سائر في الكون إلى إنسان ناطق ذي شعور .

إن مناقضة هذه النظرية للدين والعقل في المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وآثارها العملية واضحة ، بل كان هذا ديناً جديداً يهدم الدين القديم من الأساس ويحل محله ؛ فلا غرابة إذا اضطرب لها رجال الدين وحسبوا لها كل حساب ، وخافوا على مصير الدين في أوروبا .
يقول الأستاذ جود في كتابه :

« يصعب علينا الآن أن ندرك تلك الدهشة والاستغراب الذي فاجأ أجدادنا عند ما ظهر كتاب أصل الأنواع لدارون ، وعندما جاءت النتائج أن دارون أثبت — أو يظن أنه أثبت — أن عمل ارتقاء الحياة على هذا الكوكب (الأرض) لم يزل مستمراً متواصلاً من ظهور الأميبا (Amoeba) ، وفرخ البحر (Jelly Fish) الأولى إلى أشكاله النهائية العليا وهي أرق أشكال الحياة وأعلاها ، فلم يزل عمل الارتقاء من الأميبا إلى طورنا متواصلاً غير منقطع .

بالعكس من ذلك أن الذين عاشوا في عصر فكتوريا إنما أرشدوا أن الإنسان خلق مستقل ، وهو في الحقيقة نوع من مَلَك منحط ، أما إذا كان دارون مصيباً فالإنسان لم يكن إلا قرداً راقياً ، فعزَّ على أهل عصر فكتوريا أن يكون الإنسان قرداً راقياً بدل أن يكون مَلَكاً منحطاً ، ومطابت لهم هذه النظرية واجتهدوا أن يخلصوا الإنسان من هذه السبة التي لحقتهم من هذه العقيدة في الإنسان واقترحوا لذلك اقتراحات^(١) .

أقبال الجمهور على نظرية دارون :

ولكن الجمهور والدهماء من الناس تلقوا هذه النظرية بالقبول — رغم ما فيها

من ضعف ونقص من الوجهة العلمية — فمهموها أو لم يفهموها — وكان الأذهان كانت متهيئة لمثل هذه النظرية ، وكان الناس وجدوا فيها منافساً للدين ورجالها ، وصعب على رجال الدين أن يعارضوا هذا التيار الجارف من أفكار الناس وأذواقهم والسيل العرم من المنشورات والمحاضرات ، فوضعت الكنيسة أوزارها في هذه الحرب حتى إذا مات دارون سنة ١٨٨٣ م منحت الكنيسة الإنجليزية أكبر شرف تمنحه لإنسان ، وذلك بأنها أذنت بدفنه في ويست منستراي محل دفن الرجال الدينيين .

وكان تأثير هذه النظرية بعيداً عميقاً في الأفكار والحضارة والأدب والسياسة تراه وتلمسه في أخلاق الناس ، وفي نزعات الرجوع إلى الفطرة وإلى العهد الذي كان الإنسان يعيش فيه على الفطرة عارياً حراً ، وفي تعيين المثل الكامل للإنسان ، وفي جميع الأعمال والأخلاق التي لا تصدر إلا على تسليم أن الإنسان إنما هو حيوان راق ، وفي فساد الحياة المنزلية الذي يعبر عنه المستر شبرد أحد علماء الإنجليز بقوله : « لقد ظهر في إنجلترا جيل من الناس يجهل الحياة المنزلية جهلاً باتاً ، ولا يعرف غير حياة القطعان من البهائم » .

من جنابات المادية :

وكان من نتائج هذه المادية الجارفة ، والتربية اللادينية التي ليس فيها نصيب للأخلاق ومحافة الله عز وجل ، والإيمان بالآخرة أن أصحاب المراكز الكبيرة ، ورجال السياسة والمسئولية يرتكبون في بعض الأحيان جنایات لا يتنزل إليها أكبر الآثمين . وذلك لمصلحة سياسية وهمية لبلاذم وأمنهم أو لجاه شخصي أو ربح مالى . فن أغرب ما روى في تاريخ البشر من القسوة والظلم ، أن الإنجليز قد أوقعوا في بنغال (الهند) مجاعة مزورة غير طبيعية ، لأنهم منعوا استعمال القوارب التي يحصد الناس عليها مزارع الأرز — وهو غذاء بنغال — واحتكروا الحبوب في مقدار عظيم للجنود ولم يتمكنوا الناس منها حتى فسدت وضاعت ، ومات مئات ألوف من الناس جوعاً

والحبوب وفيرة في البلاد والمواصلات ميسورة والقطر غادية راثحة ، والهند بلاد مخصبة
تستطيع أن تغذى بلاداً أخرى . وذلك كله لما توقعوه من إقبال الناس على التجند ،
وليبرهنوا على فشل الحكم الذاتي في إدارة البلاد .

وقد تغافل لورد ماونت بيتن حاكم الهند العام سنة ١٩٤٧ م عما يدبر من
الفتك بالمسلمين في دهلي وبنجاب الشرقية ، فقد اتصلت به أنباء المؤامرات
والخطط التي كانت تبث ضد العنصر الإسلامي في هذه المنطقة ، وأنذره الخبراء
بوقوع اضطراب طائفي هائل ، فنام على كل ذلك انتقاماً من أن المسلمين لم
ينتخبوه حاكماً عاماً لباكستان كما فعل أهل الهند ، ولتكون هذه الاضطرابات
الطائفية والحروب الأهلية حجة على عدم أهلية أهل البلاد للاستقلال ، وكونهم عيالا
على الإنجليز في الأمن والنظام ، فكان نتيجة ذلك تلك المجزرة البشرية الهائلة التي
عممت القرون أن تلد مثلها .

ومن ذلك أن « ريدكلف » الذي اختاره الفريقان الهنديان حكماً في مسألة
بعض مدن بنجاب هل تنضم إلى هندوستان أو إلى باكستان حكم حكماً جائراً ،
فكان نتيجة ذلك جلاء المسلمين من فيروز پور وكورداسبور ، ومتاعب عظيمة ،
وخسائر كبيرة في النفوس والأموال .

أما تأييد ترومان للصهيونية ودولة إسرائيل في فلسطين ومعارضته للقضية
العربية التي لا غبار عليها ، لأجل أن يكسب ود اليهود ويتمتع بنفوذهم السياسي
والمالي والصحافي وليكسب انتخابه ، وتعاميه عن براهين الدول العربية الساطعة ،
فقضية تنبئ عن ضعف أخلاق العظماء في أوربا وأمريكا ، ودوران الحياة السياسية
على القوائد لا المبادئ .

الفصل الثاني

الجنسية والوطنية في أوروبا

انكسار الكنيسة اللاتينية سبب قوة العصبية والقومية والوطنية :

قدمنا أن الوطنية والقومية والاعتداد الشديد بالشعب والموقع الجغرافي من خصائص الطبع الأوربي الذي سرى في العنصر الأوربي مسرى الروح ، وجرى منه مجرى الدم وأصبح طبيعة ثانية له ، ولكن النصرانية قهرت هذه الطبيعة ، لأنها على علاقتها ، ورغم ما طرأ عليها من التحريف والتبدل ، لا يزال عليها مسحة من تعليم المسيح ، وفيها أثارة من علمه ، والدين السماوي مهما تحرف وتغير لا يعرف الفروق المصطنعة بين الإنسان والإنسان ، ولا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان ، فجمعت النصرانية الأمم الأوربية تحت لواء الدين وجعلت من العالم النصراني عشيرة واحدة ، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فغلبت العصبية القومية والنصرة الوطنية ، وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة ، ولكن لما قام لوثر سنة ١٤٨٣ — ١٥٢٦ م بحركته الدينية الإصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية ، ورأى من مصلحة مهمته أن يستعين بالألمان جنسه ونجح في عمله نجاحاً لا يستهان بقدره ، وانهزمت الكنيسة اللاتينية في عاقبة الأمر فانفرط عقدها ، استقلت الأمم ، وأصبحت لا تربطها رابطة ، ولم تزل كل يوم تزداد استغلالاً في شؤونها ونشئتها ، حتى إذا اضمحلت النصرانية نفسها في أوروبا قويت العصبية القومية والوطنية ، وكان الدين والقومية ككفتي ميزان كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى ، ومعلوم أن كفة الدين لم تزل تخف كل يوم ، ولم تزل كفة

منافسته راجحة ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية الفاضل الإنجليزي المعروف لورد لوثيرن Lord Lothian السفير البريطاني السابق في أمريكا في خطبته التي ألقاها في حفلة جامعة عليكرة في يناير سنة ١٩٣٨ :

« لما قضت حركة لوثر التي تدعى حركة إصلاح الدين على وحدة أوروبا النفاية والدينية ، انقسمت هذه القارة في إمارات شعبية مختلفة أصبحت منازعاتها ومنافساتها خطراً خالداً على أمن العالم . »

وكان نتيجة الانحطاط الديني وانخفاض مبادئ الدين والأخلاق رجحان كفة الوطنية والجنسية ، يقول لورد لوثيرن في نفس هذه الخطبة :

« إن الدين الذي هو المرشد اللازم للإنسان والوسيلة الوحيدة لحصول النفاية الخلقية والشرف المعنوي للحياة البشرية ، كان نتيجة الانحطاط في سلطانه أن فتن العالم الغربي بمذاهب سياسية تقوم على أساس اختلاف الأجناس والطبقات ، وآمن — بتأثير العلوم الطبيعية — أن الرقي المادي هو الغاية العليا والوطر الأكبر ، ولا يزال يزيد هذا الأمر في مشاكل الحياة وأثقالها وتكاليفها ، وكان من نتائج ذلك أيضاً أنه صعب على أوروبا أن توفق بين روحها وحياتها توفيقاً ينقذها من القومية ، داهية هذا العصر الكبرى ^(١) . »

طرائق العصبية الجنسية في أوروبا :

كان نتيجة انحلال النظام الديني وانتعاش النعرة القومية أولاً أن أصبحت أوروبا معسكراً واحداً ضد الشرق كله ، وخطت خطاً فاصلاً بين الغرب والشرق وبين أوروبا وبين ماسواها من القارات والأقاليم ، والجنس الآري وبين ماعداه من أجناس البشر ، بعد أن كل مادون هذا الخط له الفضل على كل ما وراءه من نسل وشعب

Convocation Adress of Lord Lothian at Muslim University (١)
Aligarh.

وثقافة وحضارة وعلم وأدب ، وأن الأول خلق ليسود ويحكم ، والثاني ليخضع ويدين
والأول ليبقى ويزدهر ، والثاني ليموت ويضمحل ، وهذا بعينه ما امتاز به اليونان
والروم في عهدهم ، فقد كانوا لا يعدون مهذبين إلا أنفسهم فقط ، وكانوا يسمون
كل شيء غريباً خصوصاً كل ما كان واقعاً في شرق المحيط الإطالتيكي بربرياً
وهذه هي النفسية الأوربية التي أعرب عنها موسوليني بقوله في أغسطس سنة ١٩٢٥
وتناقضه الصحف :

« إذا كانت أوربا لم تعد تقدر على أن تقوم بمهمتها الاستعمارية في العالم فقد انقضى
دورها وحن حينها — فواجباً هل آن للوحوش والأحباش أن يرفعوا القضية في
عصبة الأمم ضد الأمم الراقية التي أحدثت انقلاباً عظيماً في العالم البشري ^(١) » وقال
هتلر في كتابه الشهير كفاحي :

« إن كل ما يوجد على وجه الأرض من ثروة غالية وتراث مجيد من العلوم
والآداب والبدائع الفنية إنما أنتجته عبقرية أمم معدودة وإبداعها ، وهذه الأمم كلها
تنحدر من سلالة واحدة .

وإذا قسمنا النوع البشري في ثلاثة أقسام (١) الذين ينتجون الحضارة والعلم
(٢) والذين يحفظونها (٣) والذين يبيدونها فليس النوع الأول إلا النسل الآري .

كان نتيجة هذه النفسية الجنسية والعصبية ضد كل ما جاء من الخارج ويعزى
إلى أجنبي ، أن صار بعض الشعوب الأوربية ينظر إلى الدين المسيحي وإلى المسيح
كطاريء ونزِيل يريدون أن ينفوه من بلادهم ويتبرأوا منه ، يمثل ذلك ما قال أحد
المعلمين في ألمانيا وهو البروفسور آرنى :

« لأي شيء يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية ، ولماذا يقص عليهم قصص
إبراهيم وإسحق ؟ ينبغي أن يكون إلهمنا أيضاً ألمانيا » .

(١) نقلاً من مجلة سيج الأردنية .

ونشأت في ألمانيا طائفة تتبرأ من سيدنا المسيح عليه السلام لكونه من
بنى إسرائيل ، والذين لا يزالون يدينون له بالحب والتعظيم يجتهدون أن يثبتوا أنه
كان من سلالة آرية ، وظهرت في ألمانيا نزعة إلى إحياء الآلهة القومية القديمة التي
كان يعبدها الشعب الألماني في عهده القديم .

وليست روسيا العالمية بأقل حماسة للعصبية الجنسية والوطنية من منافسها
القديم ألمانيا .

فيعتقد الناس في روسيا أن أغلب الاختراعات الكبرى في العصر الحديث
إنما يرجع الفضل فيها إلى الروس .

فليس « لافوازييه » هو واضع القانون الخاص بتركيب الأجسام ، بل هو
مدين بما ينسب إليه للعالم الروسى « ميشل لومونوسوف » وليس « لاديسون » فضل
في استخدام الكهرباء في الإضاءة فقد سبقه « لوجين » الروسى بست سنوات
إلى ذلك ، ونشرت جريدة برافدا : أن العلماء الروسين توصلوا إلى اختراع التلغراف
قبل مودس وإلى تسيير القاطرة البخارية قبل ستفنسن ، إلى غير ذلك من تحديدات
للتاريخ ليس الباعث عليها إلا العصبية الجنسية وتقديس « روسيا » .

عدوى الجنسية في الأقطار الإسلامية :

ومما يدعو إلى الأسف والاضطراب ، أن هذه العدوى الجنسية قد سرت
إلى بعض الأقطار الإسلامية التي كان يجب وكان من المرقب أن تكون زعيمة
لدعوة الإسلام العالمية ، حاملة في عصرها لرسالة الأمن والسلام ، وأن تكون جبهة
قوية ضد الجنسية والوطنية ، وذلك بانحلال الدين في هذه البلاد ، وبتأثير الآداب
الأوربية والحضارة الغربية ، فترى في الترك النزعة الطورانية والدعوى إلى إحياء
جاهليتها القديمة وآدابها وثقافتها ، والنظرة إلى الدين الإسلامى الذى انتشر على
أيدي العرب وشريعة الإسلام وثقافته ولغته نظرة تشبه نظرة ألمانيا الجديدة إلى

الأديان التي جاء بها الأنبياء من غير النسل الآرى والآداب السامية وثقافتها ، فاعتقد بعض المفكرين في تركيا الفتاة أن الإسلام دين طارىء غريب لا يصلح للترك ، وأن الأولى بهم أن يرجعوا إلى وثنياتهم الأولى قبل أن اعتنق آباؤهم الدين الإسلامى ، تقول الفاضلة خالدة أديب هانم عن « ضياء كوك ألب » من كبار مؤسسى تركيا الجديدة أدبا وتهذيبا :

« كان ضياء كوك ألب يريد أن ينشئ تركيا جديدة تكون صلة بين الأتراك العثمانيين وبين أسلافهم الطورانيين ، فقد كان يريد أن يقوم بإصلاح مدنى بواسطة المعلومات التي جمعها عن التنظيمات السياسية والمدنية في عهد الأتراك قبل الإسلام ، كان ضياء يعتقد ويؤمن بأن الإسلام الذى وضعه العرب لا يصلح لشأننا ، ولا بد لنا من إصلاح دينى يوافق طبائعنا إذا لم نرجع إلى عهدنا الجاهلى^(١) . وهذه هى النفسية القومية التي عبر عنها شاعر عربى ، وهو الشيخ يوسف النبهانى ، في بيته السائر عن الترك :

وما تقوموا منا بنى العرب خلة سوى أن خير الخلق لم يك أعجا
ومما لا شك فيه أن هذه النزعة قد وجدت في الترك وكذلك في الإيرانيين في الزمن الأخير ، قال المرحوم الأمير شكيب أرسلان وهو الخبير الثقة فيما يتعلق بالترك فضلا عن العرب لطول مكثه في تركيا وكان عضواً في مجلس الأمة :

« وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية تخالف الفئة الأولى أى فئة تقول بالقومية العثمانية الإسلامية في كل هذه النظريات ، وأشهر دعائها ضياء كوك ألب وأحمد أغائف ، ويوسف أقشورا اللذان قدما من روسية ، وجلال ساهر ، ويحيى كمال ، وحمد الله صبحى رئيس وفاق « تورك بوردى » ، ومحمد أمين بك الشاعر الملى ، وكثير من الأدباء والمفكرين ، وأكثر الطلبة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجداً ، وأسبقها إلى الحضارة ،

(١) محاضرات خالدة أديب هانم في الجامعة الملية بدهلى .

وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل ، ويلزم أن يعودوا واحداً ، ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ، ولم يقتصرُوا منها على الترك الذين في سيبيريا وتركستان الصين وفارس والقوقاس والأناضول والروملى ، بل مبدؤهم مد هذه الرابطة إلى المغول في الصين ، وإلى الجرج والفنلانديين في أوروبا ، وكل ما يقال أنه ينمى إلى أصل طورانى ، وهم يقولون بخلاف ما يقول الأولون ، فهم ترك أولاً ومسلمون ثانياً ، وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية ، إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة في الطورانية حتى قالوا : نحن أتراك فكعبنا طوران ، وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ، ولا ينسكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظمون الأناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنسية ليطبعوهم على الإعجاب بها ويرقوا مستوى نفوسهم بزعمهم^(١) . . . وقال أيضاً :

« هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى اقتداء بالأمم الأوربية في الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتد أكثر من ذي قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك ، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الأبيض الذى كانوا يعبدونه ، حتى صوروه في بعض كتبهم الحديثة ، وقال لهم المرحوم موسى كاظم شيخ الإسلام — وهو الذى أخبرنى بذلك — إن العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشع منها الأبدان ، ولكنهم اقتلعوها بالإسلام وافتخروا بأن الله لطف بهم وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات ، وأما أنتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالبارئ تعالى وتتناكروا عبادة الذئب الأبيض فيا للأسف .

(١) حوائى الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامى الجزء الأول

فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشتهم يبعثون عن أديانهم القديمة التي منها الكيومرانية أى تعظيم النور والتحرز من الظلمة ومن هنا جاءتهم عبادة النار ، ومنها فرقة زرادشت الذى كان يدعو إلى وحدانية الله ، ويقول إنه خالق النور والظلمة ، وإن الخير والشر إنما حصلا بامتزاجهما ، وإنهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، إلى غير ذلك من العقائد والأوابد والآثار التي كانت عند قدماء الفرس : كالثنوية ، والزرذشتية ، والمناوية ، ومنهم من يبحث عن المزدكية التي كانت تدعو إلى الإلحاد والإباحة^(١) — .

الربانة القومية الأوروبية وأركانها :

والخطوة الثانية في هذا الطريق أن أصبحت الشعوب والدول في أوروبا الصغيرة منها والكبيرة عوالم مستقلة لا ترى العالم خارج الخطوط التي خطتها الطبيعة من جبال وأنهار ، أو خطتها بيدها من غاية سياسية واستعمار ، ولا تعترف بوجود الإنسان في غير منطقتها فلا تحترمه ولا تعرفه ، واتخذت نفسها إلهاً تدين له بكل ما يدين به العباد المخلصون من عبادة وتقديس وأضحى هي دماء الآخرين ونفوسهم وأموالهم وبلادهم ، وقتال في سبيله ، وتغان في طاعته ، ومحيا وممات لأجله ، وهذا الدين القومى يشتمل على شيئين : إيجابى وسلبى ، أما الإيجابى ، فهو الاعتقاد بأن الشعب أو الأمة فوق كل شيء ، وأفضل من كل شيء ، وأن الله — إذا كانت الأمة تعترف به وتعتقد ، أو ترى أن من المصلحة أن تستغل هذه الكلمة — لم يخلق أفضل من هذه الأمة ، ولا أنجب منها ، ولا أذكى ولا أقوى ولا أحق بالحكم والسيادة والولاية على الأمم ، والرعاية للعالم منها ، وأنها أمينه ووكيله ووصية في الأرض ، ولم يخلق بلاداً أحب إليه من هذه البلاد ، ولا تربة أزكى من تربتها ، وهذا هو الدين القومى الذى لا يسمح للإنسان أن يعيش في بلاده حتى يؤمن به .

(١) حواشى حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

ولا تختلف شعوب أوربا الحاضرة ودولها في هذه الديانة القومية إلا في الصراحة والنفاق ، وأن بعضها تقول وتفعل ، وبعضها تفعل ولا تقول ، فإن بذرة القومية والوطنية إذا أقيمت في أرض فإنها لا تلبث أن تنشأ وتمد عروقها في الأرض ثم تصير شجرة ، فدوحة تظلل الأمة ، ولا يمكن لشعب أن يؤمن بالقومية ، ثم لا يعتدى ولا يتناول أو لا يريد أن يعتدى ويتناول ولا يمقت الآخرين ، ولا يزديهم . كما لا يمكن أن يسرف الإنسان في الخمر ، ثم لا يسكر ولا يهذى كما قال الشاعر :

ألقاه في البحر مكتوفاً وقال له : إياك إياك أن تبسل بالماء

خصوصاً إذا كان العلم والأدب والشعر والفلسفة والتاريخ وحتى العلوم الطبيعية متعاونة على إنشاء العاطفة القومية والنصرة الشعبية والخيلاء الجنسية والفخر بالآباء والتعظيم بالماضي ، ولا يكون رادع من خلق ولا وازع من دين ، وتولى القيادة رجال لا يعرفون غير القومية والمجد القومي غاية ومرمى ، ومن مقومات هذه الحياة القومية التي لا تقوم بغيرها ، الكراهة والخوف ، وذلك هو الجزء السلبي في دين القومية ، فإن الحماسة القومية لا تظهر ولا تبقى حتى يكون للشعب ما يكرهه وما يخافه ، فلا يزال القائدون يثيرون السكامن من عواطفه ، ويذكرون الخامد من حميته ويضربون على وتر الحساس وهو الكراهة والخوف ، فلولاها لا تنشعت سحابة القومية وتراجع سيلها ، وقد حُلَّ ذلك الأستاذ جود تحليلاً فلسفياً نفسياً ، فقال :

« إن العواطف التي هي مشتركة والتي يمكن إثارتها بسهولة هي عواطف المقت والخوف التي تحرك جماعات كبيرة من الدهماء ، بدل الرحمة والجود والكرم والحب ، فالذين يريدون أن يحكموا على الشعب لغاية ما ، لا ينجحون حتى يلتمسوا له ما يكرهه ويوجدوا له من يخافه ، وإذا أردت أن أوجد الشعوب ينبغي لي أن أخترع لهم عدواً على كوكب آخر — على القمر مثلاً — تخافه هذه الشعوب ، فلم يعد من دواعي العجب أن الحكومات القومية في هذا العصر في معاملتها لجيرانها إنما تقاد بعواطف

المقت والخوف ، فعلى تلك العواطف يعيش من يحكمونها ، وعلى تلك العواطف يقوى الاتحاد القومى ^(١) .

الحل الإسلامى لمعضلة الحروب والمنافسات الشعبوية :

إن هذا الحل الذى قدمه الأستاذ جود لمشكلة الأمم ومعضلة الحروب والمنافسات الشعبوية حل عادل وتوجيه معقول ، فلا تنصرف عداوة الشعوب والأمم بعضها لبعض حتى يكون لها عدو من غيرها تشترك فى عداوته وكرهه والخافة منه . وتتعاون فى الحرب معه ، ولكن هذا لا يحتاج إلى اختراع وإبداع ، ولا يلزم أن يوجد لها عدو على كوكب آخر كالقمر والمريخ ؛ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ فالدين ينبه إلى أن هذا العدو للنوع الإنسانى ولذرية آدم يوجد على الأرض نفسها ، وحق على كل إنسان أن يعاديه ويحترس منه ويتعاون مع بنى نوعه فى معاداته ومحاربتة يقول القرآن : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليسكونوا من أصحاب السعير » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

وقد قسم الإسلام العالم البشرى إلى قسمين فقط ، أولياء الله وأولياء الشيطان ، وأنصار الحق وأنصار الباطل ، ولم يشرع حربا ولا جهادا إلا ضد أنصار الباطل وأولياء الشيطان أينما كانوا ومن كانوا فقال : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وهذه هى الحروب التى لم يشهد التاريخ أيمن منها وأقل إراقة للدماء وذهابا بالنفس ولا أعود منها على الإنسانية بالصالح العام والخير المشترك والسعادة الجمعاء فلا يربو عدد المقتولين من الفريقين (المسلم والكافر) فى جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التى ابتدأت من السنة الثانية للهجرة ، ودامت إلى السنة التاسعة على

ألف وثمانية عشر نفساً ١٠١٨ المسلمون منهم ٢٥٩ والكفار ٧٥٩^(١) أما المصابون في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ الكونية فيبلغ عددهم على الأصح واحداً وعشرين مليون نسمة^(٢) ٢١٠٠٠٠٠٠٠ عدد القتولين منهم سبعة ملايين ٧٠٠٠٠٠٠٠ وقدّر المستر مكستن (Maxton) عضو البرلمان الإنجليزي أن المصابين في الحرب الثانية الكبرى ١٩٣٩ لا يقل عددهم عن خمسين مليوناً ٥٠٠٠٠٠٠٠ وقد كلف قتل رجل واحد في الحرب الأولى عشرة آلاف جنيه، أما مجموع نفقاتها فيبلغ ٣٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه، أما نفقات الحرب الثانية لساعة واحدة فليون من الجنهيات ١٠٠٠٠٠٠٠^(٣) .

نم كانت الحروب الدينية الإسلامية حاكمة للدماء غاصمة للنفوس والأموال وفاتحة عهد السعادة والغبطة في العالم، أما حرب التنافس والحمة الجاهلية التي تدعى الحرب الكبرى فقد كانت مقدمة حروب متسلسلة، وإليك ما قال المستر لويد جورج بطل الحرب الكبرى ورئيس الوزارة الإنجليزية حينئذ :

« لو رجع سيدنا المسيح إلى العالم لما عاش إلا قليلاً ، إنه سيرى الإنسان لا يزال بعد ألفي سنة مشغولاً بالشر والإفساد والقتل والفتنك ببني نوعه ، واللهب والإغارة ، بل إن أكبر حرب في التاريخ قد استنزفت دم جسم الإنسانية وأهلكت الحرث والنسل حتى أصابت الناس مجاعة ؛ وماذا يرى السيد المسيح يا ترى ؟ هل يرى الناس يتصافحون كالإخوان والأصدقاء ؟ لا . بل يراهم يتهاونون لحرب أشد هولاً من

(١) عولنا في هذه الأعداد على إحصاء مؤلف السيرة النبوية الشهير القاضي محمد سليمان المنصور فوري في المجلد الثاني من كتاب سيرة رحمة للعالمين ولم يغادر من الغزوات والبعوث والمناوشات صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، أما إحصاءات غيره من المؤلفين فإنها تمثل عدداً أقل من هذه الأعداد .

(٢) وقد حقق المستر — E. H. Tawansend في مقالة له نشرتها صحيفة هندو الإنكليزية اليومية (٣١ يناير ١٩٤٣ م) أن عدد المصابين في الحرب الكبرى لا يقل عن ٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ٣٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠ القتولون منهم ٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ .

(٣) من مقالة لتاونسند في صحيفة هندو .

الأولى وأعظم فتكا وتعذيبا ؛ يراهم يتسابقون في اختراع الآلات الجهنمية وابتدعون وسائل للتعذيب ^(١) .

وليس اشتغال هذه الشعوب بالعداوة والحروب فيما بينها ، وما هذه القومية والوطنية الخ إلا لانصراف هذه الشعوب عن عداوة عدوها الحقيقي ونسيانها له فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكل ، وكما قال الشاعر الجاهلي :

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

فإذا عرفت عدوها وعرفت ضرره على نفسها ، وعرفت خطره وقوته كان ذلك مشغلة لها عن كل حرب وعداوة وشح ومنافسة وأحقاد وهمية وترات مصطنعة ، عند الحفيظة تذهب الأحقاد ، وهكذا جعل محمد صلى الله عليه وسلم من قبائل العرب المتعادية التي كانت سيوفهم تقطر من دماهم كالأوس والخزرج في المدينة ، وبنو عدنان وبنو قحطان في الجزيرة ، والأجناس المتباينة في العالم ، أمة واحدة ومعسكراً واحداً إزاء الكفر والجاهلية ، إذ جعل لها في خارجها ما تكرهه وتعاديه ، وهو الباطل والطاغوت ووكلاؤه وأنصاره ، وشغلها بحربه وقرأ : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » ففسدت أحقادها وتراتها ولم تتذكرها إلا لما انصرفت عن عدوها وتشاغلت عن قتاله ومعاداته فكانت حروب داخلية وقتن يعرفها الجميع .

دعاية القوميين وإضرارهم بالشعوب الصغيرة :

ولا يزال القوميون في داخل البلاد وخارجها يزينون للشعوب الصغيرة القومية ويطرون أدبها ولسانها وثقافتها وتهذيبها ، ويمجدون لها تاريخها حتى تصبح نشوانة بالعواطف القومية والخيلاء والكبرياء ، وتُدَلِّ بنفسها وتظن أنها مانعتها حصونها

(١) وقد صدقت فراسته ووقع تحت أعيننا ما تنبأ به وقد فاقته هذه الحرب الجارية الماضية فتكا بالأرواح ونسفاً للعمران وتدميراً للبلدان ووفائع تشيب لهولها الولدان وغلاء في السلع وارتفاعاً في الأسعار وأصابت الناس مجاعات شديدة في كثير من الأقطار .

وما أعدت للحرب ، وتنقطع عن العالم وتتحرش أحياناً بالدول الكبيرة غروراً
بنفسها ، أو تهجم عليها الدول فلا تلبث إلا عشية أو ضحاها ، وتذهب ضخمة لقوميتها
وأنحاصرها في دائرة ضيقة ، ولا يغني أولئك المسؤولون عنها شيئاً « كمثل الشيطان
إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك » . كذلك وقع لبولنده وبلجيكا
وهولانده ويونان ودممارك ، وهكذا وقع لايران والعراق في الحرب الثانية .

مطامح الدول الكبيرة :

أما الدول الكبيرة فتري من واجب قوميتها أن تبسط سيطرتها على أكبر
رقعة من الأرض وتزفر أعلامها على مساحات واسعة وإن كانت قفاراً أو صحارى
وتكون لها مستعمرات وممتلكات في قارات مختلفة ، وإن كان ذلك يكلفها جيوشاً
وأموالاً بغير فائدة جدية تعود عليها ويصعب عليها حراستها والقيام بشؤونها ، كل
ذلك مما توجبه عليها شريعة القومية ، وليس لها غاية أخلاقية وثمره أدبية غير ما نسميه
المجد القومى والشرف القومى ، وقد شرح الأستاذ جود المجد القومى بقوله : « إن
المجد القومى إنما يعنى أن يكون الشعب يملك قوة يسلط بها رغبته وهواه على
آخرين إذا مست الحاجة ، ويكفى لشناعة ما يسمونه (المثل الكامل للشعب)
وهو المجد القومى أنه يناقض الصفات الخلقية والفضيلة . إذا كانت بلاد لا تقول إلا
صدقاً ، وتنفى بوعودها وتعامل الضعفاء معاملة إنسانية فستوى شرفها عند الأمم
منحط . فالشرف كما قال المستر بلدون عبارة عن قوة تنال الأمة بها المجد والفخر
وتستلقت إليها الأنظار وتشغل الأفكار ، ومعلوم أن هذه القوة التى تنال الأمة بها
هذه الدرجة من الشرف إنما تتوقف على قنابل نارية متفجرة ومشعلة للنيران ، وعلى
وفاء الشبان وولائهم للوطن ، الذين يحبون إلقاء تلك القنابل على المدن . فالشرف
الذى يمدح لأجله شعب يناقض تلك الصفات والأخلاق التى يمدح بها الفرد ، فأرى
أن الشعب يجب أن يعد همجياً رغباً مهذب بالمقدار الذى يملكه من الشرف ،

إذ ليس من الشرف أن ينال الإنسان أو الشعب الشرف بالخديعة والمكر والظلم^(١)»
ويقول في موضع آخر :

« إن الكبير — أكثر من الطمع — هو الذي يحمل الطبقة الحاكمة في بريطانيا على اتباع خطط لا تتفق مع ما يتظاهرون به من حب الصلح والوثام ، دع رجلا يقترح على ولاية الأمر في بريطانيا أن يهجروا قيراطاً من رمل من ممتلكاتها التي لا تغرب فيها الشمس ومن أشدها قحولة وجدبا ، تر الحافظين الأبطال في إنجلترا يقيمون العالم ويقعدونه سخطا وحنقا ، وتر الصحافة الإنجليزية المعتدلة تتميز غيظاً إذ تعلم أن هؤلاء الحافظين ليسوا طماعين فقط بل هم مستكبرون معاندون^(٢) » .

منافسة الشعوب في المستعمرات والأسواق :

وقد سبقت إلى هذا الاستعمار والامتلاك أمة وتخلفت أخرى ، ثم نهضت الأخيرة تنافسها وتطالب بأسهامها وتبحث لها عن مستعمرات وأسواق لبضائعها وشرفات تغرز عليها علم المجد والفخار ، وتعد بفضلها من الأمبراطوريات الكبار ، وقامت الأولى تدفعها وتحول بينها وبين ما تشتهي ، وتزعم أنها إنما تغضب للأمم الصغيرة ونصرة المظلوم ، ولكن كثيراً من الناس ، من أنفسهم ومن الأجانب يشكون في إخلاص هذه الأمم وفي صفاء طويتها وحسن نيتها . يقول الأستاذ « جود » :

« الإنجليزي — جاهلاً أو متجاهلاً للمسائل التي أدت إلى قسمة ضيزى للعمران ضارباً صفحاً عن سخط بعض الشعوب مثل اليابانيين — يعتقد أن الإنجليز أمة سلمية ويرمي اليابانيين بحب القتال والضراوة بالحروب . الإنجليز لاشك أمة سلمية ولكن مسالمتهم مسالمة لصّ قد اعتزل حرفته القديمة ، وقد أحرز شرفاً وجاهاً بفضل غنائمه السابقة ، وهو يبغض الذين يدخلون جديداً في حرفته القديمة ، عنده فضول أموال وغنائم لا يستهلكها ، ولكنه يلقب الذين يريدون أن يساهموا في ذلك بهواة الحرب^(٣) » .

Guide to Modern Wickedness. P. 153. (١)

Guide to Modern Wickedness. P. 180. (٢)

وكثيراً ما تنشب الحرب بين هذه الأمم السابقة إلى السيادة والتملك وبين الأمم المتطلعة لها الطامحة إليها ، ولكن هذه الحرب لا يصح قياسها على حرب تُشهر لردع الظالم والانتصار للمظلوم وإقامة القسط عملاً بقول الله عز وجل : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءت فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ — (الْحُجُرَات) » ، ولكن هذه الحرب حرب شح ومنافسة ، وحرب غيرة وحسد ، ما كانت جمعية الأمم (الفقيدة) التي كانت هذه الحروب تُشهر تحت إشرافها ، ولا خليفتها « الأمم المتحدة » إلا كما قال الأمير شكيب أرسلان : مثل « العروض بحراً بلا دماء » ما وجدت إلا لتلبس الاعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الأسماء ، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متجاوز . أو في لفظ فقيد الإسلام الدكتور محمد إقبال : « جمعية لصوص ونبّاشين تألفت لتقسيم الأركان » . قال الأستاذ جود الإنجليزي :

« إن حرباً تُشهر تحت إشراف عصبة الأمم ليست للعدل بين الأمم يقوم بها شرطة العالم للأخذ على يد الظالم وعقاب المعتدى ، ليست هذه الحرب إلا كفاحاً بين الطوائف المتنافسة في القوة . الواحدة منها حريصة على المحافظة على القسط الأكبر من ثروة العالم ومواردها والأخرى متهاككة على تحصيلها ، إن مثل هذه الحرب لا تختلف عن حروب نشبت بين الطوائف المتنافسة في الماضي ، ولا عن حروب النمسا وبروسيا^(١) ، وعن حروب السنوات السبع^(٢) وعن حروب نابليون ، وعن حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . لا تختلف هذه الحرب عن هذه الحروب كلها إلا في

(١) حرب منافسة وطبع اشتركت فيها فرنسا وأسبانيا وانجلترا وهولنده لتناول غنائم انتصمت فيها أطراف النمسا وتملكاتها ونشبت على أثر وفاة فريدريك ملك النمسا وجولوس ابنته ميريا تهريسا على العرش بوصيته ورضا الدول سنة ١٧٤٠ وانتهت سنة ١٧٤٨ .

(٢) حروب اشتركت فيها فرنسا وروسيا وسويدن وأكتر إمارات الدولة الألمانية وبروسيا وانجلترا لحماية لبعضها واعتداء على بعضها ابتدأت سنة ١٧٥٦ وانتهت سنة ١٧٦٣ .

الاسم . أما التذرع بأن هذه الحروب إنما نصبت للدفاع عن الديمقراطية وعن عصبة الأمم وضد الفاشية والاعتداء فلا يغير من الموقف شيئاً^(١) .

الاستعمار الأوروبي تجارة منظمة مؤمنة :

فلم يكن الاستعمار الأوروبي إلا نوعاً من التجارة المنظمة المؤمنة والاستثمار للمادى المتواصل ، ليس له غاية سامية أخلاقية أو دينية ولا غرض شريف كالإصلاح والتهديب . وقد صرّح بذلك كبار الدولة ورجال السياسة في إنجلترا . خطب « سيروليم جانسن هك » أحد وزراء بريطانيا في سنة ١٩٣٥ م في المجلس وقال : « إنا لم نفتتح الهند لننفع أهل الهند ، أنا أعلم أن إخواننا المبشرين يقولون في مجالسهم : إنا فتحنا الهند لنزيد في شرف الهنديين ونرتقى بهم إلى مناصب عالية . إن هذه الدعوى ليست إلا خديعة وزورا . لقد فتحنا الهند لنجد سوقاً لبضائع بريطانيا ، لست منافقاً حتى أقول إنا نحكم الهند لصالح أهلها ، إنا نحكم الهند لأجل تجارة بريطانيا وبصفة سوق المنسوجات للنكشير خاصة » .

وقدم كبار السياسيين ورجال الشرف والامتياز في بريطانيا بياناً في سنة ١٩٣٠ اشترك فيه أمثال سير رنجيالد كريدك وسير مائكل أودائر « حاكم مقاطعة بنجاب سابقاً » ولورد سدنهم والجنرال سر كلادجيكب والمؤرخ الشهير سر شارلس أومين قالوا فيه :

« إن الهند أكبر زبون في العالم لمصنوعاتنا ، ولا يمكن لأمة مثل الأمة البريطانية أن تضيع مثل هذا الزبون بغير خسارة فادحة ومن يتحمل هذه الخسارة ، إنما تتحملها مصارفنا وشركات الملاحة في بلادنا ومصانعنا وموظفونا وطبقاتنا العاملة والمستأجرة » .

الفرق بين حكم الجباية وحكم الهرابة :

روى أن عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين قال لعاملة مرة : « ويحك إن محمداً صلى الله عليه وسلم بُعِثَ هادياً ولم يُبْعَثْ جابياً » وهذه الجملة تعرب عن روح

الحكومة الدينية التي تناسس على منهاج النبوة ، وتسير على آثار الأنبياء وخطتها وسياستها ، فتكون عنايتها واهتمامها بالدين وبإصلاح أخلاق المحكومين وبما يعود عليهم بالنفع والضرر في الآخرة أكثر من اهتمامها بالجباية والخراج وأنواع المحاصيل والإيراد ، وتنظر في جميع مسائل السياسة والمالية من الوجهة الدينية وتقدم المبادئ الدينية والخلقية على المنافع والمصالح المادية ، فتمنع الخمر وتحرم الزنا وأنواع الخلاعة والفجور والعقود المالية الفاسدة النافعة للأفراد المضرة بالمجتمع ، فتحظر الربا والقمار وإن كان ذلك يرجع على الحكومة بالخسارة المالية الفادحة ، وتشرع مشاريع إصلاحية وتراقب الأخلاق وتعنى بتهديب النفوس ، وإن كان ذلك يكلفها أموالاً طائلة وميزانية ضخمة ، ونتيجة هذا النوع من الحكومات إذا قامت في بلاد ما بينهما القرآن وتنبا بهما للمهاجرين الأولين : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » .

أما الحكومات التي تقوم للجباية لا للهداية وللانتفاع لا للنفع فطبيعي أن تكون عنايتها مصروفة إلى أنواع الخراج والمحاصيل والغلات ، وكثيراً ما يكون ذلك على حساب الأخلاق والفضائل والنظام المنزلي ، فتبيح أنواعاً كثيرة من الخلاعة والفجور بقيود تنظمها ولا تمنعها ، فتسمح بالبعاء الرسمي ، وقد تراجى بنفسها وتبيح القمار وكثيراً من الجنايات والجرائم الخلقية بتغيير الأسماء وتحديد بعض الأشياء ، تأميناً لمصالحها ، ولا تبيح الخمر فقط بل تبيعها وتتولى تجارتها وتنظيمها وتحكم وتعاقب من يمنعها ويجهاد ضدها ، وقد تجبر أهل بعض البلاد على اشتراء الخدّرات التي تصدرها ، كما فعل بعض الحكومات الأوربية في آسيا مع أهل الصين ، فطبيعي كذلك أن تصاب هذه الشعوب المحكومة في أخلاقها وترزأ في روحها وقلبها ، بل إن أهل البلاد ينحط مستوى أخلاقهم لمجرد المخالطة بهذه الشعوب الحاكمة ومجاورتها ، ويلحقهم عدوى الأمراض الخلقية الفاشية في الأقطار الأوربية التي ولدتها الحضارة المادية هنالك ، وذلك ما أقروا به أنفسهم وشكوا منه .

نشرت جريدة « لندن ديلي ميل » بياناً لسير ابرتهفات لين خلاصته :
 « إن الأمم التي لم تزل تعيش منذ آلاف من السنين حياة راضية قوية أما
 منيت بالبيض الأوربيين وقعت في مصيبة ، وكلما نظرنا في حالهم تساءلنا : هل فشلت
 المدنية في مهمتها ؟ هل يستطيع أحد أن يدعى أنا أفدنا أمة منيت بتجارنا البحرين
 ومبشرينا الدينيين فائدة مادية طفيفة ، وبالعكس من ذلك قد نشر تجارنا البحر يون
 شرب الخمر والأمراض نشرأ هائلا ، والآباء المسيحيون قد غيروا خصالهم وعلموهم تعليما
 أخلاقيا ينتهي بهم لا محالة إلى الهلاك والدمار . »

وقد انعقد مؤتمر للبحث في مسائل الشرق وتجارة الخمر في « باثيل هاوس »
 في لندن تحت رئاسة أسقف لندن قال فيه ميجر « رشردرج » Richard Rigg :
 « ليست هنا مسألة أهم وما يدعو إلى الاضطراب أكثر مما سببته تجارة الخمر
 في فلسطين . كان في القدس خمسة وعشرون حانوتا للخمر مرخصا به ، وقد زاد
 عددها إلى أربعمائة ، أما عددها في فلسطين كلها فسبعون وتسعمائة ٩٧٠ لا أقل
 من ذلك وثلاثة مصانع للخمر زيادة عليها ، وقد تضاعفت حركة إيراد الخمر
 وحوادث الجناية والخصامات والمشاغبات وحوادث السيارة بازدياد ، وأكبر خطر
 على الأخلاق هو ورود المومسات في البلاد ، وكانت الخمر محظورة قبل الحرب
 البتة ، أما منذ أن دخلت البلاد في الحكم البريطاني ألغى تجارة الرقيق وبيع الأفيون
 وبيع الأسلحة للأهالي ، ولكن تجارة الخمر لا تزال حرة لا رقابة عليها^(١) » ويقول
 مسيو فوار Faur المبشر الفرنسي عن الزنوج وما جنى عليهم الاستعمار الأوربي :
 « وبالأخر فلنقل الحقيقة ، وهي أن الزنا مع ما يجره من الأمراض التي كادت
 تفتي هؤلاء الزنوج إنما فشا فيهم بواسطة الأوربيين ، ولستم من جرم بثه الأوربيون
 بين هؤلاء السود البؤساء ، وبما لا نقدر أن نكابر فيه هو أن الاستعمار المصري

إن هو إلا استغلال المستعمرات وأهلها بأى وجه كان ، فمسئولية أوطاننا من هذه الجهة باهظة ، ولا سبيل لإنكارها » :^(١)

وقد اقترح بعض المفكرين فى إنجلترا فى إحدى الصحف فى سنة ١٩٢٨م أن تنشر الأمم المستعمرة حركة منع الولادة التى كادت تقطع دابر الأوربيين وتأتى على نسلهم — فى غير الأوربيين ، لثلا تسبق هذه الأمم الغربيين فى وفرة العدد فى المستقبل .

فالحكومات الأوربية تحمل معها مفاصد الحضارة الغربية وشرورها ، وكيف يرجى من هذه الحكومات أن تزدهر الفضيلة والأخلاق ويرقى مستوى أخلاق الشعب فى ظلها ودولتها ، ولم يكن ذلك فى بلادها وأوطانها ، وليس ذلك من رسالتها ومهمتها ، ولا مما تدين به وتعتقده ، « وكل إناء بالذى فيه ينضح » ، ولم تنزل طريق الملوكة والفاطمين غير طريق الأنبياء والهداة والمصلحين ، وإن الحقيقة التى ذكرها القرآن على لسان ملكة سبأ حقيقة راهنة لا تختلف فى الأزمنة والأمكنة : « إن الملوكة إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » .

الفصل الثالث

أوروبا إلى الانتحار

عصر الاكتشاف والاضرع :

إذا عُرِفَت عصور التاريخ بما يميزها عن غيرها ، وأضيفت إليه ، أمكننا أن نسمي هذا العصر عصر الاكتشاف والاختراع ، وعصر اللاسلكي والكهرباء ، وفضل الأوربيين وتقدمهم في هذا الباب وعبقريه رجال الاكتشاف والاختراع وإبداعهم من القضايا التي لا تقبل المكابرة .

ولكن مهما بالغ المبالغون في إطراء الصناعات والمخترعات الحديثة في أوروبا ، ورغم إعجابنا بها والثناء على مكنسفيها ومخترعيها ، ينبغي ألا ننسى أن هذه الصناعات والمخترعات ليست غايات في نفسها مقصودة بالذات ، بل هي وسائل ووسائل لغاية أخرى نحكم عليها بالخير والشر ، والنفع والضرر ، بمقياس هذه الغاية ، وكونها خيراً أو شراً ، ونحكم عليها بالنجاح والفشل بالقياس إلى مطابقتها للغاية التي وضعت لها ، والنظر في النتائج التي حصلت منها ، والدور الذي لعبته في حياة الناس ومجتمعهم وأخلاقهم وسياساتهم .

الغاية من الصناعات والمخترعات وموقف الإسلام منها :

أما الغاية ، فعلى ما أرى هي التغلب على العقبات والصعوبات في سير الحياة التي سببها الجهل والضعف ، والانتفاع بقوى الطبيعة المودعة في هذا الكون ، وخيراتها وخزائنها المبعثرة فيها ، واستخدامها لمقاصد صحيحة من غير علو في الأرض ولا فساد .

كان الإنسان يسافر في الزمن القديم ماشياً ، ثم ألهم أن يسخر لذلك الحيوان فاتخذ العجلات واتخذ الجياد العتاق ، ثم لم يزل يتدرج في السرعة والاختراع حتى وصل من المركبة إلى القطار ومنه إلى السيارة ومنها إلى الطائرة ، وكذلك من السفينة الشراعية إلى البواخر ، فلا بأس ، بل يا حبذا إذا كان ذلك كله تابعاً لمقاصد صحيحة يسافر الإنسان بها من مكان إلى مكان لغرض صحيح جدوى مثمر ، ويحمل عليها أثقاله إلى بلد لم يكن بالغه إلا بشق النفس ، ويوفر الوقت والقوة وينتفع بها في الخير . وقس على ذلك سائر القوى الطبيعية والمخترعات الحديثة التي ينتفع بها الإنسان انتفاعاً مشروعاً ، ويستخدمها لمقاصد رشيدة نافعة .

إن موقف الإسلام في ذلك بين واضح ، فقد أخبر أن الإنسان خليفة الله في الأرض ، قد سخر الله العالم لأغراضه الصحيحة بتصرف منه وغير تصرف فقال : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » ، وقال : « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » (إبراهيم) ، وقال : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » (الإسراء) . ليلاحظ القارئ الإطلااق في قوله : حملناهم في البر والبحر ؛ وقوله : ورزقناهم من الطيبات ، وقال : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرهوف رحيم ، والحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » (النحل) . قد من الله في هذه الآية على الإنسان بتمكينه بلوغ غايته من غير شق النفس ، واستدل به على رأفته به ، ورحمته له ، وقال : « الذي خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون

لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » (الزخرف) . وما أجدر الإنسان أن يقول إذا استوى على سسيارة أو طيارة : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، فهو أبعد من أن يكون مقرناً لقطع من صفيح وحديد لا حياة فيها ولا حركة ، يسخرها له تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ولا ينس أنه راجع إلى الله ومحاسب على ما أوتى من قوة وسعة ، فإن أساء استعمال هذه القدرة والتمسكين عوقب على ذلك . وكذلك لا ينس أنه عبد خاضع لله منقاد لحكمه لا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولا يطفئ ، فإن الإنسان ليطفئ أن رآه استغنى .

وقال : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله لقوى عزيز » (الحديد) . فالحديد فيه منافع للناس ومن أكبر منافعها أنه يُستخدم لنصر الله ورسله ، ولذلك قدم عليه ذكر إرسال الرسل ، وإزالة الكتب .

فالمسلم ينتفع بكل ما خلق الله وأودع في الكون من قوة في سبيل الجهاد في سبيل الله ، وفي نشر دينه ، وإظهاره على الدين كله وإعلاء كلمته ، وفيما أباح الله له ورغبه فيه من تجارة مشروعة ، وكسب حلال ، وسفر بر ، ومنافع مباحة .

إنما طأركم معكم :

إن المصنوعات الجمادية لا ذنب عليها . فإنها خاضعة لإرادة الإنسان وعقليته وأخلاقه ، فهي في ذات نفسها ليست خيراً ولا شراً ، ولكن الإنسان هو الذي يجعلها باستعماله لها خيراً أو شراً ، وكثيراً ما تكون خيراً في نفسها ، فيحولها الإنسان شراً بسوء استعماله وخبث سريرته ، وفساد تربيته ، فليس الشأن في هذه الآلات والمخترعات ، إنما الشأن فيمن يستعملها وفي الغرض الذي يستعملها له . وحقيق أن

يقال — لمن أصبح يتطير في أوروبا من هذه الآلات ، ومن الطيارات التي تقذف القنابل ، وتدمر المنازل ، وتنسف القرى والمدن ، والغواصات التي تفرق بواخر الركاب المسلمين والتجار الأمنين ، واللاسلكية التي تذيع الكذب والزور ، وتنتشر الخلاعة والمجون ويشكو منها ، ويوجه إليها اللام — : « إنما طأركم معكم » فإن العلوم الطبيعية تسخر للإنسان القوة المادية ، وأيس من شأنها أن تعلمه أيضاً كيف يستعملها ، وفيه يضعها ، كالكبريت يعطيك ناراً ، ولك أن تحرق بها بيتاً على سكانه ، أو تطبخ طعاماً أو تستدفئ بالنار ، والذي يعلم كيف يستعمل الإنسان القوة وفيه يضعها هو الدين ، فالدين يرشد الإنسان كيف ينتفع بقوته انتفاعاً حقيقياً ، وكيف يشكر نعمة الله ، ويحظر على الإنسان أن يكون بقوته التي خولّه الله إياها معيناً على الظلم والجريمة والإثم والعدوان ، كما قال موسى عليه السلام : « رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين » (القصص) . وقال سليمان : « هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم » .

التخلّط بين الوسائط والغايات :

أما الأوربيون فقد حرموا أنفسهم من الدين ، فلم يبق لهم رادع من خلاق أو وازع من دين ، أو مرشد من علم إلهي يرشدهم إلى الجادة ، ونسوا غاية خلقهم ومبدأهم ومصيرهم وقالوا : « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » فاعتقدوا بطبيعة هذه العقيدة أن ليس للإنسان وراء الأذى والراحة والانتفاع المادى والعلو في الأرض وبسط السيطرة عليها — كملك لا سيد لها ولا وارث — والتغلب على أهلها والاستئثار بخيراتهم وخزائنها ، مقصد ولا غاية ، فاستعملوا هذه القوة والعلم في حصول اللذات والتغلب على الناس وقهر المنافسين ، وتنافسوا في اختراع الآلات التي ينالون بها وطهرهم ويعجزون بها غيرهم ، ولم يزل بهم ذلك حتى اختلطت عليهم الوسائط بالغايات ، فاعتقدوا الوسائط غايات ، وافتتنوا بالاختراعات والمكتشفات كغاية

في نفسها لا غيرها ، وعكفوا عليها وتشاغلوها بها كتشاغل الصبيان باللعب والدمى ، واعتقدوا أن الراحة هي الحضارة ، ثم تقدموا أيضاً وصاروا يعتقدون أن السرعة هي الحضارة . يقول الأستاذ جود : « يقول دزرائيلي Disraeli إن المجتمع في عصره يعتقد أن الحضارة هي الراحة ، أما نحن فنعتقد أن الحضارة عبارة عن السرعة ، فالسرعة هي إله الشباب العصري ، وإنه يضحي على نضبه بالهدوء والراحة والسلام والعطف على الآخرين من غير رحمة ^(١) » .

عدم تعادل القوة والأخلاق في أوروبا :

إن الأوربيين قد فقدوا تعادل القوة والأخلاق والتوازن بين العلم (بظاهر من الحياة الدنيا) والدين منذ قرون ، فلم تزل القوة والعلم في أوروبا بعد النهضة الجديدة ينموان على حساب الدين والأخلاق ، ولم يزل الأولان في ارتفاع وارتقاء ، والآخران في انخفاض وانحطاط ، حتى بعدت النسبة بينهما ، ونشأ جيل كأنه ميزان لصقت إحدى كفتيه بالأرض وهي كفة القوة والعلم ، وخفت الثانية (وهي كفة الأخلاق والدين) حتى ارتفعت جداً ، وبينما يتراءى هذا الجيل للناس في خوارقه الصناعية ومجانيه السكونية وتسخييره للمادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه كأنه فوق البشر إذا هو لا يتميز في أخلاقه وأعماله ، في شرهه وطمعه ، في طيشه ونزقه ، وفي قسوته وظلمه عن البهائم والسباع ، وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة ، إذا هو لا يدري كيف يعيش ! وبينما هو قد بلغ الغايات ووراء الغايات في الكماليات وفضول الحياة ، إذا هو لم يعرف المبادئ الأولية والبدهييات للحياة الإنسانية والمدنية والأخلاق ، فتراه يصعد إلى السماء ويريد أن يناطح الجوزاء ، وهو لم يتقن شئون الأرض ولم يصلح ما تحت قدميه ، وقد خولته العلوم الطبيعية قوة فاهرة وهو لا يحسن استعمالها ، كطفل صغير أو سفينة أو مجنون يملك أزمة الأمور ويؤتي مفاتيح الخزائن ، فهو لا يزيد على أن يعيث بالجواهر الغالية والنفائس المخزونة ويعيث في دماء الناس ونفوسهم .

قوة الآلة وعقل الأطفال :

يقول الأستاذ جود الإنجليزي : « إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش ^(١) »

ويقول في موضع آخر :

« إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة ، وطفولتنا الاجتماعية لمخجلة ، نواجهه على كل منعطف ومنعرج ؛ نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار ونرسل الصور بالبرق وننصب اللاسلكية في منازلنا ونستمع في سيلان إلى دقات (big ben) — الساعة العظمى — تضرب في لندن ، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتهما ، والأطفال يتحدثون على الأسلاك البرقية ، والآلات الكاتبة صامتة ، وتملأ الأسنان من غير إجماع ، والزروع تنمى بالكهرباء ، والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة رونتجن (x - rays) ، نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصُّور المتحركة تتكلم وتغنى ، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والغواصات نذهب إلى القطب الشمالى ، والطائرات تطير إلى القطب الجنوبي ، ومع ذلك كله لا نقدر في وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء في راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين (٢٠٠٠) ونجرح منهم تسعين ألفاً (٩٠٠٠٠) سنوياً . قال لى فيلسوف هندي في انتقاده اللاذع لإطرائى لعجائب حضارتنا وكان بعض سواق السيارات قد نجح في قطع ثلثمائة أو أربعمائة ميل في ساعة على رمال (pendine) ، وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في عشرين أو خمسين (لا أذكر) ساعة ، قال الفيلسوف : نعم ! إنكم تقدرون أن تطيروا في الهواء كالطيور وتسبحوا في الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض ^(٢) »

Guide to Modern Wickedness. P. 261 (١)

Guide to Modern wickedness. P. 293 (٢)

ويعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم :

وقد أصبحت هذه المخترعات والمكتشفات الجديدة — مما كانت تعود على النوع الإنساني بخير كبير لو كان مستعملها يعرف الخير ويقدر أن يتجه إليه — أصبحت وضررها أكبر من نفعها ، وكان كما قال القرآن عن السحر : (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) . اسمع شاهداً من أهلها ينتقد هذه المخترعات ويبوح بالحقيقة وهو « جود » السابق الذكر :

« وقد استطعنا أن نساfer بسرعة زائدة من مكان إلى مكان ، ولكن الأمانة التي نساfer إليها قلما تصلح للسفر ، قد زويت الأرض للرحالين وتدنأت الأمم ووطئ بعضها عتبة بعض ، ولكن كان نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بينها وأصبحت أسوأ مما كانت ، أما المرافق التي استطعنا بها أن نتعارف بجيراننا فقد عادت فحشرت العالم في الحرب ، اخترعنا آلة الإذاعة وتحدثنا بها إلى الشعوب المجاورة والأمم الشقيقة ، ولكن كان عاقبتها أن كل شعب يستنفد موارد الهواء لا يذء الشعب المجاور ومعاكسته ، إذ يجتهد أن يقنعه بفضل نظامه السياسي على نظامه ^(١) » .

« انظر إلى الطيارة التي تخلق في السماء يُخيل إليك أن صانعيها كانوا في علمهم ولباقتهم وصناعتهم فوق البشر ، والذين طاروا عليها أولاً لا شك أنهم كانوا في علو همتهم وعزمهم وجراتهم أبطالا مغاوير ، ولكن انظر الآن إلى المقاصد التي استعملت لها الطيارة وتستعمل لها في المستقبل ؛ إنما هي قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان وخنق الأحياء وإحراق الأجساد وإتقاء الغازات السامة ، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إرباً إرباً ، وهذه إما مقاصد الحق أو الشياطين ^(٢) » .
« وما عسى أن يقول المؤرخ غداً كيف كنا نستعمل معدن الذهب ؟ سيذكر أنا توصلنا إلى أن نخبر عن الذهب باللاسلكي ، وسيستعرض الصور التي تمثل اللباقة

Guide to Modern Wickedness. P. 247 (١)

Guide to Modern Wickedness, P. 262 (٢)

والمهارة التي كان أصحاب المصارف يزنون بها الذهب ويعدونه ، وكيف تحدينا قانون الجاذبية في نقله من عاصمة إلى عاصمة ، وسيسجل أن أشباه الوحوش الذين كانوا ماهرين وجراء في فتوحهم الصناعية كانوا عاجزين عن التعاون الدولي الذي كان يقتضيه ضبط الذهب والتقسيم الصحيح ، وكانوا لا يُعنون إلا بأن يدفنوا المعادن بالسرعة الممكنة ، وكانوا يستخرجون الذهب والمعادن من بطون الأرض في جنوب إفريقيا ، ويدفنونها في مصارف لندن ونيويورك وباريس^(١) .

أوروبا في الانتحار :

والحاصل أن الغربيين لما فقدوا الرغبة في الخير والصلاح ، وضيعوا الأصول والمبادئ الصحيحة ، وزاغت قلوبهم وانحرفت واعتلت أذواقهم لم تزدهم العلوم والمخترعات إلا ضررا ، كما أن الأغذية الصالحة تستحيل في جسم الممعدود والموبوء مرضاً وفساداً ، بل لم تزدهم هذه الآلات والمخترعات إلا قوة وسرعة في الإهلاك واستعانة على الانتحار ، وقد أحسن المستر إيدن Eden وزير خارجية بريطانيا وصف ذلك في بعض خطبه سنة ١٩٣٨ م :

« إن أهل الأرض كادوا يرجعون في أخريات هذا القرن إلى عهد المجهمية والوحشية ، ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات ، ومن الغريب المضحك أن البلاد والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها ، ولكنها لا تنفق على ضبطها . وإني أتعجب في بعض الأحيان وأقول : كيف لوزار العالم الجديد زائر من كوكب آخر وهبط إلينا فما عسى أن يشاهده ؟ سيجدنا نعدّ العُدّة لإهلاك بعضنا ، وتبادل الأنباء عنها ويخبر بعضنا بعضا كيف نستعمل هذه الآلات الجهنمية » .

القنبلة الذرية وفظائعها :

لعل المستر إيدن لما أفضى بهذا الحديث لم يدرك بخلده أن العالم المتمدن وعلى رأسه أميركا رسول السلام وزعيم الحضارة والعالم الجديد ستتوصل أثناء الحرب إلى استعمال آلة تبذ جميع الآلات والمخترعات في التدمير والتقتيل، وتفوق ذكاء الإنسان وخياله في الهول والفظاعة . قد كانت هذه الآلة هي القنبلة الذرية ، التي جرّبتها أمريكا مرة في صحراء نيوميكسيكو ، وثانية على رموس البشر في مدينة هيروشيما ، وبعدها في نجازاكي المدينتين اليابانيتين . وإليك تفصيل الحادث حتى تعلم مقدار قوة هذه الآلات المستحدثة ، وخطرها على مستقبل النوع الإنساني وعلى سير الحياة :

« في فجر اليوم السادس عشر من شهر يوليو سنة ١٩٤٥ جرّبت القنبلة الذرية الأولى في صحراء نيوميكسيكو ، كان الجو مكفهرًا والمطر ينهمر ، وكان البرق يشق بسيفه صدر السحاب الأدكن الكثيف ، فيهب نفوس العلماء المقيمين في أبراج للمراقبة تتدرج بُعْدًا عن القنبلة ، وأقربها إليه لا يقل عن عشرة آلاف قدم ؛ ففي أعلى برج القنبلة قنبلة كلف إخراجها ألفي مليون من الريالات وجهود ألوف من العلماء والباحثين والعمال ، وليس بين العلماء الرابضين في أبراج المراقبة رجل واحد يعرف ما سيكون من أمرها ساعة تدار الأزرار ، وتنطلق الطاقة الهائلة المطوية بين جوانحها ، فقد جاءوا إلى هذه الصحراء ليفجروا أول قنبلة ذرية صنعها الإنسان بيده ، فإذا تم التفجير وفقاً للحساب الذي حسبوه - انتقل البشر على هديره إلى عصر جديد ؛ عصر الطاقة الذرية خيراً كان ذلك أو شراً ، إنها لساعة رائعة من ساعات التاريخ .

في يوم السبت الموافق للاربع عشر من شهر يوليو سنة ١٩٤٥ رفعت القنبلة إلى قمة البرج ، ومضى العلماء والخبراء خلال ذلك اليوم واليوم الذي يليه في إنجاز الأعمال التي تعد القنبلة لساعتها الفاصلة ، فوصلوا ببرجها جميع الأجهزة والأدوات اللازمة لإعطاء الإشارة الأخيرة لتفجيرها ، ولقياس قوة الضغط والحرارة والإشعاع وما أشبه ذلك ، وقد عين ميعاد تفجيرها في فجر اليوم السادس عشر من يوليو ، وعُهِدَ إلى

ما بين ١٩٤٥
سنة
نابذة
نقد

الدكتور أوبنهايمر - الذى أشرف على صنعها - أن يتولى الفصل الأخير فى هذه الرواية الدهرية الرائعة ، وأقام فى برج المراقبة - يبعد ١٧ ألف ذراع عن برج القنبلة - كبار العلماء ورجال الإدارة الذين تعهدوا المشروع منذ مراحله الأولى .

وفى الساعة الثالثة صباحا انتقلت الجماعة إلى برج المراقبة يبعد ١٠ آلاف ذراع عن برج القنبلة ، واتصل الدكتور أوبنهايمر والجنرال جروفر برجال الأرصاد الجوية فوجدوا أن أحوال الجو غير مواتية ، ولكنهم قرروا أن يمضوا فى التجربة دون تغيير فيها ، فقد كان رأى أن يستعينوا بطائرات محلقة لمراقبة التفجير من أطباق الجو ، فحال انهمار المطر واكفهرار الجو دون ذلك ، فعزموا على مضض أن يمضوا فى التجربة بدون الطائرات ، وجعل زمن التفجير فى الساعة الخامسة والنصف صباحا .

هاهى ذى الدقيقة العاشرة بعد الخامسة وكل من العلماء ورجال الحكم جالس أمام مذبح ينصت ، وإذا صوت الدكتور اليسون من عظام جامعة شيكاغو يقول : لم يبق سوى عشرين دقيقة - خمس عشرة دقيقة - عشر دقائق - خمس دقائق ، وكانت الفواصل بين هذه الإذاعات فى نظر هؤلاء الناس المتلهفين كأنها دهور طويلة ، وإذا صوت اليسون يقول : دقيقة واحدة - ٤٥ ثانية - ٤٤ ثانية - ٤٣ ثانية . وفى تلك اللحظة تولى الجهاز الآلى الذى يفجر القنبلة النياحة عن العلماء ، فقد خرج الآن أمر تفجيرها من أيديهم ولا حيلة فى منعه لو هم أرادوا .

ثم جاء صوت المذيع على الراديو يقول : (الآن) :

وإذا برىق يبهى البصر وكان من الرجال فريق قد استدبر برج القنبلة ورمى ببصره إلى سلسلة من الجبال عند أفق الصحراء تبعد عنهم ثلاثة أميال ، فوجد نور الانفجار يضىء تلك السلسلة ، وتبدو معالمها واضحة لأعينهم على صفحة الأفق ، وقد مرت هنيهة لم يسمعوها فيها صوتاً ، لأن الضوء أسرع كثيراً من الصوت ، ثم جاءهم هدير مدمدم متصل وموجة طاغية من الريح ، وقد صدمت هذه الموجة رجلين واقفين خارج برج المراقبة فطرحتهما أرضاً .

ونظروا إلى المكان الذي قام فيه برج القنبلة فإذا سحابة ضخمة فائرة مختلف ألوانها ، وإذا هي ترتفع إلى ٤٠ ألف قدم ، وما هي إلا ثوان حتى تحولت غبراء دكناء على ذلك الارتفاع العظيم ، فلما تبددت السحابة نظروا فلم يجدوا برجاً . فهذا البرج المصنوع من الصلب الذي رُفعت القنبلة على قمته قد تبخر ووجدوا تحته هوة فاغرة .

وقد روى أحد سكان مدينة « سلفرستى » التي تبعد مئة ميل عن مكان التجربة أن الهدير بداله كأنه دمدمة رعد قوى ، فارتجت المنازل وتكسر زجاج النوافذ في كثير منها ، وقالت سيدة إنها رأت وهج الانفجار وسمعت هديراً ساعة قطعت بسيارتها الحد الفاصل بين ولاية ميكسيكو وولاية إريزونا في مكان يبعد ١٥٠ ميلاً عن مكان التجربة ، قالت : كنا قد برحنا بلدة سافورد لساعتنا فإذا الجبال يغمرها ضياء كضياء النهار نحو ثلاثة ثوان ، ثم ران الظلام ثانية فكأنما الشمس قد طلعت علينا هنيئة ثم اختفت فجأة وراء الأفق — كان ذلك يوم القنبلة الذرية الأولى .

ولم تسكد تنقضى ثلاثة أسابيع على يوم القنبلة الذرية الأولى في صحراء نيوميكسيكو حتى انطلقت قاذفة أمريكية من طراز القلاع الطائرة الضخمة فخلقت فوق قاعدتها في جزائر ماريانا ، ثم استوت في الجو واتجهت شمالاً إلى امبراطورية الشمس الطالعة ، وكانت وجهتها مدينة هيروشيما أول مدينة في التاريخ كانت هدفا لقنبلة ذرية .

وهيروشيما مدينة قديمة يرتزق أهلها من الصناعة الخفيفة والتجارة ، ولكنها صارت في الحرب الماضية قاعدة كبيرة لتخزين العتاد وتموين الجيوش ، وقد قيل إن عدد سكانها ثلاثمائة ألف أو يزيدون ، ولكن طائفة غير قليلة منهم أجليت عنها قبل القنبلة الذرية ، فينلب أن عدد سكانها في صباح السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥ كان أدنى إلى ربع مليون منه إلى ثلث مليون نفس .

في الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم ولوت صفارة الإنذار في أحياء المدينة ،
ورؤى أن في الفضاء المجاور لثلاثة طائرات فلم يقاتل ذلك أحداً من سكانها ، فقد
ألقوا في العهد الأخير رؤية أسراب من القلاع الطائرة الضخمة تعبر جوها منطلقاً
إلى أهدافها في مناطق أخرى من اليابان ، ولكن هيروشيما لم تمس وقد يحيى دورها ؛
فلذلك عمدت الحكومة إلى إجلاء بعض السكان ، وإعداد المطافيء لمغالبة النار
حين تلقى عليها القاذفات المنيعة عشرات الألوف من قنابلها المحرقة ، ونظر السكان
إلى الطائرات الثلاث أو تسامعوا بها فهجس في نفوسهم أن يوم الغارة الكبيرة على
هيروشيما ليس هذا اليوم ، وفي الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين انطلقت صفارات
الإنذار معلنة زوال الخطر فانصرف الناس إلى أعمالهم ، ولكن جماعة منهم تألبت
قرب دار المحافظة ، ورفعت أبصارها إلى الفضاء تتأمل في ثلاث مظلات منها ، وفي
جو الصباح الصافي كعين الديك ، فانفجرت القنبلة الذرية على مئات من الأمتار
فوق رؤسهم .

وقد روى الناس الذين كانوا على أميال من قلب المدينة في جميع الجهات ، في الحقول
والجبال وفي الزوارق على ماء الخليج أنهم رأوا ضياءً كان باهراً حتى في رائحة النهار ،
وشعروا بالحرارة تلفحهم ، وكانت فلاحه ذاهبة إلى مزرعتها فإذا هي ترى ضوءاً
ينعكس على صفحة الجبل ، ثم خطأً من الضياء وكأنه شرارة برق ، وكانت امرأة تغسل
التياب فقالت إنها لاحظت أن خدها القريب من الجدار قد لقيته حرارة لم تألفها ،
فنظرت ناحية المدينة فرأت شيئاً كالشمس زاهي اللون ، وكان رجل يزيت أجزاء
آلته في مصنع فإذا الأنوار تنطلق ، فظن خللاً في السلك الكهربائي ، فلما بدأ السقف
ينهار ذهل عن نفسه ، ثم لاحظ أن الدم يسيل من يديه ورجليه فلم يفهم كيف
كان ذلك .

وهذه طائفة يسيرة من أقوال الذين رأوا القنبلة الذرية في هيروشيما ، وظلوا على قيد

الحياة ، ولكن سبعين ألفاً إلى ثمانين من أهلها هلكوا في ذلك اليوم^(١) ساعة تفجرت قنبلة واحدة بقوة ٢٠ ألف طن مادة ت ن ت المتفجرة .

« فساعة تفجر قنبلة ذرية في قلب مدينة تحس كأنك ولدت لساعتك قطعة صغيرة من الشمس ، فثمة أولاً كرة النار قد يبلغ قطرها ثلث ميل ، وحرارتها في قلبها قد تكون نحو مليوني درجة مئوية أو تزيد ، وهذه الحرارة الهائلة التي تتولد على حين فجأة تحدث موجة من الضغط الفظيع العنيف ، وشاهد ذلك القنبلة الخامسة التي فجرت تحت سطح الماء في بيكينى ، فدفعت في الفضاء عموداً ضخماً من الماء قطره ألفا قدم وزنته نحو خمسة ملايين طن ، فارتفع هذا العمود ميلاً في دقيقتين ونصف دقيقة ، ثم انطلق من هذا العمود قدر عظيم من الماء نصف ميل في الفضاء على شكل مظلة ، ثم غلبته الجاذبية على أمره فبدأ يتهاوى ، وتحبب في أثر موجة الضغط رياح قد تبلغ سرعتها ٥٠٠ ميل في الساعة إلى ألف ميل فتدمر المباني وتصدها ، ويصحب الحرارة والضغط موجة من الإشعاع الذى يخترق الأجسام ، ولا تغنى في توقيه جدران من المباني سمكها قدم أو أقل ، وهذا الإشعاع يؤثر في الأنسجة التي تولد كريات الدم في نخاع العظام ، فيعجز الدم عن القيام بوظيفته وهو لا يتجمد ولا يتخثر ، ولكنه يسيل من أنسجة لم يشق ولم تجرح إلى فجوات في باطن الجسم ، أو ينزل من الجلد كما حدث لذلك العامل اليابانى الذى ذكرته ، وتزول كريات الدم البيض التي تكافح المرض في البدن ولا يلبث المصاب أسبوعين حتى يهلك .

ذلك كان يوم هيروشيما ، وعلى غرارها كان يوم نجازاكي .

وأهل العلم والحرب يقولون إنه إذا نشبت حرب ذرية لا قدر الله فلن تقتصر على قنبلة ومدينة ، بل قد تشمل مدناً كثيرة ومئات أو ألوفاً من القبائل ، فهذا سلاح

(١) أذاع رئيس بلدية هيروشيما في ٢٠ أغسطس ١٩٤٩ م أن الذين هلكوا في اليوم السادس من أغسطس ١٩٤٥ م من اليابانيين يتراوح عددهم بين مائتى ألف وعشرة آلاف ومائتى ألف وأربعين ألفاً (ب - ت) .

- على ما جاء في التقرير الرسمي عن الطاقة الذرية - له قدرة على التدمير تفوق أعظم ما يباغته الخيال ، وهو سلاح شديد الملاءمة للهجوم المفاجيء . بلا إنذار ، فنستطيع الدولة التي تحدثها النفس بالاعتداء أن تدمر بين عشية وضحاها أعظم المدن في دولة أخرى تربطها بها في الظاهر أواصر الصداقة والود^(١) .

يقول المستر استورت (Stuart Gilder) ، في مقالة نشرتها صحيفة الهند الإنجليزية السيارة (Statesman) في عددها الصادر في ١٦ سبتمبر ١٩٤٥ .

يقول البروفسور (Pleseh) : « لا يؤمن على الناس الذين كانوا يبعدون عن المنطقة التي انفجرت فيها القنبلة الذرية بمائة ميل أن يكونوا قد تأثروا بها ، فينبغي أن يفحص عنهم فحصاً طبياً ، ولا يستغرب أن يصبح الناس يوماً وبقراً في الجرائد أن علامات الإصابة بطاعون القنبلة الذرية قد ظهرت في الذين يسكنون على آلاف أميال من اليابان » .

ويقول البروفسور « م . ي . أولى فنيت » معلم جامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية في إعداد القنبلة الذرية :

« من الأمور الخرافية أن يعتقد إنسان أن بريطانيا أو دولة أخرى تستطيع أن تحافظ على سر القنبلة الذرية ، إن المبادئ التي قامت عليها صناعة القنبلة الذرية مكشوفة لكل دولة ، إن بريطانيا وأمريكا استفادت بتجاريب السابقين وبلغنا إلى نهاية صناعة القنبلة الذرية ، واسكها لا تدوم سراً حربياً إلا لأجل محدود ، لأن كل بلاد صناعية تستطيع أن تعد القنبلة الذرية في مدة خمس سنوات ، وإذا أفرغت جهودها ووجهت قواها إلى صناعتها فيمكن أن تبلغ إلى نهايتها في سنتين » .

ويقول البروفسور المذكور : « وأنا على يقين أنه سيظهر في مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن في قوة الانفجار ، وستليها قنابل قوتها مليون طن ، ولا ينفع في التوقي منها دفاع أو احتياط ، وإن ست قنابل

(١) من رسالة « النار الخالدة » للأستاذ فؤاد صروف ٤٨ - ٥٩ .

فقط من هذا القبيل تكفى في تدمير إنجلترا على بكرة أبيها ، وإن العلماء الروسين ينجحون في إعداد القنابل في مدة قصيرة جداً » .

لقد أصبحت القنبلة الذرية بعد انفجارها في هيروشيما حديث الصحف والمجلات والكتب والرسائل والنوادي ، وأصبحت أهم حديث وأمتعته رغم هوله وأكبر موضوع علمي وعملي ، وهناك دقائق علمية عن صناعتها وتركيبها وتفاصيل هائلة عن انفجارها وما أحدث من فظائع وخسائر ، وفيما نقلنا بلاغ من هولها ومدى تأثيرها وعن مصير الإنسانية البائسة في عهدا كشفها .

والذي خبث لا يخرج الانسكدا :

وقد تضعف أساس المدنية الأوربية كما ذكرنا بتفصيل ، ولم يزل بناؤه متزعزعا ، ولم تزد الأيام ولم يزد الارتفاع إلا زيفاً واختلالاً ، وفسدت بذرتها فلم تصلح شجرتها ولم تطب ثمرتها ، والبلد الطيب يخرج نباته يأذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا انسكدا .

وقد شرح ذلك في إيجاز الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي الهندي في أحد فصول كتابه « تنقيحات » الأوردية قال :

« ظهرت الحضارة الغربية في أمة لم يكن عندها معين صاف ولا نبع عذب للحكمة الإلهية ، لقد كان فيها قادة الدين ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم ولا شريعة إلهية ، ولم يكن عندهم إلا شبح ديني لو حاول أن يسير بالنوع الإنساني على صراط مستقيم في طرق الفكر والعمل لما استطاع ، ولم يكن له إلا أن يكون حجر عثرة وسدا في سبيل ارتقاء العلم والحكمة ، وهكذا كان ، وكان عاقبة ذلك أن الذين كانوا يريدون الرقي نبذوا الدين بالعراء ، واختاروا طريقاً لم يكن دليلهم فيها إلا المشاهدة والاختبار والقياس والاستقراء ، ووثقوا بهذه الدلائل التي هي في حاجة بنفسها إلى الهداية والنور ، وجاهدوا واجتهدوا باحتذائها في طرق الفكر والنظر

والتحقيق والاكتشاف والبناء والتنظيم ، ولكن ضلت خطواتهم الأولى في كل جهة وفي كل مجال ، وانصرفت فتوحهم في ميادين العلم والتحقيق ، ومحاولاتهم في سبيل الفكر والنظر إلى غاية لم تكن صحيحة ، إنهم بدأوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية ، نظروا في الكون على أنه ليس له إله ، نظروا في الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس ، وليس وراء هذا الستار الظاهر شيء ، إنهم أدركوا نواميس الفطرة بالاختبار والقياس ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها ، إنهم وجدوا الموجودات مسخرة واستخدموها لأغراضهم ، ولكنهم جهلوا أنهم ليسوا سادتها ومدبريها ، بل هم خلفاء سيدها الحق ، فلم يروا أنفسهم مسئولين عنها ، ولم يروا على أنفسهم عهدة وتبعة ، فاختل أساس مدنياتهم وتهذيبهم ، وانصرفوا من عبادة الله إلى عبادة النفس ، واتخذوا إلههم هواهم ، وفتنتهم عبادة هذا الإله ، وسارت بهم هذه العبادة في كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق زائفة خلافة رائعة ، ولكن مصيرها إلى الهلاك ؛ هذا هو الذي مسح العلوم الطبيعية فصارت آلة هلاك الإنسان ، وصاغ الأخلاق في قالب الشهوات والرياء والخلاعة والإباحة ، وسلط على المعيشة شيطان الأثرة والشح والفتك بيني النوع ، ودس في عروق الاجتماع وشرائنه سموم عبادة النفس والأنانية والإخلاد إلى الراحة والتنعم ، ولطخ السياسة بالجنسية والوطنية وفروق اللون والنسل وعبادة إله القوة ، فجعلها لعنة كبرى للإنسانية . والحاصل أن البذرة الخبيثة التي أقيت في تربة أوروبا في نهضتها الثانية لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة ، ثمارها حلوة ولكنها سامة ، أزهارها جميلة ولكنها شائكة ، فروعها مخضرة ولكنها تنفث غازا ساما لا يرى ولكنه يسمم دم النوع البشري .

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة قد مقتوها وأصبحوا يتذمرون منها ؛ لأنها خلقت في كل ناحية من نواحي حياتهم مشاكل وعقداً لا يسعون لحلها إلا ظهرت مشاكل جديدة ، ولا يفصلون فرعاً من فروعها إلا وتطلع

فروع كثيرة ذات شوك ؛ فهم في معالجة أدوائهم وإصلاح شئونهم كمعالج الداء بالداء وناقش الشوك بالشوك . إنهم جاربوا الرأسمالية فنجمت الاشتراكية ، إنهم حاولوا أن يستأصلوا الديمقراطية فنبتت الدكتاتورية ، أرادوا أن يحلوا مشاكل الاجتماع فنبتت حركة تذكير النساء (Feminism) وحركة منع الولادة ، أرادوا أن يشترعوا قوانين لاستئصال المفاسد الخلقية فاشترأت حركة العصيان والجناية ، فلا ينتهى شر إلا إلى شر ، ولا فساد إلا إلى فساد أكبر منه ، ولا تزال هذه الشجرة تثمر لهم شروراً ومصائب ، حتى صارت الحياة الغربية جسداً مقروحاً ، يشكو من كل جزء أو جاعاً وآلاماً ، وأعياء الداء الأطباء ، واتسع الخرق على الراقع ؛ الأمم الغربية تتململ الماء ، قلوبها مضطربة وأرواحها متعطشة إلى ماء الحياة ، ولكنها لا تعلم أين معين الحياة . إن الأثرية من رجالها لا تزال تتوهم أن منبع المصائب في فروع هذه الشجرة ، فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ، ويضيعون أوقانهم وجهودهم في قطعها ، إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد في أصل الشجرة ، ومن السفاهة أن يترقب الإنسان أن ينبت فرع صالح من أصل فاسد ، وفيهم جماعة قليلة من العقلاء أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد ، ولكنهم لما نشأوا قروناً في ظل هذه الشجرة — وبأثمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم — كلت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلاً آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعاً وأوراقاً صالحة سليمة ، وكلا الفريقين في النتيجة سواء ؛ إنهم يتطلبون شيئاً يعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ، ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه ^(١) .

الفصل الرابع

رزايا الإنسانية المعنوية في عهد الاستعمار الأوربي

ليس من قصدنا الآن أن نبحث عن رزايا الأمم الشرقية الآسيوية في السياسة والاقتصاد والتجارة والصناعة ، وخسارتها في ممتلكاتها وانكسارها أمة بعد أمة وقطراً بعد قطر أمام قوة الغرب المادية ودهائه السياسي ، فلذلك حديث يطول ولا يسهه هذا المؤلف الصغير ، وقد طرق هذا الموضوع كثير من المؤلفين والمؤرخين في الشرق والغرب ، وألقوا فيه مؤلفات بين صغير وكبير ومتوسط وأشبعوا فيه الكلام .

ولكن الذي يهمنا — ونحن نتكلم في هذا الكتاب عن خسارة العالم باحطاط المسلمين واستيلاء الأوربيين بالتبع — رزيئة العالم الإنساني وخطب المجتمع البشري في الروح والأخلاق والنفوس ، ومعان أسمي من المادة وما يتصل بالجسم والأرض في عهد النفوذ الأوربي العام ، وسيل حضارته الجارف ، فتلك رزية لا تقبل العزاء ، وكسر لا ينجبر ، والذين أدركوه قليل ، والذين تحدثوا به أقل من أولئك القليل .

ولما كان نظام الحياة الإسلامي هو المنافس للنظام الجاهلي كان طبعاً رزء المسلمين في عهد انتصار الحكم الجاهلي أكبر ، وقسطهم في هذه المصيبة العالمية أوفر ، لأن الإسلام والجاهلية ككفتي ميزان ، كلما رجحت كفة طاشت الأخرى .

والآن نتحدث عن هذه الرزايا المعنوية رزيئة رزيئة .

بطور الحاسة الدينية :

ما هي غاية هذا العالم التي ينتهى إليها ، ومصيره الذى يصير إليه ؟ هل بعد هذه الحياة حياة أخرى ، وما هو وضعها إذا كانت ؟ وهل لهذه الحياة الآخرة تعليمات وإرشادات فى الحياة الدنيا ، ومن أى منبع تستقى هذه المعلومات ؟ وما هى الطرق والأسس التي إذا سار عليها الإنسان كانت حياته الآخرة راضية مرضية ، ومصدر هذه الطرق ؟ وما هى الطريق المثلى للوصول بعد الموت إلى نعيم لا ينفد وقرة عين لا تنقطع ، ومن أين تستفاد هذه الطريق ؟

تلك أسئلة ورثها الشرق أباً عن جد ، وشغلت خاطره ، وأزعجت فكره طيلة قرون ، ولم يقدر أن يذهل عنها ويتناساها حتى فى لهوه وزهوه ، وكانت هذه الأسئلة حافز نفسه ؛ ونداء ضميره ، ولم يستطع أن يتصام عنه ويطوى دونه كشحاً ، بل أصفى إليه فى رغبة ونصيحة وإخلاص ، وأحل هذه الأسئلة من نفسه وحياته الحل الأول ، وما زال منذ آلاف من السنين فى أخذ ورد ونقض وإبرام فى هذا الموضوع ، وائس ما نسميه ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية ، والإشراق والرياضة النفسية ، والعلم والحكمة ، إلا محاولات ومغامرات فى هذا الطريق الطويل المظلم ، وارتداداً إثر ارتداد فى مناطق مجهولة ، ينبىء عن اهتمام الشرق البليغ بهذا الموضوع ورغبته الملحة فيه .

هذه طبيعة الشرق وطبيعة أكثر أفراد البشر فى الأقاليم المعتدلة قبل ظهور الغربيين ؛ وإن استعرنا لذلك لغة الفلاسفة وتعبيرهم قلنا : لم يزل فى الناس عدا حواسهم الظاهرة الخمس حاسة سادسة يسوغ أن نسميها بالحاسة الدينية ، وكما أن الحواس الظاهرة لها دوائر عمل تحصل فيها محسوساتها الخاصة بها فللعين مبصرات وللأذن مسموعات الخ . كذلك هذه الحاسة الدينية لها ثمرات وتأثيرات هى من خواص هذه الحاسة التي لم تزل لأهل الشرق ضربة لازب ، وكما أن من فقد حاسة

من الخواص الظاهرة بطلت محسوساتها الخاصة بها ، فلا تحصل له بحاسة أخرى إلا بطريق خرق العادة ، ولا تحمل حاسة مهما كانت قوية وصحيحة محل الحاسة الأخرى ؛ كذلك من فقد الحاسة الدينية لطارىء مؤثر أو حُرِمَها لنقص في الفطرة بطلت نتائجها الخاصة بها ، وانعدمت في حقه ، بحيث لا يستطيع أن يتصورها أو يصدقها ، شأن الأعمى لا يبصر الألوان والأجرام المرئية ، وقد يعاند ويكابر في إنكارها ، وشأن الأصم الذى ليست الدنيا الصاخبة إلا مدينة الأموات عنده ، ليس بها داع ولا مجيب ؛ كذلك من حُرِمَ الحاسة الدينية جحد الغيب ، وكابر فيما هو وراء الطبيعة وعاند في المعانى الدينية ، وقسا على الرقائق والقوارع التى تهز النفوس ، وترقق القلوب وتذرف العيون :

* ما لجرح بميت إبلام *

إن أشد العقبات التى واجهها الأنبياء والدعاة الدينيون ، واصطدمت بها خطبهم ومواعظهم ودعوتهم ، هم أولئك الذين حرّموا الحاسة الدينية أو فقدوها بتاتا ، والذين تحجرت قلوبهم وماتت نفوسهم في مسألة الدين ، والذين آلوا على أنفسهم أنهم لا يفكرون في أمر الدين وأمور الآخرة ، ولا يلقون السمع لهذا الموضوع أصلا ، والذين لمّا سمعوا كلام النبي الذى تجيش له الصدور وتلين له الصخور ، ما زادوا أن قالوا في صمم وإعراض : « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » ولما انتهى النبي من كلامه السانع المعقول الذى يفهمه الأطفال ، والذى كان بلغتهم الفصيحة قالوا : « ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا » ، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون » لا شك أن هذه الأسئلة كانت موضوع دراسة العلماء والمفكرين في فجر النهضة الأوربية الجديدة ، واستمروا يبحثون فيها ويؤلفون ويتناقشون ، ولكن كلما قطعت المدنية الأوربية شوطا تخلفت هذه المباحث والأسئلة شوطا ؛ ولما ظهرت خواص هذه المدنية الباطنة وتجلت هي في مظهرها المادى خفت في ضجتها هذا الصوت الذى كان

ينبع من أعماق القلب وقرارة الضمير الإنساني الحى ، ولا ينكر أن هذه الأسئلة تدرس فى قسم الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة فى المدارس والجامع العلمية والمكاتب العامة ، ويتباحث فيها العلماء المتخصصون وتظهر لهم فى هذا الموضوع تأليفات بين آونة وأخرى ؛ ولكن الذى لا شك فيه أنها فقدت سلطانها على القلوب والأفكار واحت علامة الاستفهام الواضحة الذيرة التى كان يراها كل إنسان عاقل فيقف أمامها كما تقف القطر أمام الإشارات ، وأصبحت هذه الاستفسارات لا تحيك فى صدر الإنسان ولا تشغله كما كانت تشغل آباءه وتحيك فى صدورهم ، ولم يكن ذلك عن إيمان وانسراح صدر وطمانينة قلب واقتناع بحل صحيح وارتياح إلى نتيجة حاسمة . كلا ! لم يكن ذلك إلا لأن هذه الأسئلة قد فقدت أهميتها وأخلت مكانها لأسئلة مادية أهم فى أعين أبناء القرنين التاسع عشر والعشرين منها ؛ ولأن رجل العصر قد لزم الحيات التام فى هذه المسائل وصرف النظر عنها ، فلا عليه إن كانت بعد هذه الحيات حياة ثانية وكانت الجنة والنار والثواب والعقاب والنجاة والهلاك أو لم تكن ، فلا يهمه شئ من ذلك لا سلباً ولا إيجاباً ، لأن شيئاً من ذلك لا يمس مسائله اليومية أو فى آخر الشهر ، ولا يتصل بشخصه وعياله فى الساعة الحاضرة ، وهو رجل لا يعتقد فى النسيئة ولا يترك عاجلاً بأجل ، ولا يتكاف مالا يعنيه فيترك هذه المباحث « الفارغة » يبحث فيها معلم الفلسفة فى الجامعة ويفضى فيها برأيه المؤلف فى هذا الموضوع . أما هو فهو رجل جد وعمل ، لا يعرف إلا حيات المصانع والإدارات وسير الماكينات ، ولا يهتم إلا بتسليية النفس وترويحها فى آخر النهار والنوم الهادئ فى آخر الليل والأجرة فى آخر الأسبوع أو الرواتب فى أواخر الشهور وحساب الأرباح فى آخر السنة وإعادة الصحة والشباب فى آخر العمر . وأما ما بعد الحيات فهو عنده مجهول ووهم من الأوهام : « بل أدرك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل منها عمون » .

إن هذا الضرب من الناس لا يزال يزداد عدداً وأهمية فى كل أمة وبلاد بتأثير الحضارة الغربية ، ذلك الضرب من الناس لم يترك اشتغالهم بالحياة الدنيا والعكوف

عليها فراغا لدعوة دينية ، وإن الذي يدعوهم إلى الدين والحياة الأخروية ليتحير معهم كما تحير السندباد البحري — كما تروى لنا حكاية ألف ليلة — مع بيضة العنقاء ، ظنهم السندباد البحري بناء من رخام فدار حولها عدة مرات ليبحث عن باب يدخل منه فلم يجد ، كذلك الداعي الديني يدور حول رهوسهم فلا يجد منفذا يدخل منه إلى عقولهم ، ويدخل به دعوته الدينية إلى نفوسهم ، فقد أقفلت الحياة المادية ومساكنها جميع أبوابها وسدت جميع نوافذ فكرهم .

وكما أن رجلا لم يحظ من الفطرة بالذوق الأدبي ، يسمع الألحان الجميلة والأبيات الرقيقة فلا يعدها إلا أصواتا لا فن فيها ، كذلك الذي حرم الحاسة الدينية لا تؤثر فيه دعوة الأنبياء وخطب الوعاظ ، وحكمة العلماء وأمثال الصحف السماوية ، وتضع فيه بلاغة البلغاء وإخلاص المخلصين ، ويصبح كل ذلك صيحة في واد ونفخة في رماد :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

والذي منى بهذا الضرب من الناس يفهم السر في قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة » ، « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل » وتظهر له حقيقة قوله : « مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عى . فهم لا يعقلون » ولم يبق في شرحها وتعليلها ما لقيه المفسرون من صعوبة الذين لم يشاهدوا هذا النوع . داء هذا العصر الذي لا ينجع فيه الدواء ولا يؤثر فيه العلاج هو الاستغناء التام عن الدين ، ولم يلق رجال الدعوة الدينية من العنت والشدة في أحط أدوار الفسق والفجور وفي أحلك عهود المعصية والغفلة ، ما يلاقونه في دعوة هؤلاء الذين لزموا الإعراض التام في هذه المسائل (الكلامية) فلا تعنيهم سلباً ولا إيجاباً « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين » .

وقد فطن لهذا الفرق الجوهرى بين النفس القديمة والجديدة أحد كبار معلمي

الفلسفة وعلم النفس في إحدى جامعات أوروبا الكبرى وشرحه في عبارة وجيزة قال س - م جود :

« ثارت في قديم الزمان شكوك واعتراضات وأسئلة واستفسارات حول الدين ، لم يطمئن بمض أصحابها ولم يرتاحوا إلى جواب مقنع ، ولكن مما يمتاز به هذا الجيل أنه لا تزججه هذه الأسئلة رأساً ولا تحيك في صدره ولا تنشأ في هذا العصر أصلاً » .

زوال العاطفة الدينية :

لما طغى بحر المادية في العالم الإسلامي في العهد الأخير وفاض فيضانه كون رجال الدين جزراً صغيرة في بحر المادية المحيط يلجأ إليها الفارون إلى الله والمتبرمون من الحياة المادية والغفلة ، كان فيها رجال هم كمنارات النور في بحر الظلمات ، يربون الناس التربية الدينية والخلقية ، ويزكون أنفسهم ويصقلون قلوبهم .

وكننت ترى في العالم الإسلامي حركة مستمرة إلى هذه الجزر ؛ فترى قوافل لرواد الروحانية ومنتجعي التربية الدينية غادية رائحة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن أقصى شمال العالم الإسلامي إلى أقصى جنوبه ، متخطية الثغور السياسية بحتازة العقبات الجغرافية ، فترى هذه الجزر مستعمرات دينية ، قد انحلت فيها الفروق الجنسية والوطنية ، وترى متحفك إنسانياً قد اجتمع فيه الشرق مع الغربى والبخارى مع المراكشى والأناضولى مع الأندلسى ، قد فروا بدينهم من الفتن ورموا بأنفسهم على عتبة ربهم ، يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ويتلقون التربية الدينية ثم ينبشون في أنحاء العالم دعاة مصلحين ومعلمين مرشدين ، يلتقطون نصيب الله من بين نصيب الشيطان ، ويحيون أرضاً مواتاً من القلوب ويبذرون فيها بذور الدين .

وكذلك لم تزل في جنب أقوى الدول وأوسعها دول روحية يفوق سلطانها الروحى سلطان الدولة المادى ، فيها رجال تأتيمهم الدنيا راغمة ويأتيمهم الملوك والأمراء صاغرين ، ولهم نظام كنظام الدول ينصبون ويقرون وينقلون ويستخفون ولهم « قناصل وسفراء » في كل دولة مادية وكأن خارطة العالم الإسلامى بين أيديهم ،

فإذا خلا ثغر من ثغور الإسلام نصبوا فيه مرابطاً دينياً يحفظه من عادة الغفلة والمعصية ، ويحرسه من غاشية الجهل والطفيلان ^(١) .

وكانت هذه الدول الروحية مستقلة في إدارتها ونظامها الداخلي ، لا يتداخل فيها الملوك والأمراء ولا تؤثر فيها التقلبات السياسية والحوادث المحلية ؛ ولنضرب لذلك مثلاً بالمستعمرة الروحية المعروفة بغياث فور التي أنشأها الشيخ نظام الدين البداوني الهندي « م ٧٢٥ هـ » في نفس عاصمة الهند وقد عاصر الشيخ ثمانية من الملوك الجبابرة « من غياث الدين بلبن ٦٦٤ — ٦٨٦ إلى غياث الدين تغلق ٧٢٠ — ٧٢٥ » وحافظت على استقلالها التام من غير أن تمسها يد الملوك ، وكنت ترى فيها رجالاً من سنجر في إيران إلى رجال من أوده في شرق الهند .

وقد كان لهذه المراكز ولأصحابها الفقراء من المهابة والحشمة والاحترام الفائق ما قد يحسدكم عليه أكبر ملوك العالم ، وقد يكون هذا سبب الوحشة بينهم ، وما ذاك إلا لإقبال الناس على رجال الدين واحتفائهم بهم والخضوع للسلطان الروحي ، فكان السيد آدم البنوري الهندي (م ١٠٥٣ هـ) دفن البقيع يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل ، ويمشي في ركابه ألوف الرجال ومئات من العلماء ، ولما دخل السيد في لاهور عام ١٠٥٣ كان في معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايع وغيرهم ، حتى توجس شاهجان ملك الهند منه خيفة ، فأرسل إليه بمبلغ من المال ثم قال له : قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز . فعرف إيعاز الملك وسافر إلى الحرمين حيث مات ^(٢) وهذا الشيخ محمد معصوم (م ١٠٧٩) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندي

(١) حدث الشيخ صالح السيد علي المجوري دفين لاهور أن شيخه أمره بالرحلة إلى لاهور والإقامة فيها ، فاعتذر بأن هناك زميله الشيخ حسين الزنجاني فلا لزوم لذهابه ، فقال : لابد أن تذهب وتقم بها . قال : فشددت رحلي وامننت أمر الشيخ ووصلت إلى لاهور في الليل وقد غلقت أبوابها فبت ليالي خارج الدور ، ولما أصبحت وفتح باب الدور إذا بالناس يحملون جنازة الشيخ حمين ، فعرفت سر أمر الشيخ ودخات البلد ، وخلفته في عمله دعاء الخلق إلى الله (كشف المحجوب للمجوري) .

(٢) التذكرة الآدمية (الفارسية) .

قد بايعه وتاب على يده تسعمائة ألف من الرجال ، واستخلف في دعاء الخلق إلى الله وإرشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال ^(١) .

وهذا ابنه الشيخ سيف الدين السرهندي (م ١٠٩٦) كان يأكل على مائدته أربعمئة وألف ، ويقترحون الأطعمة ويتخيرونها ^(٢) .

وهذا الشيخ محمد زبير السرهندي (م ١١٥١) كان إذا خرج من بيته ألقى له الأغنياء الشيلان والمناديل حتى لا يظأ الأرض ، وإذا خرج لعيادة مريض أو لبعض شأنه خرج في ركابه الأغنياء والأمراء ، فكان موكباً مثل مواكب الملوك ^(٣) .

وهذه أمثلة قليلة لا نقصد منها إلا الاستدلال على ما كان للدين من مكانة وشرف في عيون الناس ، وعلى ما كان من احتفاء برجاله ومن يمثلونه ، وخضوعهم لسلطان الدين فوق سلطان القوة ، وتهيأتهم على موارد الدين ومشارعه ؛ وهذه أمثلة التقطنها على عجل من تاريخ الهند الإسلامي ولحات عابرة فيه ؛ ولو ذهبنا نستقصى أمثله وشواهد من تاريخ الإسلام العام ومن تراجم الرجال الدينيين وسيرهم في بلاد الشام ومصر والمغرب والأقصى والعراق لسكان مجلدات كثيرة — ونكتفي هنا بذكر الشيخ خالد الكردي (م ١٢٤٢ هـ) الذي ازدحم الناس عليه في بغداد يتوهمون على يديه ويستفيدون منه ، وقد أخبر شيخه في رساله كتبها إليه أن مائة من العلماء الفحول قد تخرجوا عليه ، وأن خمسمائة من كبار العلماء قد دخلوا في بيعته ، وأما العوام والخواص فلا يأتي عليهم حصر ^(٤) .

واستمر هذا الإقبال على الدين والمهجرة في طلب العلم النافع والعمل الصالح ، وتجشم الأسفار والأخطار لتزكية النفس وتهذيب الخلق والتوصل إلى معالم الرشد

(١) نزعة الخواطر ، المجلد الخامس ، للشيخ عبد الحمى الحنفى .

(٢) ذيل الرشحات (الفارسية) .

(٣) در المعارف (الفارسية) ونزعة الخواطر (العربية) ،

(٤) در المعارف .

والاستعداد للآخرة إلى أول عهد الاستعمار الأوربي؛ فترى في كل قطر إسلامي مراکز دينية وملاجئ روحية يأوى إليها أهل الطلب من سائر الآفاق، وتخطبهم الدنيا والمناصب العالية في الحكومات فيأبون إلا فراراً، ويلجأون إلى هذا المحيط الهادئ الروحى، ويكبون على إصلاح باطنهم وسلّ حظّ الشيطان منه.

ونتعدى في الحضارة إلى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى وقد احتل الإنجليز الهند، ولما تؤثر حضارتهم وفلسفة حياتهم في مجتمع البلاد، فنرى بقايا من الحياة الدينية الأولى، ويحدثنا مؤرخ^(١)، عن زاوية الشيخ غلام على الدهلوى، (م ١٢٤٠) فيقول:

« رأيت بعينى في هذه الزاوية رجالاً من الروم والشام وبغداد ومصر والحبشة قد بايعوا الشيخ، وعدوا المثول بين يديه حسنة الدهر وسعادة العمر. أما الوافدون من البلاد القريبة كالهند وأفغانستان فكانوا كالجراد، ولا يقل عدد المقيمين في هذه الزاوية عن خمسمائة رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم^(٢) ».

ويجمل الشيخ رموف أحمد المجددى نفلره في رجال هذه الزاوية اليوم الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٢٣١ هـ فيجد رجالاً من سمرقند وبخارا وتاشقند وحصار وقندهار وكابل وبشاور وكشمير والمثلتان ولاهور وسرهند واسروهه وسبهل ورامبور وبريلى ولسكهنو وجائس وبهرايج وكوركهور وعظيم آباد ودهاكه وحيدر آباد وبونه وغيرها^(٣).

وليعرف القارىء أن هذا كله في زمان لم تحدث فيه طرق النقل الحديثة فكان كله مشياً على الأقدام وسفراً في القوافل.

وتتجلى المناظر الأخيرة لهذا العهد الراحل في تاريخ مصلح الهند الكبير والمجاهد

(١) هو السيد أحمد خان صاحب الدعوة إلى التليم الإنجليزى في الهند ومؤسس الجامعة الشهيرة في عليكرة.

(٢) آثار السناديد (الأوردية).

(٣) در المعارف (الفارسية).

الشهير السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) فإذا قرأت تاريخه وجولاته في الهند لأجل بث دعوته إلى التوحيد واتباع السنة والجهاد رأيت ألوفاً يتوبون من الذنوب والآثام والشرك والمحدثات ، حتى تفقر الحانات وتغص المساجد ، ويتسابقون في دعوته هو ورفقته الذين يُعدّون بالآلاف إلى بيوتهم وصنع الولائم لهم ، ويستهيئون في سبيل ذلك بالأموال ويسترخصون كل عزيز وغال حتى يتقارعوا بينهم أيهم يبدأ وأيهم يتقدم .

وترى في المسلمين شهامة في سبيل الدين وعلو همة وسماحة نفس وأريحية لاتعدها بعد ذلك ، فلما خرج السيد للحج عام ١٢٣٦ هـ ورفقته أكثر من سبعمائة رجل ضيّف المسلمون هذا الركب في كل محل يمر به ، من رأى بريلي مسقط رأسه إلى كلكتة حيث ركبوا السفن ؛ ولما نزل بإله آباد ضيّفه الشيخ غلام علي ، وأقام هذا الركب ضيفاً عليه خمسة عشر يوماً ، واجتمع الناس من القرى والضواحي وكلهم يأكلون على مائدة الشيخ الطعام الفاخر ؛ هذا عدا الهدايا التي أهداها إلى أهل الركب والكسوة والزاد الذي قدمه ، وفي أثناء الرجوع لما حلت القافلة قريباً من مدينة مرشد آباد في طريقها من كلكتة إلى رأى بريلي قام ديوان غلام مرتضى بضيافتهم ، وأعلن في السوق أن كل من يشتري من أهل القافلة أو يستأجر منهم أهل الصناعة فهو يؤدي الثمن من عنده ، وكله السيد في هذا فقال : حسبي من الفخر والشكر أني أقوم بخدمة الحجاج .

وترى في الناس رقة في القلوب واثقياً للحق وخضوعاً للشرع ، فقد تشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين في هذا السفر ، وكان الناس ينهلون من كل صقع ويدخلون في الخير أفواجا ، حتى إن المرضى في مستشفى مدينة بنارس أرسلوا إلى السيد يقولون : إنا رهائن الفراش وأحلاس الدار فلانستطيع أن نحضر ، فلو رأى السيد أن يتفضل مرة حتى تتوب على يديه لفعل ، وذهب السيد وبايعهم .

وأقام في كلكتة شهرين ، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل

عدهم عن ألف نسمة يومياً ، وتستمر البيعة إلى نصف الليل ، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً ، فكان يمد سبعة أو ثمانية من العائِم والناس يسكونها ويتوبون ويعاهدون الله ، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثمانى عشرة مرة .

وخطب السيد في الناس في كلكتة خمسة عشر أو عشرين يوماً ، وكان يحضر هذه المواعظ نحو ألفين من وجهاء البلد والعلماء والشيوخ فضلاً عن عامة الناس والدهماء ، وكذلك رفيقه الشيخ عبد الحى البرهانوى كان يذكر كل يوم جمعة ويوم الثلاثاء بعد صلاة الظهر إلى العصر ، والناس يتساقطون عليه كالفراش ويسلم كل يوم عشرة أو خمسة عشر رجلاً من الكفار .

وكان من تأثير هذه المواعظ ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر في كلكتة وهى كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز ، وكسدت سوقها وأفقرت الحانات واعتذر التجارون عن دفع ضرائب الحكومة متعللين بكساد السوق وتعطل تجارة الخمر .

ولما دعا السيد الإمام إلى الجهاد أبى الناس من كل طبقة دعوته في نشاط وحماسة ولحقوا به ، وترك الملاحون سكنهم وأقفل التجار دكاكينهم وغادر الناس أوطانهم وتغربوا في دين الله ولم يتلفتوا إلى ما وراءهم ولم يلوا على شيء حتى قُتلوا في سبيل الله في وادى بالاكوت عام ١٢٤٦ في الثغور ، ورجع فلهم إلى قُلل الجبال فاعتصموا بها وقضوا نحبهم في الجهاد .

هذا كله والحضارة الإسلامية في الهند في الاحتضار والحكومة الإسلامية في انهيار ، ولكن لم يزل في الناس بقية من الأنفة الإسلامية والحمة الدينية والإنابة إلى الله والفرار إليه وسرعة الإجابة للداعى إلى الله ، والاستهانة بالحياة الدنيا وبذل النفوس والنفاس في سبيل الله .

ورسخت قدم الإنجليز وأصبح نظامهم التعليمى — وهو من أكبر جنودهم —

يؤتى أكله كل حين ، وتسربت في الناس أفكارهم وميولهم ، فصارت تقلب نظام الحياة ونظام الفكر في الهند رأساً على عقب من حيث لا يشعر أهلها ، فتقاصرت لهم في الدين وخذت جذوة القلوب وانطفأت شعلة الحياة الدينية ، وانصرفت الرغبات والأهواء والتنافس الطبيعي — الذي هو الدافع الأكبر إلى التقدم — والإبداع ، من الدين والروحانية إلى المعاش والمادة ، وقلت مرغبات الجهد في الدين والعلم وما يتصل بالروح والقلب ، وتوفرت المزهّدات والمثبطات عنه ، وكثرت الدواعي والحافزات إلى ضده ، واتجه تيار الذكاء والنبوغ والعبقريّة — الذي كان متجهها من قبل إلى الدين — من صنوف الدين وأقسام العلم الديني والروحي إلى الإنتاج والإبداع في أنواع علوم المعاش ومرافق الحياة .

وكان لا يزال بالعهد الراحل رمق وبقية من حياة تنازع الموت وتحاول البقاء ، فكان لا يزال في الناس رجال يدعون إلى الدين وإصلاح النفوس وتزكيتها وتهذيب الأخلاق وتصفيتها ، وهم تذكار لسلفهم في زهدهم في الدنيا والإقبال على الآخرة والإخلاص واتباع السنة ، وكانت لا تزال لهم دعوة في الناس ، والمسلمون يعدّون الاتصال بهؤلاء والتمسك بأهدابهم حقاً من حقوق الدين وواجباً من واجبات الحياة ، وكان بعض الأغنياء والأمرأ وأرباب الدنيا لهم اهتمام زائد بحسن الخاتمة وأمور الآخرة وصلاح القلب وعمارة الباطن ، ولكن كان هذا كله أشبه بالتهاب السراج قبل الانطفاء ، فقد ذوى أصل الشجرة الدينية ، وانقطعت عنها مادة الحياة وهب عليها إعصار فيه نار .

سرى الشك وسوء الظن في الأوساط الدينية والبيوت العريقة في الدين والعلم بتأثير المحيط وتأثير التعاليم الإفرنجية وضعفت الثقة بالله وبصفاته وبمواعيده ، فأصبح الآباء يضمنون بأولادهم على الدين ، ولا يخاطرون بأوقاتهم وقواهم في سبيل الدين وعلوم الدين ، وأصبحوا يعلمونهم العلوم المعاشية واللغات الأفرنجية ، لا رغبة في تحصيل المفيد النافع ولا دفاعاً عن الإسلام ، بل زهداً في الدين وفراراً من خطر المستقبل وخوفاً

على أفلاذ أ كبادهم من الضياع واستسلاماً للدهر المتقلب ، وتسلبت عليهم خوف
الفقر حتى أصبحوا من خوف الموت في الموت .

وهكذا انقضت هذا الجيل وطوى هذا البساط ، ولَفَظَ هذا العهد الروحي نفسه
الأخير ، وتلاه عهد المادة ، وأصبحت الدنيا سوقاً ليس فيها إلا البيع والشراء .

طغيان المادة والمعرفة :

رووا أن شاعرة جاهلية هي كبشة بنت معديكرب عاتبت أخاها عمرو بن
معديكرب ، وعيرته بميله إلى قبول دية أخيه المقتول فقالت :

ودع عنك عمراً إن عمراً مسالم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
ما تتصور المرأة الجاهلية البسيطة أن بطن إنسان يتجاوز مقدار شبر ، فكيف
لورأت معدة الإنسان الحاضر ابن القرن العشرين ؛ تضخمت وكبرت حتى وسعت
الأرض وتجاوزت حتى أصبحت لا يملأها إلا التراب .

نعم تضخمت معدة الحرص في الإنسان حتى صارت لا يشبعها مقدار من المال ،
وتولد في الناس غليل لا يروى وأوار لا يشفى ، وأصبح كل واحد يحمل في قلبه جهنم
لا تزال تبتلع وتستزيد ، ولا تزال تنادى هل من مزيد ؟ هل من مزيد ؟
تسلط على الناس أفراداً وأممًا شيطان الجشع والحرص فكان بهم مساً
من الجنون ، وأصبح الإنسان نهما يلتهم الدنيا التهاماً ، ويستنزف موارده حلالاً
وحراماً ، ثم لا يرى أنه قضى لبائته وشفى نفسه ، والعهد في ذلك على وضع الحياة
الحاضرة وطبيعتها وكونها مادية صرفة لا تؤمن بالآخرة . وخلق بمن لا يعتد إلا
بحيائه الدنيا ولا يرى وراءها عالماً آخر وحياة ثانية أن تكون هذه الحياة بضاعته
ورأس ماله وأكبر همه وغاية رغبته ومبلغ علمه ، وأن لا يؤخر من حظوظها وطيباتها
ولذائدها شيئاً وأن لا يضع فرصة من فرصها ، ولأى عالم يدخر وهو لا يؤمن بعالم
وراء هذا العالم ولا بحياة بعد هذه الحياة ؟

وقد عبّر عن هذه النفسية الجاهلية الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد في
صراحة وبساطة فقال :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي
كريم يروى نفسه في حياته ستعلم إن متنا غدا أينما الصّدي

وكل إنسان متمدن اليوم — إلا من عصمه الله بالإيمان — يرى هذا الرأي
ويذهب هذا المذهب في الحياة ، إلا أنه قد لا يجرؤ على أن يصرح به ، وقد لا يملك
ذلك اللسان البليغ الذي يعبر عن ضميره ؛ والسبب الثاني هو الأدب العصري
— بمعناه الواسع — الذي لا يتحدث إلا عن المادة وأصحابها ، ويمنع لأهل الثراء
وأصحاب الاحتكار وأصحاب الإنتاج الخنوع الذي لا يليق بالأدب الشريف العالي ،
فيكتب دقائق حياتهم في تفصيل ، وينشر ألقابهم وأسماءهم بقلم عريض ، وكل نفس
من أنفاس مدحه وتقرظه وكل فصل من فصول روايته ينتهي إلى نتيجة مادية
أو إلى بطل من أبطال المادة ، ويزين للقارئ المذهب الأبيقوري تارة بالتلميح
وتارة بالتصريح ، ويبحث الشباب على التهام الحياة وانتهاب المسرات نثراً وشعراً
وفلسفة ورواية وتحليلاً وتصويراً ، فلا يتهمون منه إلا بالروح المادّي والتفديس
لرجال المادّة .

وكذلك المجتمع الذي لا يقدر إلا الغنى الظريف متناسياً كل مافيه من
رذيلة ولؤم أصل وسوء خلق ، ويتجنى على الإنسان الذي لا يرجح في ميزانه مهما
كثرت مواهبه وطاب عنصره وسما جوهره ، ويلج وقد يصرح بأن الفقير لا يستحق
الحياة ، ويعامله معاملة الدواب والحير والكلاب ، فيرغم الإنسان — إذا لم يكن
ثائراً على المجتمع — على أن يخضع لشريعة مجتمعه ، وأن يتجمل ويتظرف لمجتمعه
فلا يلبس إلا لغيره ولا يتأنق إلا لغيره .

وهذا المجتمع لا تزال مقاييسه للشرف والظرافة تتغير ومعاييره الإنسانية تتبدل
وتتحور ومطالبه تتنوع وتكثر ، حتى يضيق الإنسان بها ذرعاً ويلجأ إلى طرق

غير شريفة لتحصيل المال وإلى كدح وكِد في الحياة ، وهناك هموم تتوالى ولا تنتهى ، ومتاعب تتسلسل ولا تنقطع .

وزاد الطين بلة تنافس المصانع والمنتجين والصُّناع ؛ ففي كل صباح يتدفق على المدينة سيل جديد من أحدث المنتجات وأحدث طراز من السيارات والسجائر والأزياء والقُبَعات والأحذية والأدهان والأطليسة وأسباب الزينة والزخارف والأجهزة ، ولا يجلب منها شئ قِياماً بالواجب وسداً للعوز ، بل كله في سبيل الاستغلال الصناعى والاحتكار التجارى ؛ ولا تلبث هذه المنتجات التى هى من فضول الحياة أن تدخل فى أصول المعاش ولوازم المدنية ، والذى لا يتحلى بها لا يعد من الأحياء .

ولهذه الأسباب وغيرها ارتفعت قيمة المال فى عيون الناس ارتفاعاً لم تبلغه فى الزمن السابق ، وبلغ من الأهمية والمكانة مبلغاً لم يبلغه على ما نعرف فى دور من أدوار التاريخ المدون ، وأصبح المال هو الروح السارى فى جسم المجتمع البشرى والحافز الأكبر للناس على أعمالهم ونشاطهم المذنى ، وقد يدفع المخترع إلى الاختراع والصانع إلى صناعته والسياسى إلى مقالته والمرشح إلى انتخابه والعالم إلى تأليفه ، حتى القادة إلى الحرب ، فهو القطب الذى تدور حوله رعى الحياة العصرية كما يقول الأستاذ جود معلم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن : « إن النظرية المهيمنة السائدة على هذا العصر هى النظرية الاقتصادية ، وأصبح البطن أو الجيب ميزاناً لكل مسألة . فبمقدار اتصالها بالجيب وتأثيرها فيه يقبل الناس عليها ويعنون بها » .

إذا حكمت على عصرك وطبائعه وأذواقه وأنت بمعزل عن الحياة ، وبنيت حكمك على مؤلفات ومقالات إنما تكتب فى زاوية من زوايا المكتب فإنك تغالط نفسك ، وقد تقرأ فى هذه الكتب الفلسفية أو المقالات العلمية التحليلية كأنك فى عصر متمدن راق تتحكم فيه معايير الأخلاق وتسود فيه المثل العليا

و يغشاه سحاب الفضيلة والنبيل ، وتحلق عليه روح الديانة والعلم ، ولكن الواقع غير ذلك ، فإن هذه الكتب إنما ألقت في عالم الخيال الذي يعيش فيه مؤلفوها ، وإن أهواءهم وأذواقهم هي التي خلقت لهم عالماً خيالياً يصفونه ويصورونه في كتبهم ، حتى يُخَيَّل إلى القارئ أنه هو العالم المحيط به ، وللأهواء عجائب وخوارق .

ولكنك إذا اتصلت بالحياة عن كُتب لا عن كُتب ، وخالطت الناس ودرست أحوالهم وأصغيت إلى حديثهم في البيت وفي القطار والبستان وعلى المائدة وفي السمر رأيت (الذهب) حديث النوادي وشغل الألسنة وهوى القلوب ، والبداية والنهاية في كل موضوع ، والقطب الذي تدور حوله رحي الحياة .
إن شاعراً عربياً ^{حليماً رطوباً} يكن الصعلوك الذي لا يتعدى نظره ولا يسمو فكره عن لباس وطعام ويقول :

لما الله صعلوكاً مناه وهمه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً
فكيف إذا أشرف هذا الشاعر على هذه المدنية وهي تجري بفلاسفتها وسياسيتها ونوابغها وعلمائها وكتّابها وأشرافها وأغنيائها وقراءها وراء غاية لا تتعدى لبوساً ومطعماً مهما تنوعت أشكالها وتضخمت ألقابها ؟ فالحياة كلها جهاد في سبيل اللباس والطعام .

الندهور في الأضواء والمجتمع :

احتل الأجانب الشرق الإسلامي وقد أصاب المجتمع الشرق الإسلامي انحطاط في الأخلاق والاجتماع ، وسبقت إليه أدواء خلقية واجتماعية كانت أهم أسباب انهيار الدول الإسلامية وانهزام الأمم الشرقية .

ولكن مع ذلك لم يزل المجتمع الشرق الإسلامي — على علاته — محتفظاً ببعض المبادئ الخلقية السامية والخصائص الاجتماعية الفاضلة التي لا يوجد لها مثيل في الأمم ، وقد نضج واكتمل فن الأخلاق عند الشرقيين ووصل من الدقة

والتفصيل واللطافة ورقة الحواشي ذروة لا يصل إليها ذهن العصر ، ولا يتصورها الغربي إلا في الشعر والأدب .

يقرأ الإنسان أو يسمع روايات عن استحكام الروابط والأواصر بين أعضاء المجتمع العام وأفراد الأسرة ، وتغلغلها في الأحشاء واستمرارها إلى الأحقاب والأجيال وخلوها من كل مصلحة ومنفعة مادية مالا يتصوره أبناء هذا العصر ، وكذلك من حنوّ الآباء على الأبناء وبر الأبناء بالآباء وتوقير الصغير للكبير وحذب الكبير على الصغير ، ومن عفاف النساء ووفاء الحلائل وأمانة الخدم ووفائهم واستقامة الشبان وثباتهم على الأخلاق ومعاملة الأشراف بعضهم لبعض ، والحفاظة على الرواتب والعادات والاطراد في مسئلة اللباس والشعائر والعشرة ، والإيثار في شأن الأصدقاء والنصح لهم ، يسمع منها غرائب لا يكاد يصدق بها .

كان بر الأبناء للآباء وطاعتهم إلى حد التفاني في سبيلهم والاضمحلال في وجودهم منتزعاً من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنت ومالك لأبيك » . وكان حب الأبناء لآبائهم وبرهم وحرصهم على أداء حقوقهم غير مقتصر على حياة الأبوين ، بل كان يستمر إلى ما بعد وفاتهما بصلة أصدقائهما وأهل أنسهما والإهداء إليهم والتحبب إلى أولادهم وعشيرتهم ، وكان ذلك عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن من أبر البر بر الرجل بأهل ودايته بعد أن يولى » .

وكان الأبنوان مثلاً للنصح والإخلاص في حبهما للأولاد ، وكانا يضحيان بجميع أهوائهما وميولهما وراحتهما وبلذة الأمومة والأبوة في سبيل تثقيفهم وتربيتهم وتعليمهم ، يتحملان في ذلك — حتى الرجل الأمي والمرأة الجاهلة — إجحاف المعلمين وعسفهم وإضرارهم في بعض الأحيان بحسم الصغار ، ويتجرعان المرائر ويصبران على الفصص في سبيل الأولاد ونبوغهم ، وقد تواضع على ذلك أهل البيوتات والشرف حتى أهل الطبقات الوضيعة ، ويعدون من خالف ذلك رجلاً نذلاً لثيماً ، والذي روى عن هارون الرشيد في تنبيهه لولديه الأمين والمأمون

ووصيته لهما بخدمة الكسائي معروف في التاريخ ؛ ومن غرائب ما يروى في هذا الباب ويمثل الطبيعة الشرقية أن تاج الدين ألدز أمير الأفغان بعد السلطان شهاب الدين الغوري أسلم ولده إلى معلم وضرب المعلم الولد حتى مات ، فلما علم بذلك تاج الدين أشار على المعلم بأن يهرب وقال : لا آمن عليك من أم الولد فعسى أن يفالك منها مكروه .

وكانت الرابطة بين الصغير والكبير في المجتمع الإسلامي مؤسسة على تعليم الشرع : « من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا فليس منا » .

ومن خصائص الحضارة الشرقية الاطراد في الحياة والحفاظ على لون واحد والتظاهر بمظهر واحد ، فكان الرجل إذا شرع في أمر وتظاهر بمظهر واصله إلى غايته ، وإذا اتخذ عادة أو إشارة في اللباس أو عامل أحداً نوع معاملة واطب عليه إلى آخر أنفاسه ، لا تؤثر في ذلك الحوادث ولا تغيره الفصول ولا انحراف الصحة ولا الكسل ولا المصالح .

ولم يكن العمدة في حياة الأسرة والقبائل ولم يكن الميزان في التوقير والشرف هو كثرة المال فيختلف المستوي المالى في أسرة اختلافاً كبيراً ، ويتفاوت الرجال في قبيلة أو قوم تفاوتاً عظيماً في المال والجاه ؛ فهذا سرى مثر وذلك فقير معدم ، ولم يكن يستطيع أحد أن يفرق بينهم ويرفع بعضهم فوق بعض لأجل التفاوت الاقتصادي في مجتمعات الأسر والبيوتات والمآتم (بمعناها اللغوية) ، فإذا شم أحد رائحة الفرق أو نظرة الازدراء ثار كالليث ، أو إذا بدرت بادرة من المضيف تم عن هذا الفصل انسحبت الأسرة كلها من الضيافة وقاطعوا أهل الضيافة ، وكانوا يداً واحدة مع أخيه المعضوم .

وكان الفقير الصعلوك في قبيلة يواجه الأغنياء والملوك من تلك القبيلة بجرأة وهو معتز بنفسه معتد بشرفه لا يرى في نفسه نقیصة لأجل فقره ، وكان الغنى أو الملك يكرمه ويحلله الحل اللائق بشرفه ونسبه وفضيلته الذاتية ، بصرف النظر عن رثاة

هيئته وتبذله ، والأزمة الاقتصادية الطارئة على كرم عنصره وصفاء معدنه وطيب منبته ومثانة دينه ووفور علمه .

وكان الفقير في ذلك العصر يبالغ كثيراً في إخفاء عسرته وضمنك معيشته ويتحمل ويتجملد ، ويسوؤه أن يفتن أحد إلى فاقته ورقة حاله .

وكان ضمير الحر عزيزاً محترماً كدينه ، وعرضه لا يساوم عليه ولا يباع بأى ثمن ، وكان الواحد يفضل الموت الأحمر على كذبة أو خيانة يخلص بها نفسه من الموت .

وقد روى لنا التاريخ الهندي طرائف في هذا الباب لا بد أن تكون أمثلتها متوفرة في تاريخ جميع البلاد الإسلامية : منها أن الشيخ رضى الله البدائنى اتهم بالاشتراك في الثورة على الإنجليز عام ١٨٥٧ م وحوكم أمام حاكم إنجليزى كان من تلاميذه ، فأوعز إليه الحاكم على لسان بعض الأصدقاء أن يجحد الاتهام فيطلقه . ولكن الشيخ أبى وقال : قد اشتركت في الخروج على الإنجليز فكيف أجحد ؟ واضطر الحاكم فحكم عليه بالإعدام ، ولما قُدم للشنق بكى الحاكم وقال له : حتى في هذه الساعة لو قلت مرة إن القضية مكذوبة على ، وإنى برىء لاجتهدت في تخليصك . فغضب الأستاذ وقال : أريد أن أحبط عملى بالكذب على نفسى ؟ لقد خسرت إذا وضلّ عملى ، بل قد اشتركت في الثورة فافعلوا ما بدا لكم . وشنق الرجل .

ولم يكن صدقهم واعترافهم بما يعلمون ويعتقدون مقتصرأ على ما يتصل بأنفسهم ، بل كانوا صادقين فيما يتصل بالأمة والشعب ، فلم يكونوا يعرفون العصبية الجنسية والوطنية والجنف القومى الذى أصبح اليوم من واجبات الجنسية والوطنية . وكانوا يعدون الكذب وشهادة الزور لأجل الأمة والوطن والملة رذيلة وإثماً كبيراً . وكانوا يعتقدون أن أحكام الشرع تعم الفرد والأمة والأمور الشخصية والاجتماعية . وكانوا متمسكين بقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » الآية ، وقوله : « ولا يجرمكم شأن قوم على

أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله » وقوله : « وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل » وقوله : « وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

ومما يروى لنا الشيوخ من ذلك أنه وقع نزاع بين الهنادك والمسلمين في قرية كندهله من مديرية مظفر نكر في الولايات المتحدة الهندية على أرض ، فادّعى الهنادك أنها معبد لهم والمسلمون أنها لهم مسجد . وتحاكموا إلى حاكم البلد الإنجليزي فسمع الحاكم القضية ودلائل الفريقين ولم يطمئن إلى نتيجة ، فسأل الهنادك : هل يوجد في القرية مسلم تثقون بصدقه وأمانته أحكم على رأيه ؟ قالوا : نعم فلان ، وسموا شيخاً من علماء المسلمين وصالحهم ، فأرسل إليه الحاكم وطلبه إلى المحكمة ، فلما جاءه الرسول قال : قد حلفت أن لا أرى وجه أفرنجى ، ورجع الرسول ، فقال الحاكم : لا بأس ولكن احضر وأدل برأيك في القضية . فحضر الشيخ وولى دبره إلى الحاكم وقال : الحق مع الهنادك في هذه القضية والأرض لهم . وبذلك قضى الحاكم وخسر المسلمون القضية ، ولكن كسبوا قلوب الهنادك وأسلم منهم جماعة .

وكذلك كان الناس يمدون العلم عارية مقدسة ووديعة من الله لا يبيعونه كسلعة في السوق ، ولا يتعاونون به على إثم آثم وعدوان معتد ، وكانوا لا يرضون أن يستعين به نظام جائر أو حكومة غير إسلامية .

ومما حكى لنا الثقات وقرأناه في التاريخ أن الشيخ عبد الرحيم الرامبوري (م ١٢٣٤ هـ) كان يعلم في بلدة رامبور براتب زهيد يتقاضاه كل شهر من الإمارة الإسلامية لا يزيد على عشر روبيات (أقل من جنيه مصرى) ، فقدم إليه حاكم الولاية الإنجليزي المسترها كنس وظيفة عالية في كلية بريلي راتبها مائتان وخمسون روبية (تسعة عشر جنيهاً مصرياً) ، وذلك يساوى خمسين جنيهاً في هذا العهد ، ووعد بالزيادة في الراتب بعد قليل ، فاعتذر الشيخ عن قبوله وقال : إني أتقاضى عشر روبيات وإنها ستنقطع إذا تحولت إلى هذه الوظيفة . فتعجب الإنجليزي وقال : ما رأيت كاليوم .

أنا أقدم راتباً يزيد على راتبك الحالي بأضعاف أضعاف ، وتترك الأضعاف المضاعفة وتقتنع بالنزير اليسير ! . فتعمل الشيخ بأن في بيته شجرة سدر وهو مغرم بثمرها وأنه سيحرمها إذا أقام في بريلى . ولم يفتن الإنجليزى بعد إلى مقصود الشيخ . فقال : أنا زعيم بأن هذا الثمر يصل إليك من رامبور إلى بريلى ؛ فتشبت ثلاثة بأن حوله طلبة وتلاميذ يقرؤون عليه في بلده فلو انتقل إلى هذه الوظيفة انقطعت دروسهم . ولم يئأس الإنجليزى المناقش من إقناعه فقال : أنا أجرى لهم جرايات في بريلى ويواصلون دروسهم هناك ؛ وهنا أطلق الشيخ آخر سهامه الذى أصمى رميته فقال : وماذا يكون جوابي غداً إذا سألتني ربى : كيف أخذت الأجرة على العلم ؟ وهنا بهت الإنجليزى وسقط في يديه وعرف نفسية العالم المسلم ، وقضى الشيخ حياته على أقل من جنيه يأخذه كل شهر .

قارن هذه الروح السامية والنفس الكبيرة التى تربأ بالعلم أن يباع بيع السلع ، وتغار على العقيدة والكرامة أن تشتري بمال أو منفعة ، بهذا التبذل والإسفاف الذى وصل إليه أهل العلم والعقل والصناعة فى هذا الزمان ، فقد عرض كثير منهم عليهم وعقلهم وما يحسنونه كالسلع فى الأسواق ، يبيعونها بالمفاداة (المزاد العلاني) ليشتريها من يزيد فى الثمن كائنًا من كان ، فليس الشأن عندهم فى العقيدة ولا فى الغرض والنتيجة ولا فى الملائمة والذوق ، إنما الشأن عندهم فى الثمن الذى يدفعه المشتري . وكل يوم نطلع على مضحكات مبكيات فى هذا الباب ؛ فهذا الأستاذ كان أمس فى معهد إسلامي يدرس العلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامى وقدمت إليه الكلية الكانوليكية الفلانية وظيفة تدريس براتب يزيد على راتبه السابق بخمسة جنيهات فانتقل إليها ؛ وهذا السيد فلان كان فى وزارة المعارف سابقاً وكان شاباً مثقفاً وعالماً له هوى فى التحقيق والدراسة ، تقرأ له مقالات علمية فى المجلات الراقية ، فإذا به ينتقل فجأة إلى مصلحة الطيران أو الإذاعة . وسألنا : ماذا حدث له حتى غير طريقه وقلب تيار حياته ؟ فأخبرنا أن ذلك لأجل أنه يرجح فى مركزه الجديد عشرة جنيهات ؛

وهذا البحاث الفلاني كتب مقالة عن التصوف الإسلامي ونال بها ثناء أهل العلم
قد تحول إلى وزارة الخارجية أو أصبح ترجمان دولة أوربية ، وما هو إلا لأجل
زيادة بمقدار بضعة جنيهات . أو ليس هذا لأن الربح المالى قد أصبح كل شيء ،
ولأن الذهب اللعاع أصبح المتصرف الوحيد في مناهج الحياة والمسيطر الوحيد على
الأرواح والعقليات .

قرأنا في التاريخ الإسلامي أن المنصور الخليفة العباسي المشهور طلب من
ابن طائوس في مجلس أن يناوله الدواة ليكتب شيئاً فامتنع ، فسأله الخليفة عن سبب
امتناعه وعدم امتثاله أمر خليفة المسلمين ، فقال : أخاف أن تكتب بها معصية
فأكون شريكك فيها ومتعاوناً على الإثم والعدوان . إلى هذا الحد وصل بهم
تمسكهم بقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .
أما امتناعهم عن قبول منصب القضاء في نظام لا يرضونه ولا يرتاحون إلى سيره
وتفاصيله فرواياته بلغت حد التواتر ، واطردت في أدوار الحياة الإسلامية الأولى .

قارن هذا الاحتراس من التعاون على الإثم والعدوان ، وهذا التعنف عن
المشاركة في نظام غير صحيح ، والامتناع من أدنى مساعدة لهدف لا يتفق ومصالح
الأمة الإسلامية أو يعود عليها بالضرر أو فيه غش وخديعة للأمة ، قارن كل ذلك
بهذه المساعدة والتعاضد الذي تتمتع به الحكومات الأوربية من المسلمين ، وهذا
الذكاء واللباقة والقلم البليغ واللسان الذلق الذي ينتفع به الأجانب منهم في
مصالحهم وإداراتهم .

فهناك شبان مسلمون وكتّاب بارعون يتولون تحرير الصحف والمجلات التي
تصدرها الحكومات الأجنبية لنشر دعايتها في بلاد المسلمين والتأثير في عقليتهم
ونفسياتهم ، وتمويه الحقائق بمقدرة المأجورين من المسلمين أنفسهم .

وهناك جماعة من « الأفاضل » ينحدرون من أصول عربية صميمية ، وينتمون
إلى بيوتات عريقة في المجد والإخلاص للإسلام ، قد جاهد آباؤهم في سبيل الحق

وبحق الباطل . وبقيت نسبتهم في أسمائهم تروى لنا تاريخاً مجيداً عن آبائهم حافلاً
بجلائل الأعمال ، وجرى دمهم في عروقهم ، وظهر في ملامح وجوههم وتقاطيعها ؛
يشغلون اليوم في الحكومات الأجنبية ، ويستعملون تلك اللغة المضرة الفصحى التي
نزل بها القرآن الكريم ، والتي تكلم بها رسل المسلمين ، في مجالس ملوك فارس
والروم ، فأثروا بها رسالة الإسلام ، وألقوا المهابة في قلوبهم ، والتي ألقى بها القواد
المسلمون خطب الجهاد ، بهذه اللغة الكريمة التي لا تليق إلا للبطولة الإسلامية ،
وبتلك الكلمات الفصيحة الرائعة التي لا تجمل إلا في مواضع الحق والجهاد ، ينشر
هؤلاء دعاية الحكومات الأجنبية التي تعبت بالمسلمين عبث اللاعبين بالكرة ،
أو عبث الوليد بجانب القرطاس ، وقد رزأنهم في سياستهم واستقلالهم وإيمانهم
وعقلهم واقتصادهم ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون .

قد سمعنا منهم أن هذه الحكومات تقوم بمجهود نبيلة لخير العروبة والإسلام
ورفع شأنهما ، وأنها « نور الحرية الوضاء في عالم ساه الظلام الدامس » ، وقد سمعناهم
يشيدون « بالخدمات الجليلة والمساعدات العظيمة التي تقدمها الإذاعة البريطانية
في سبيل نهضة الأفطار العربية وتوحيد تفكيرها وثقافتها وتوثيق الروابط بينها ، وما تقوم
به من نشر الثقافة العربية الإسلامية ، وتعريف المسلمين بتاريخهم المجيد ومدنيتهم
الزاهرة ، وإطلاع العالم العربي على حقائق الأمور وسير الحوادث في نزاهة وتجرد
وصدق^(١) » ولطالما سمعناهم وقرأناهم إشادة بإيمان هذه الحكومات بالديمقراطية
الصحيحة وجهادها لتوطيد الأمن العام وسلام العالم وحرية الأمم المستضعفة والبلاد
المهضومة ، ورفعها لراية العدل ، والمساواة ، والأخذ للمظلوم من الظالم ، وقيامها
للحق الخ .

فإذا كان هؤلاء المتحدثون لا يرضى ضميرهم بما يقولون ، ويعرفون أن هذه
الكلمات في غير محلها ، وإنما هو كله لمصالحهم المالية ، فيا لانهطاط النفس الشريفة

(١) الكلمات التي بين القوسين منقولة لفظاً .

وبالرخص السلعة الغالية ، وبإضيعة الكلمات العامرة بالمعاني ، وبإشقاء اللغة العربية بأهلها ! . وإذا كان ذلك عن اعتقاد وثقة وفهم للمعنى ، فياجهلاً بالحقائق ، وبإنكاراً للمحسوس ، وبإمسحاً للقلوب ! .

سمعنا أن الشاعر الهندي الشيخ محسن الكاكوردي صاحب القصائد النبوية المقبولة كان لا يزال يلف يمينه بمنديل ، لأنه لا يرضى أن يكتب بها بعد النبويات شيئاً ، ولكن بالعكس من ذلك يكتب أديب أو صحافي اليوم كتاباً حماسياً في سيرة بطل من أبطال الجهاد الإسلامي ، أو مجدد من مجددى الإسلام ، ولا يحف مداد مقالته أو كتابه ذلك حتى يكتب بقلمه تقرظاً أو ثناء على خائن من خونة الأمة ، أو صنيعاً من صنائع الأجانب لمصلحة سياسية ومنفعة مالية ولا يرى في ذلك تناقضاً . طلب ملك من ملوك العرب من شاعر عربي فرسه فاعتذر أن يعطيها بأى ثمن كان وقال :

أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا تعار ولا تباع

ولكن كأن الضمير عند هؤلاء الذين يشتغلون في الحكومات الأجنبية ، أو يذيعون من محطاتها ما لا يرضى به ضميرهم ولا يصدق عليهم ، أو يصدر عن صحف ، أو يؤلفون كتباً على جعالة أو راتب شهري أذل وأرخص من جواد الجاهلى ، فهو يعار ويباع ، وذلك لم يكن ليعار ولا ليباع . وكانت الروابط والأواصر في الشرق في الغالب قائمة على أساس غير مادى إما عقلى وإما روحى ووجدانى ، وكان الأثر والأثنية فيها نصيب ضئيل ، وكان نتيجة ذلك وجود روابط وأواصر لا يمكن تدميرها بالمسادة وجر النفع إلى أمجابه ، وكانت هذه الروابط متغلغلة في الأحشاء ؛ فمن ذلك أن علاقة التلميذ بأستاذه وإخلاصه وحب له في العهد السابق ، يزرى بعلاقة الولد بوالده وحب له في هذا العصر .

اشتهر نبأ وفاة الأستاذ الشهير العلامة نظام الدين السكهنوى م ١١٦١ هجرية صاحب منهاج المدرس النظامى الجارى تطبيقه في الهند وخراسان ، فلما أتى النعي (م ١٥ — ماذا خسر العالم)

تلميذه السيد كمال الدين العظيما بادی مات من شدة الحزن ، وعى تلميذه الآخر السيد ظريف العظيما بادی من كثرة البكاء ، وتحقق بعد ذلك أن الإشاعة كانت غير صحيحة^(١) ، ولعل ذهن العصر لا يسيغ هذه الرواية ، ولكن الذي عرف طبيعة الشرق ، ومدى اتصال التلميذ هنالك بأستاذه وحبه له لم يستغرب هذه الرواية ولم يكذبها .

يعلم المطلع على تاريخ الأخلاق وفلسفتها أنه قد ظهرت مدرسة في أوربا قبل المسيح بأربعة قرون ، وكان لها أنصار من كبار الفلاسفة والأخلاقين إلى القرن التاسع عشر للمسيحي ، تدين باللذة البدنية وتعتقد أنها ميزان للأخلاق ومعيار الأعمال وتشير على أتباعها بأن يهتبلوا فرص التمتع بالحياة الدنيا ويفتنموا فلتات الدهر .

وافترق أصحاب هذه المدرسة فرقتين ؛ فمنهم (أولو الأثرة) الذين يقولون ينبغى أن لا يحول بين الإنسان وشهواته حائل حتى لا يدع حاجة في نفسه إلا قضاها ، فينال بذلك النصيب الأكبر من اللذة والهناء ، وقالوا : السعادة هي إرضاء الشهوة وقضاء مأرب النفس واقتطاف قطوف المسرة واللذة باليدين .

والفرقة الثانية هم (النفعيون) ويرى أهل هذا المذهب أن الواجب هو تحصيل المنفعة التي ينال بها أكبر عدد من أفراد البشر أو فرقسط من اللذة والهناء ، ولا وزن للأفعال الخلقية في نظرهم إلا بما تأتي به من المسرة لغالب بنى النوع ، ويرى هؤلاء أن السعادة هي أن تتوافر للناس بأعمالهم اللذات وتبعد عنهم الآلام .

ويرى القارىء ويلمس الروح المادى المتعشق للذة والهناء في آراء هذا المذهب ونزعاته من أحطها وأكثرها إسفافاً إلى أرقاها وأكثرها تحليقاً ، وهذا يختلف عن طبائع الشرق وشرائع السماء اختلافاً بيناً ، وقد أثرت هذه النزعة المادية في فلسفة الغرب وأخلاقه وأدبه وحضارته تأثيراً عميقاً ، ولا تزال مهيمنة على الحياة الغربية وآدابها حتى اليوم .

(١) نزعة الخواطر للشيخ عبد الحى الحسنى (المجلد السادس) .

ثم نزعوا دائماً في تشخيص المنفعة ووزنها إلى المادية ، لأنهم احتكوا فيها إلى أذهانهم وعقولهم وقد أصبحت مادية بحتة لأنها لا تؤمن بحقيقة لا تأتي تحت الحس أو المساحة أو العد أو الوزن ، ولا تؤمن بمنفعة لا تجلب لذة وهناء ، حتى مؤسس هذا المذهب « أبيقور م ٢٧١ ق . م » صرح بأن مناط الحكم على الأعمال هي المنفعة ، وأن المنفعة لا قيمة لها إلا إذا اجتلبت لذة واغتباطاً ، فكيف وقد تدرجت العقول والطبائع الغربية ومردت على النزوع المادى على تعاقب الأجيال والعصور . فكان نتيجة ذلك أن الذهن الغربى والمنطق العصرى أصبحت عاجزين عن الاهتمام إلى منفعة غير محسوسة لا تجلب لذة واغتباطاً ، وأصبح العقل الأوربي محامياً عن المادية لا يحكم على الأخلاق بالحسن والصحة إلا بمقدار جلبها للمنافع المادية ، وبحساب ما يكتسب المجتمع بواسطتها من اللذة والهناء والأفراد من الاغتباط والرخاء ، فأصبح الربح المادى هو الميزان للأخلاق والفارق بين الشر والخير ، وأصبحت الأخلاق التى لا وزن لها فى ميزان المادة ، وليس لها قيمة إلا القيمة الدينية أو الخلقية فى المصطلح القديم ينتقص كل يوم سلطانها على القلوب والعقول ، وتعدم أنصاراً وتصبح من شعائر القديم وذكريات العهد الماضى كحنان الأبوين وحبهما للأولاد ووفاء الأزواج وحفظهن للغيب ، وتحل محل هذه الأخلاق المقدره الصناعية والاختراع والانتاج والوطنية والجنسية ولا تزال ترتفع قيمتها ويرجع وزنها .

ولا يزال المجتمع العصرى يستغنى عن الروابط المنزلية والأرحام الدموية والشرائع الخلقية بتنظيمات اجتماعية شعبية على الخطوط السياسية والصناعية والاقتصادية ، ولا يهم المجتمع الآن كيف يعامل الولد والده أو الزوج زوجته إذا كان هؤلاء الأفراد لا يزالون فى الدائرة المدنية التى اختطها المجتمع حول أفرادهم ؛ وما دام لا يحدث عملهم هذا اضطراباً فى المجتمع وثورة على النظام ولا يعرقل سير المدنية فلا بأس إذا كان هنالك عقوق من ولد أو فرك من قرينة أو جفاء من زوج أو دعارة من امرأة وفسق من رجل أو خيانة من زوجة .

البَابُ الْخَامِسُ

قيادة الإسلام للعالم

الفصل الأول

نهضة العالم الإسلامي

اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية :

لأسباب تاريخية عقلية ، طبيعية قاسرة ، ذكرناها في البحوث السابقة ، تحولت أوروبا النصرانية جاهلية مادية ، تجردت من كل ما خلفته النبوة من تعاليم روحية وفضائل خلقية ، ومبادئ إنسانية ، وأصبحت لا تؤمن في الحياة الشخصية إلا باللذة والمنفعة المادية ، وفي الحياة السياسية إلا بالقوة والغلبة ، وفي الحياة الاجتماعية إلا بالوطنية المعتدية ، والجنسية الغاشمة ، وثارَت على الطبيعة الإنسانية والمبادئ الخلقية ، وشُغِلت بالآلات ، واستهانت بالغايات ، ونسيت مقصد الحياة ، وبجهادها المتواصل في سبيل الحياة وبسعيها الدائب في الاكتشاف والاختيار مع استهانتها المستمرة بالتربية الخلقية وتغذية الروح وجحودها بما جاءت به الرسل ، وبإمعانها في المادية ، وبقوتها الهائلة مع فقدان الوازع الديني ، والحاجز الخلق ، أصبحت فيلاً هائجاً ، يدوس الضعيف ويهلك الحرث والنسل ، وبانسحاب المسلمين من ميدان الحياة ، وتنازلهم عن قيادة العالم وإمامة الأمم ، وبتفريطهم في الدين والدنيا ، وجنابتهم على أنفسهم وعلى بني نوعهم ، أخذت أوروبا بناصية الأمم ، وخلفتهم في قيادة العالم ،

وتسيير سفينة الحياة والمدنية التي اعتزل ربانها، وبذلك أصبح العالم كله بأمره وشعوبه ومدنياته ، قطاراً سريعاً تسير به قاطرة الجاهلية والمادية إلى غايتها ، وأصبح المسلمون كغيرهم من الأمم ركاباً لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وكلما تقدمت أوربا في القوة والسرعة ، وكلما ازدادت وسائلها ووسائلها ، ازداد هذا القطار البشري سرعة إلى الغاية الجاهلية حيث النار والدمار والاضطراب والتناحر والفوضى الاجتماعية ، والانحطاط الخلقي والقلق الاقتصادي والإفلاس الروحي ، وهما هي أوربا تستبطن الآن أسرع قطار ، وتريد أن تصل إلى غايتها بسرعة الطائرة بل بسرعة القوة الذرية .

استبصار الفلسفة الأوروبية على العالم :

وليس على وجه الأرض اليوم أمة أو جماعة تخالف الأمم الغربية في عقائدها ونظرياتها وتزاحمها في سيرها ، وتعارضها في وجهتها وتناقشها في مبادئها وفلسفتها الجاهلية ، ونظام حياتها المادي لا في أوربا ولا في أمريكا ، ولا في أفريقية وآسيا ، والذي نرى ونسمع من خلاف سياسي ونزاع بين الأمم فإنما هو تنافس في القيادة ، وتنازع فيمن يكون هو القائد إلى هذه الغاية المشتركة ، فدول المحور إنما كانت تذكره أن يبقى الحلفاء مستبدين بالقيادة العالمية منذ زمن طويل ، مستأثرين بموارد الأرض وخيراتها وأسواقها ومستعمراتها ، وبشرف السيادة على العالم وحدهم مع أنها لا تقل عنهم في القوة والعلم والنظام والنبوغ والذكاء ، بل ربما تفوقهم ، أما أنها كانت تريد أن تسير إلى غاية أخرى وأن تقوم بدعوة المسيح ، وتقيم في الأرض القسط ، وأن تقود الأمم إلى الدين والتقوى ، وتنصرف بها وتتجه من المادية إلى الروحانية والأخلاق ، فهذه هي هيات !

أما روسيا الشيوعية فليست إلا ثمرة الحضارة الغربية ، قد أينعت وأدركت ، ولا تمتاز عن الشعوب والدول الأوروبية إلا أن روسية قد خلعت جلباب النفاق والزور ونفذت ما تزوره وتبطنه الأمم الغربية منذ زمن طويل ، وتعتقده منذ قرون في الأخلاق والاجتماع ، وقد استبطأت روسية سير هاتيك الأمم والدول في سبيل

الإلحاد واللا دينية والإباحة والمادية البهيمية ، فهي تريد أن تتولى قيادة العالم ، وتسير
بالأمم الإنسانية سيراً حثيثاً إلى ما وصلت إليه .

الشعوب والدول الآسيوية :

أما الشعوب والدول الآسيوية والأمم الشرقية فهي في طريقها إلى الغاية التي
وصلت إليها شعوب أوروبا في الحضارة والسياسة ، وتدين بما تدين به هذه الشعوب
في الأخلاق والآداب والاجتماع ، وتعتقد بما تعتقد به عن الحياة والكون ، وتتجلى
بما تتجلى به من سيرة وخلق وتهذيب ، إلا أنها لا ترضى أن يتولى أمرها النزلاء
الأجانب ويقيموا عليها الحجر كما يقام على السفينة ، وأن تكون للأوربيين عليها
دول وامبراطوريات ينعمون في ظلها ويرتعون في جنباتها ، ولا يكون لها مثلها في
الشرق وأفريقية وآسيا ، ولا تستمتع حتى في داخل بلادها بما استمتع به الأوربيون
طويلاً حتى في خارج بلادهم . أما أنها تنكر على الأوربيين ماديتهم وتنقم منهم
أخلاقهم وسيرتهم وتنعى عليهم فلسفتهم ومبادئهم فاعل ذلك لا يخطر منها على بال ،
بل قد زين لها كل ما تتصف به الأمم الأوربية خلى في عينها .

وكما سنحت لهذه الأمم فرصة الاستقلال وملكت زمام أمورها تجلت أخلاقها
ومبادئها وظهرت سيرتها الجاهلية في صورتها الطبيعية الحقيقية ، فإذا هي أرفع صورة
وأشعها في التاريخ ، قساوة قلب وضراوة بالدم الإنسانى وهتكاً للأعراض ونهباً
للأموال وقتلاً وتدميراً ، وقد ظهرت من بعض هذه الشعوب الآسيوية على أثر
استقلالها من الحكم الأجنبي فظائع ومنكرات تسببها الوحوش والسباع وتستك
منها الأسماع ، فقد عاملت بعض الشعوب المواطنة بعصبية دينية وسياسية معاملة
عزَّ نظيرها في التاريخ ، رضعاء يقتلون ويقطعون إرباً إرباً ، ونساء تهتك أعراضهن
ثم يقتلن من غير رحمة ولا حياء ، وآبار تسمم وبيوت تهدم ونيران تشعل وقنابل
تقذف ، وإذا دخلوا قرية فأنحبن منتصرين أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ووضعوا

فيها السيف ، وعاث الوحوش في الدماء والأعراض حتى قفرت القرى ، وامتألت الآبار بالسيدات اللاتي آثرن الموت على هتك الأعراض ، هذا عدا نساء قتلن بهمجية وطرق فظيعة لم تسبق في التاريخ ، إلى غير ذلك من الأفاعيل التي يشك فيها الناس في البلاد الإسلامية والمتحضرة .

هذا غير ذلك الاضطهاد الديني والمقاطعة الاجتماعية التي تلقاها تلك الطوائف في بلادها ، وما تلقى ثقافتها وديانتها من مطاردة ومهاجمة من تلقاء هذه الشعوب ، فتحرم من الحرية الثقافية واللسانية وترغم على لغة مصطنعة دائرة ، ويحاول الأقوياء أن يمحوا كل أثر من آثار حضارتها وثقافتها ، ويختلفوا عليها الأكاذيب والجنائيات ، ويمثلوا قصة الحمل والذنب كل يوم ، فيعزل رجالها من الوظائف وتسد في وجوههم أبواب المعاش والتجارة والحرف ، وتقفل دكاكينهم ومحالهم التجارية وتصادر أملاكهم وأموالهم بعلل واهية مضحكة .

نم إن هذه الأمم أفلست إفلاساً شائناً في الدين والأخلاق ، وقد أشربت في قلوبها حب المال والمادة ، وتسلب عليها شيطان الأثرة والجشع حتى ضجت منها الحكومات وتعبت ، فقدرت أسعار ارتفاعاً فاحشاً ، فلما التجأت الحكومة إلى التسعير اختفت السلع والأموال ، وأصبح الناس لا يجدون كسوة ولا طعاماً ولا حاجة إلا بالسعر الذي يريده التاجر ، فنفت السوق السوداء وشاعت الجنائيات والخيانات والارتشاء والتهريب ، وأصبحت الحكومة والتجار كفرنسي رهان أو قرني ميدان كل يريد أن يغلب صاحبه ويتهمز غرته ، وأصبح الناس حبة بين حجري الرحي لا يدرون كيف يفعلون .

وقد حاول رجال الإصلاح والديانة أن ينفخوا في هذه الأمم حياة جديدة ويثبثوا فيها روح الأخلاق والفضيلة والأمانة والاقتصاد ففشلوا فشلاً تاماً ، وعلموا أن خلق أمة بأسرها أهون من إصلاح هذه الأمم وتهذيبها وقد انقطعت مادتها وانقضى أجلها .

وهكذا أصبح العالم شرقاً وغرباً في أزمة روحية وخلقية واجتماعية واقتصادية
تطلب حلاً سريعاً عاجلاً .

الحل الوحيد للأزمة العالمية :

والحل الوحيد هو تحويل القيادة العالمية ، وانتقال دفة الحياة من اليد الأثيمة
الخرفاء التي أساءت استعمالها إلى يد أخرى بريئة حاذقة .

إن تحويل القيادة من بريطانيا إلى أمريكا ومنهما جميعاً إلى روسيا لا يغني
غناء ولا يُغيّر من الموقف شيئاً ، فإن هذا التحويل ليس إلا نقل المجذاف من
اليمن إلى الشمال إذا تعبت الأولى أو بالعكس ، فما دام المجذّف واحداً
فلا فرق بين يمينه وشماله ، وليست بريطانيا وأمريكا وروسيا إلا أيدي رجل واحد
تداول دفة الحياة ، وتتناوب تجديف السفينة على خط واحد إلى جهة واحدة .

إن التحوّل المؤثر الواضح هو تحويل القيادة من أوروبا — بالمعنى الواسع
الذي يشمل بريطانيا وأمريكا وروسيا ومن كان على شاكلتها من الأمم
الآسيوية والشرقية — التي تقودها المادية والجاهلية ، إلى العالم الإسلامي الذي
يقوده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم برسالته الخالدة ودينه الحكيم .

هذا هو التحوّل الذي يُغيّر وجه التاريخ ، ويحوّل محرى الأمور وينقذ العالم
من الساعة الرهيبة التي ترقبه .

إن حقاً على العالم الإسلامي أن يمتحن نفسه بهذا المنصب الخطير ، وبطمح
إليه ، وإن حقاً على كل بلد إسلامي وشعب إسلامي أن يشد حيازيمه لذلك ،
وإن حقاً على كل مسلم أن يجاهد في سبيله ويبذل ما في وسعه ، فهذه هي
المهمة الشريفة التي نيطت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود ، ويوم
ظهرت نواتها في جزيرة العرب .

العالم الإسلامي على أثر أوروبا :

من الغريب الواقع أن المسلمين قد أصبحوا في الزمن الأخير في كثير من نواحي الأرض حتى في مراكز الإسلام وعواصمه حلفاء للجاهلية الأوروبية وجنوداً متطوعين لها ، بل صار بعض الشعوب والدول الإسلامية يرى في الشعوب الأوروبية التي تزعمت حركة الجاهلية منذ قرون ونفخت فيها روحاً جديدة ، وركزت أعلامها على الشرق والغرب ، ناصراً للمسلمين ، حامياً لدمار الإسلام المستضعف ، حاملاً لراية العدل في العالم قوَّاماً بالقسط .

ورضى عامة المسلمين بأن يكونوا ساقية عسكر الجاهلية بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامي ، وسرت فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوروبية مريان الماء في عروق الشجر والكهرباء في الأسلاك ، فترى المادية الغربية في البلاد الإسلامية في كثير من مظاهرها وآثارها ، ترى تهافتاً على الشهوات ونهماً للحياة نهم من لا يؤمن بالآخرة ، ولا يؤمن بحياة بعد هذه الحياة ، وبدار غير هذه الدار فهو خليق بأن يقضى نهمته ، ويشفى غلته في هذه الحياة ، ولا يدخر من طيباتها شيئاً . وترى تنافساً في أسباب الجاه والفخار وتكالباً عليها فعل من يغلو في تقويم هذه الحياة وأسبابها ، وترى إشاراً للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ والأخلاق ، شأن من لا يؤمن بنبي ولا بكتاب ، ولا يرجو معاداً ، ولا يخشى حساباً . وترى حباً للحياة وكراهة للموت ، دأب من يعدد الحياة الدنيا رأس بضاعته ، ومنتهى أمله ، ومبلغ علمه ، وترى افتتاناً بالزخارف والمظاهر الجوفاء كالأمم المادية التي ليس عندها أخلاق ولا حقيقة روح ، وترى خضوعاً للإنسان ، واستكانة للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب وتقديسهم شأن الأمم الوثنية وعبدّة الأصنام .

المسلمون على علمهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل :

ولكن برغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض ، التي تعد خصيم الأمم الغربية وغر يمتها ومنافستها في قيادة الأمم ، ومزاحمتها في وضع العالم ، والتي يعزم عليها دينها أن تراقب سير العالم ، وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها ، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى ، وإلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وتحول بينها وبين جهنم بما استطاعت من القوة ، والتي يحرم عليها دينها ويأبى وضعها وفطرتها أن تتحول أمة جاهلية .

هذه هي الأمة التي يمكن أن تعود في حين من الأحيان خطراً على النظام الجاهلي الذي بسطته أوروبا في الشرق والغرب وأن تحبط مساعيها .

وقد وصف هذا الخطر شاعر الإسلام الحكيم محمد إقبال في قصيدته البديعة :
(برلمان إبليس) على لسان إبليس ، ذكر فيها أن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى ، وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسي ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار قد أهدت بهم وهددت نظامهم ، وجللوا خطبها وتناذروا شرها ، فذكر أحدهم الجمهورية وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولك أمرها فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ، إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها ، فألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك . إن الملوكية لا تنحصر في وجود شخص ترتكز فيه الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالاً على غيره مستشرقاً إلى متاع غيره ، سواء في ذلك الشعب والفرد . أما رأيت نظام الغرب الجمهوري وجهه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيز خان ! .

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب

المحترم في هذه الفتنة الدّهاء، التي أثارها هذا اليهودي الذي يدعى كارل ماركس ،
ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ولكنه يحمل عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك
نبأ أنه أقام العالم وأقعدته ، وأثار العبيد على السادة حتى ترعزعت مباني الإمارة
والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحب الفخامة ، إن سحرة أوربا وإن
كانوا مرديدك المخلصين ولكني لم أعد أثق بفراستهم ، هاهو السامري اليهودي
الذي هو نسخة من مزدك (الزعيم الفارسي الاشتراكي) قد كاد يأتي على
العالم بقواعده فاستنسر البغاث ، وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب
ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحا) إنا قد استهنا بخطب هذه
الحركة الاشتراكية وهامى قد استفحلت وتفاقم شرها ، وهامى الأرض ترجف
بهول فتنة الغد ، ياسيدى إن العالم الذي كنت تحكمه سينقض عليك ، وينقلب
نظام العالم ظهراً لبطن !

فتكلم رئيس المجلس (إبليس) وقال : إني أملك زمام العالم وأنصرف
به كيف أشاء ، وسيرى العالم عجيباً إذا حرّشت بين الأمم الأوروبية فتهاشرت
تهارش الكلاب ، وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب ، وإذا همست في آذان القادة
السياسيين وأساقف الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم وجن جنونهم .
أما ما ذكرت من الاشتراكية فكونوا على ثقة أن الخرق الذي أحدثته
الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفأه المنطق المزدكي (الفلسفة الاشتراكية) .
لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفاً فإني أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة في
رمادها ، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على
خدودهم سحراً ، لا يخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية
المستقبل ؛ ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير أن ليل الشرق داج مكفهر ، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم ، ولكنني أخاف أن قوارع هذا العصر وهزته ستقضي مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة (محمد صلى الله عليه وسلم) . إني أحذركم وأذكركم من دين محمد (صلى الله عليه وسلم) حامى الذمار ، حارس الذم والأعراض ، دين الكرامة والشرف ، دين الأمانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغى كل نوع من أنواع الرق ، ويمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكى المال من كل دنس ورجس ويجعله نقياً صافياً ، ويجعل أصحاب الثروة والملوك مستخلفين في أموالهم ^(١) أمناء لله وكلاء على المال . وأى ثورة أعظم وأى انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلطين .

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ، وليهتكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه ، فخير لنا أن يترك مشغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على آذان المسلم فإنه يستطيع أن يكسر طلائع العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطىء سحره ، اشغلوهم يا إخواني عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان في العالم . خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجر هذا العالم ويعتزل ويتنازل عنه لغيره زهداً فيه واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعتسه .

(١) أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . (الحديد)

رسالة العالم الإسلامي :

لا ينهض العالم الإسلامي إلا برسائله التي وكلها إليه مؤسسه صلى الله عليه وسلم والإيمان بها والاستماتة في سبيلها ، وهي رسالة قوية واضحة مشرقة ، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أيمن للبشرية منها .

وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون في فتوحهم الأولى ، والتي تلخصها أحد رسلهم في مجلس يزدجرد ملك إيران بقوله : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » رسالة لا تحتاج إلى تغيير كلمة وزيادة حرف ، فهي منطبقة تمام الانطباق على القرن العشرين انطباقها على القرن السادس المسيحي ، كأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خرج المسلمون من جزيرتهم لإنقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية .

فلا يزال الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم — من أوثان منحوتة ومنجورة ومقبورة ومنصوبة — ولا تزال عبادة الله وحده مغلوطة غريبة ، ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق ، ولا يزال إله الهوى يعبد ، ولا يزال الأحرار والرهبان والملوك والسلاطين وأصحاب القوة والثروة والزعماء والأحزاب السياسية أرباباً من دون الله تقرب لها القرايين وينصب لها الجبين .

وكذلك العالم اليوم رغم انساعه وتوفر وسائل السفر والانتقال من مكان إلى مكان ، واتصال الشعوب والأمم بعضها ببعض أضيق بأهل منه بالأمس ، قد ضيقته المادية التي لا تنظر إلا إلى قدمها ولا تؤمن إلا بفائدة صاحبها ، ولا تعرف غير العكوف على الشهوات وعبادة الذات . وقد خنقته الأثرة التي لا تسمح لثنين بالعيش في إقليم واسع ، والوطنية الضيقة التي تنظر إلى كل أجنبي شزراً ، وتجحد له كل فضل وتحرمه من كل حق .

ثم ضَيَّقَ خناق هذه الحياة المادية المسيطرون السياسيون الذين يحتكرون وسائل الحياة والرزق والقوت ، يضيقون هذه الحياة لمن شاءوا ويوسعونها لمن شاءوا ويسطون الرزق — زعموا — لمن شاءوا ويقدرونه لمن شاءوا ، فأصبحت المدن الواسعة أضيق من جحر ضب ، وأصبح الناس في بلادهم في شبه حَجَرٍ كحجر السفينة والينيم ، وضائق على الناس الأرض بما رحبت وضائق عليهم أنفسهم ، وأصبح الناس في أغلال وأصفاد من المدينة والمملكة مُهَدَّدين في كل وقت بمجاعات مصطنعة وحقيقية ، وحروب خارجية وداخلية ، وإضرابات واضطرابات أسبوعية ويومية .

نعم ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ! ولا تزال في هذا العصر المتنور الراقى المثقف أديان تعبت بعقول الناس وتسخرهم كالخمر والبقر ، وتزني لأتباعها قتل مئات من البشر لأجل بقرة ذبحت في عيد الأضحى ، أو شجرة مقدسة عُصِدَتْ في قرية من القرى .

وهناك أديان بغير اسم الأديان لا تقل في نفوذها وسلطانها ، ولا تقل في جورها وعدوانها وعبثها بعقول أتباعها وفي عجائبها عن الأديان القديمة ، وهي النظم السياسية والنظريات الاقتصادية التي يؤمن بها الناس كدين ورسالة ، كالجنسية والوطنية ، والديمقراطية والاشتراكية ، والدكتاتورية والشيوعية ، وهي أقل مسامحة لمن لا يدين بها وأشد قسوة على منافسيها ، وأضيق عطنا من الأديان الجاهلية ، والاضطهاد السياسي اليوم أفظع من الاضطهاد الديني في القرون المظلمة ، فإذا تغلب حزب من الأحزاب الوطنية أو ساد مبدأ من المبادئ السياسية ، أو انتصر فريق على فريق في الانتخاب سدَّ في وجه منافسه الأبواب وعدَّبه أشد العذاب . وما حرب إسبانيا الأهلية التي دامت مدة طويلة ، وسفكت فيها دماء غزيرة ، وما حرب الصين التي قامت بين الجمهوريين والشيوعيين من أهل الصين ، وحرب كوريا التي قامت بين الجنوبيين الشماليين ، إلا نتيجة اختلاف في العقيدة السياسية والنظريات الاقتصادية .

فرسالة العالم الإسلامي هي الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر ، وجائزته

الخروج من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها في هذا العصر أكثر من كل عصر ، فقد افتضحت الجاهلية وبدت سوائها للناس واشتدّ تدمر الناس منها ، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام ، لونهض العالم الإسلامي ، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة ، ودان بها كالرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال .

الاستعداد الروحي :

ولكن العالم الإسلامي لا يؤدي رسالته بالمظاهر المادية التي جادت بها أوروبا على العالم ، وبحذق لغاتها وتقليد أساليب الحياة التي ليست من نهضة الأمم في شيء . إنما يؤدي رسالته بالروح والقوة المعنوية التي تزداد أوروبا كل يوم إفلاساً فيها ، وينتصر بالإيمان والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات ، والشوق إلى الشهادة والحنين إلى الجنة ، والزهد في حطام الدنيا وتحمل الأذى في ذات الله صابراً محتسباً ، قال الله تعالى : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » ففوة المؤمن وسر انتصاره في إيمانه بالآخرة ورجائه لثواب الله ، فإذا كان العالم الإسلامي لا يرى إلا ما تراه أوروبا من العرض القريب ، ولا يطمح إلا فيما تطمح فيه أوروبا من حطام الدنيا ، ولا يؤمن إلا بما تؤمن به أوروبا من المحسوسات والماديات ، كانت أوروبا بقوةها المادية أحق بالانتصار والسيادة من العالم الإسلامي الذي يتخلف عنها في القوة المادية تخلفاً شائناً ولا يفوقها في القوة المعنوية .

لقد أتى على العالم الإسلامي حين من الدهر وهو مستخف بهذه القوة المعنوية لا يحتفل بها ، ولا يحتفظ بالبقية منها ، ولا يغذيها ، حتى انضب معينها في قلبه ، فلما خاض العالم الإسلامي في المعارك التي تحتاج إلى الإيمان ، والصبر والثبات ،

وتحمل الشدائد والنكبات ، وزلزل بعض الزلزال ، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين ، كانت كسراب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، هنالك عرف أنه قد جنى على نفسه جناية عظيمة بإهمال هذه القوة الروحية وتضييعها ، وبحث في جعبته فلم يجد شيئاً يسد مكانها ويغني غناءها .

وخاض العالم الإسلامي في معارك حاسمة ، وهو يرى أن المسلمين تقوم قيامتهم ، وسوف يهرعون للدفاع عن الإسلام وحماية بلادهم المقدسة ، ويفضون لله ورسوله وحرّماته ، وإن الأقطار الإسلامية تشتعل ناراً وتتوقد حمية وحاسة ، فإذا الحادث لم يؤثر في العالم الإسلامي التأثير المنتظر ، وإذا النصر ضئيل والسخط خافت ، وإذا العالم الإسلامي كعادته في غدواته وروحاته ، منهمك في لذاته وشهواته ، كأن لم يحدث كبير شيء ، فعرف أن الحمية الدينية قد ضعفت في العالم الإسلامي ، وأن شعلة الجهاد قد انطفأت أو كادت ، وهنالك عرف الناس ضعف العالم الإسلامي وخذلانه وهوانه على أنفسهم .

فالمهم الأهم لقادة العالم الإسلامي وجمعياته وهيئاته الدينية والدول الإسلامية غرس الإيمان في قلوب المسلمين وإشعال العاطفة الدينية ، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله ، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأولى ، لاندخر في ذلك وسعاً ، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة ، وطرق النشر والتعليم ، كتجوال الدعاة في القرى والمدن ، وتنظيم الخطب والدروس ، ونشر الكتب والمقالات ، ومدارس كتُب السيرة ، وأخبار الصحابة ، وكتب المغازي والفتوح الإسلامية ، وأخبار أبطال الإسلام وشهادته ، ومذاكرة أبواب الجهاد ، وفضائل الشهداء ، وتستخدم لذلك الراديو والصحافة وكتب الأدب ، وجميع القوى ، والوسائل العصرية .

والقرآن وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحاسة والإيمان ، وتحثا في كل وقت ثورة عظيمة على

العصر الجاهلي ، وتجعلنا من أمة مستسلمة ، منخذلة ناعسة ، أمة فتية ماتهية حماسة وغيرة وحنقا على الجاهلية وسخطا على النظم الجائرة .

إن علة علل العالم الإسلامي اليوم هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها ، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحياة ، فلا يقلقه فساد ، ولا يزعجه انحراف ، ولا يهيجه منكر ، ولا يهيمه غير مسائل الطعام واللباس . ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية — إن وجدا إلى القلب سييلا — يحدث صراع بين الإيمان والنفاق ، واليقين والشك ، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة ، وبين راحة الجسم ونعيم القلب ، وبين حياة البطالة وموت الشهادة ، صراع أحدثه كل نبي في وقته ولا يصلح العالم إلا به ، حينئذ يقوم في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، بل في كل أسرة إسلامية في كل بلد إسلامي « فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إلهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا » .

هنالك تتجدد ذكرى بلال ، وعمر ، وخباب ، وخبيب ، وصهيب ، ومصعب ابن عمير ، وعثمان بن مظعون ، وأنس بن النضر . هنالك تفوح روائح الجنة ، وتهب نفحات القرن الأول ، ويولد للإسلام عالم جديد لا يشبه العالم القديم في شيء . . .

الاستعداد الصناعي والحربي :

ولكن مهمة العالم الإسلامي لا تنتهي هنا ، فإذا أراد أن يضطلع برسالة الإسلام ويملك قيادة العالم فعليه بالمقدرة الفائقة ، والاستعداد التام في العلوم والصناعة والتجارة وفن الحرب ، وأن يستغنى عن الغرب في كل مرفق من مرافق الحياة ، وفي كل حاجة من الحاجات ، يقوت ويكسو نفسه ، ويصنع سلاحه ، وينظم شئون حياته ، ويستخرج كنوز أرضه وينتفع بها ، ويدير حكوماته برجاله وماله ، ويمخر (م ١٦ — ماذا خسر العالم)

بحاره المحيطة به بسفنه وأساطيله ، ويحارب العدو ببوارجه ودباباته وأسلحة بلاده ،
وتزيد صادراته على وارداته ، ولا يحتاج إلى الاستدانة من الغرب ، ولا يضطر إلى
أن يلجأ إلى راية من راياته وينضم إلى معسكر من معسكراته .

أما مادام العالم الإسلامي خاضعاً للغرب في العلم والسياسة والصناعة والتجارة ،
يتمتع الغرب دمه ، ويحفر أرضه فيستخرج منها ماء الحياة ، وتغزو بضائعه أسواق
العالم الإسلامي وييوته وجيوبه كل يوم فتستخرج منها كل شيء . ومادام العالم
الإسلامي يستدين من الغرب الأموال ، ويستعير منه الرجال ، ليدبروا حكومته ،
ويشغلوا الوظائف الخطيرة ويدربوا جيوشه ، ويستورد منه البضائع ويحلب منه
الصنائع ، وينظر إليه كأستاذ ومربٍّ ، وسيد ورب ، لا يهرم أمراً إلا بإذنه
ولا يصدر إلا عن رأيه ، فلا يستطيع أبداً أن يواجه الغرب فضلاً عن أن
يناهضه ويغالبه .

هذه هي الناحية العلمية والصناعية التي أدخل بها العالم الإسلامي في الماضي
فموقب بالعبودية الطويلة والحياة الذليلة ، وابتلى العالم الإسلامي بالسيادة الأوربية
الجائرة التي ساقته إلى النار والدمار والتناحر والانتحار ، فإن فرط العالم
الإسلامي مرة ثانية في الاستعداد العلمي والصناعي والاستقلال في شئون حياته
كُتب الشقاء للعالم وطالت محنة الإنسانية وبلاؤها .

التنظيم العلمي الجبريد :

ولابد للعالم الإسلامي من تنظيم العلم الجديد بما يوافق روحه ورسالته . وقد ساد
العالم الإسلامي على العالم القديم بزعامته العلمية ، ففسرَ بذلك في عقلية العالم
وثقافته ، وتغلغل في أحشاء الأدب والفلسفة ، وظل العالم المتمدن قروناً يفكر بعقله
ويكتب بعقله ويؤلف بلغته ، فكان المؤلفون في إيران وتركستان وأفغانستان والهند
لا يؤلفون كتاباً له شأن إلا باللغة العربية ، وكان بعضهم يؤلف الأصل بالعربية
ويلخصه بالفارسية كما فعل الغزالي في « كيمياء السعادة » ، وإن كانت هذه الحركة

العلمية التي ظهرت في صدر الدولة العباسية متأثرة باليونان والعجم ، وغير مؤسسة على الفكر الإسلامي النقي والروح الإسلامي ؛ وإن كانت فيها مواضع ضعف من الناحية العلمية والدينية ، ولكنها سادت على العالم بقوتها ونشاطها ، وازدهرت أمامها النظم العلمية القديمة .

وجاءت نهضة أوروبا فنسخت هذا النظام القديم باختباراتنا وتقدها العلمي ، ووضعت منهاجاً جديداً للعلم والدراسة كان نسخة صادقة لروحها وعقليتها ونفسياتها المادية ، فلا يخرج منه الطالب إلا وهو متشبع بهذه الروح ، وخضع العالم مرة ثانية لهذا النظام التعليمي وخضع له العالم الإسلامي بطبيعة الحال — إذ كان مصاباً بالانحطاط العلمي والشلل الفكري من زمان ، وكان لا يجد المدد والقوت إلا في أوروبا — فقبل هذا النظام التعليمي على علاته ، فهو النظام السائد اليوم في أنحاء العالم الإسلامي .

وكانت نتيجة هذا النظام الطبيعية ، صراعاً بين النفسية الإسلامية — إن كانت لا تزال في الشباب لم تقتلها البيئة — وبين النفسية الجديدة ، وبين وجهة الأخلاق الإسلامية ووجهة الأخلاق الأوروبية ، وبين الميزان القديم والجديد للأشياء وقيمتها ، وكانت نتيجة هذا النظام حدوث الشك والنفاق في الطبقة المثقفة ، وقلة الصبر ونهاية الحياة وترجيح العاجل على الآجل ، إلى غير ذلك مما هو من طبائع المدنية الأوروبية .

فإذا أراد العالم الإسلامي أن يستأنف حياته ، ويتحرر من رق غيره ، وإذا كان يطمح إلى القيادة ، فلا بد إذن من الاستقلال التعليمي ، بل لابد من الزعامة العلمية ، وما هي بالأمر الهين ، إنها تحتاج إلى تفكير عميق ، وحركة التدوين والتأليف الواسعة ، وخبرة إلى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر مع التشبع بروح الإسلام والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه ، إنها مهمة تنوء بالعصبة أولى القوة ، إنها هي من شأن الحكومات الإسلامية ، فتتظم لذلك جمعيات وتختار لها أساتذة بارعين في كل

فن فيضعون منهاجاً تعليمياً يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التي لا تتبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار ، ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامى على أساس الإسلام وبروح الإسلام ، وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد ، مما ينظمون به حياتهم ويحافظون به على كياناتهم ويستغنون به عن الغرب ويستعدون للحرب ، ويستخرجون به كنوز أرضهم وينتفعون بخيرات بلادهم ، وينظمون مالية البلاد الإسلامية ، ويديرون حكوماتها على تعاليم الإسلام بحيث يظهر فضل النظام الإسلامى فى إدارة البلاد ، وتنظيم الشؤون المالية على النظم الأوربية ، وتنحل مشا كل اقتصادية عجزت أوروبا عن حلها .

وبالاستعداد الروحى والاستعداد الصناعى والحربى والاستقلال التعليمى ينهض العالم الإسلامى ، ويؤدى رسالته وينقذ العالم من الانهيار الذى يهدده . فليست القيادة بالهزل ، إنما هى جد الجدد ، فتحتاج إلى جد واجتهاد ، وكفاح وجهاد ، واستعداد أى استعداد :

كل امرئ يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

الفصل الثاني

زعامة العالم العربي

أهمية العالم العربي :

إن العالم العربي له أهمية كبيرة في خريطة العالم السياسية ، وذلك لأنه وطن أمم لعبت أ كبر دور في التاريخ الإنساني ، ولأنه يحتضن منابع الثروة والقوة الكبرى : الذهب الأسود الذي هو دم الجسم الصناعي والحربي اليوم ؛ ولأنه صلة بين أوروبا وأمريكا ، وبين الشرق الأقصى ؛ ولأنه قلب العالم الإسلامي النابض يتجه إليه روحياً ودينياً ويدين بحبه وولائه ؛ ولأنه عسى — لا قدر الله — أن يكون ميدان الحرب الثالثة ، ولأن فيه الأيدي العاملة ، والعقول المفكرة ، والأجسام المقاتلة ، والأسواق التجارية ، والأراضي الزراعية ؛ ولأن فيه مصر ذات النيل السعيد بنتاجها ومحصولها وخصبها وثروتها ورقبها ومدنيتها ؛ وفيه سورية وفلسطين وجاراتها ، باعتدال مناخها وجمال إقليمها وأهميتها الاستراتيجية ، وبلاد الرافدين بشكيمه أهلها ومنابع البترول فيها ؛ والجزيرة العربية بمركزها الروحي وسلطانها الديني ؛ واجتماع الحج السنوي الذي لا مثيل له في العالم وآبار البترول الغزيرة . كل ذلك قد جعل العالم العربي محط أنظار الغربيين ، وملقى مطامعهم ، وميدان تنافس لقياداتهم ، وكان رد فعله أن نشأ في العالم العربي شعور عميق بالقومية العربية ، وكثر التغني « بالوطن العربي » و « الجند العربي » .

محمد رسول الله روح العالم العربي :

ولسكن المسلم ينظر إلى العالم العربي بغير العين التي ينظر بها الأوربي ، وبغير العين التي ينظر بها الوطني العربي ، إنه ينظر إليه كمهد الإسلام ومشرق نوره ،

ومعقل الإنسانية ، وموضع القيادة العالمية ؛ ويعتقد أن سيدنا محمداً العربي هو روح العالم العربي وأساسه ، وعنوان مجده ؛ وأن العالم العربي — بما فيه من موارد الثروة والقوة وبما فيه من خيرات وحسنات — جسم بلا روح ، وخط بلا وضوح ، إذا انفصل — لا سمح الله بذلك — عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطع صلته بتمامه ودينه ؛ وأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي أبرز العالم العربي للوجود ، فقد كان هذا العالم وحدات مفككة ، وقبائل متناحرة ، وشعوباً مستعبدة ومواهب ضائعة ، وبلاداً تتسكع في الجهل والضلالات ، فكان العرب لا يحملون بمناجزة الدولة الرومية والفارسية ، ولا يخطر ذلك منهم على بال ، ولا يصدقون بذلك إذا قيل لهم في حال من الأحوال ، وكانت سورية التي تكون جزءاً مهماً من العالم العربي مستعمرة رومية تعاني الملكية المطلقة والحكم الجائر المستبد ، لا تعرف معنى الحرية والعدل ، وكان العراق مطية لشهوات الدولة السكيانية مثقلة بالضرائب المحجفة والآتاوات الفادحة . وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقية حلوباً ركوباً ، يجزون صوفها ويظلمونها في علفها ، ثم إنها تعاني الاضطهاد الديني مع الاستبداد السياسي ، فما لبث هذا العالم المفكك المنحل ، المظلوم المضطهد ، أن هبت عليه نفحة من نفحات الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، أدرك رسول الله هذا العالم وهو ضائع هالك ، وأخذ بيده وهو ساقط متهاك ، فأحياه بإذن الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس ، وعلمه الكتاب والحكمة وزكاه ؛ فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الإسلام ، ورسول الأمن والسلام ، ورائد العلم والحكمة ، ومشعل الثقافة والحضارة . كان غوثاً للأمم ، غيثاً للعالم ، هنالك كانت الشام ، وكان العراق ، وكانت مصر ، وكان العالم العربي الذي نتحدث عنه ، فلولا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولولا رسالته ، ولولا ملته ، لما كانت سورية ، ولا كان العراق ، ولا كانت مصر ، ولا كان العالم العربي ، بل ولا كانت الدنيا كما هي الآن حضارة وعقلا ، وديانة وخلقا ؛ فن استغنى عن دين الإسلام من شعوب العالم العربي وحكوماته وولّى وجهه

شطر الغرب أو أيام العرب الأولى ، أو استلهم قوانين حياته أو سياسته من شرائع الغرب ودساتيره ، ولم يرض برسول الله قائداً ورائداً ، وإماماً وفدوة ، فليرد على محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم نعمته ويرجع إلى جاهليته الأولى ، حيث الحكم الرومانى والإيراني ، وحيث الاستعباد والاستبداد ، وحيث الظلم والاضطهاد ، وحيث الجهل والضلالة ، وحيث الغفلة والبطالة ، وحيث العزلة عن العالم ، والنحول والجمود ، فإن هذا التاريخ المجيد ، وهذه الحضارة الزاهية ، وهذا الأدب الزاخر ، وهذه الدول العربية ، ليست إلا حسنة من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام .

الإيمان هو قوة العالم العربى :

فالإسلام هو قومية العالم العربى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو روح العالم العربى وإمامه وقائده ، والإيمان هو قوة العالم العربى التى حارب بها العالم البشرى كله فانتصر عليه ، وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس ، به يقهر أعداءه ، ويحفظ كيانه ، ويؤدى رسالته . إن العالم العربى لا يستطيع أن يحارب الصهيونية أو الشيوعية أو عدواً آخر بالمسال الذى ترضخه بريطانيا أو تنصدق به أمريكا ، أو تعطيه مقابل ما تأخذ من أرضه من الذهب الأسود ، إنما يحارب عدوه بالإيمان والقوة المعنوية ، وبالروح التى حارب بها الدولة الرومية والامبراطورية الفارسية فى ساعة واحدة فانتصر عليهما جميعاً . إنه لا يستطيع أن يحارب أعداءه بقلب يحب الحياة ويكره الموت ، وبجسم يميل إلى الدعة والراحة ، وعقل يخامر الشك وتتنازع فيه الأفكار والأهواء ، أو بيد مضطربة وقلب متشكك ضعيف الإيمان ، وقوة متخاذلة فى الميدان ؛ فالمهم لأمرء العرب وزعمائهم وقادة الجامعة العربية أن يفرسوا الإيمان فى الشعوب العربية ، وجماهير الأمة وأولياء الأمور ، والجيش العربية والفلاحين والتجار ، وفى كل طبقة من طبقات الجمهور ، ويشعلوا فيها شعلة الجهاد فى سبيل الله ، والتوق إلى الجنة ، ويبعثوا فيها الاستهانة بالمظاهر الجوفاء وزخارف الدنيا ، ويعلموهم كيف يتغلبون على شهوات النفس ومألوفات الحياة ،

وكيف يتحملون الشدائد في سبيل الله ، وكيف يستقبلون الموت بشفر باسم ،
وكيف يتهافتون عليه تهافت الفراش على النور .

العناية بالفروسية والحياة العسكرية :

من الحقائق المؤلمة أن الشعوب العربية قد فقدت كثيراً من خصائصها
العسكرية ، ورزئت في فروسيتها التي كانت معروفة بها في العالم ، فكانت رزيئة
كبيرة وخسارة فادحة ، وكانت سبباً من أسباب ضعفها وعجزها في ميدان الجهاد ،
فقد اضمحلت الروح العسكرية ، وضعفت الأجسام ونشأ الناس على التنعم ، وقد
حلت السيارات محل الجياد حتى كادت الخيل العربية تنقرض من الجزيرة العربية ،
وهجر الناس المصارعة والمناضلة وسباق الخيل وأنواع الرياضة البدنية والتدريبات
العسكرية ، واستبدلوا بها ألعاباً لاتفيدهم شيئاً ، فالمهم لرجال التعليم والترفيه وقادة
الشعوب العربية أن يربوا الشبيبة العربية على الفروسية والحياة العسكرية ؛ وعلى
البساطة في المعيشة وخشونة العيش والجلادة وتحمل المشاق والمتاعب ، والصبر على
المكروه ! .

وقد كتب المربي الكبير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى بعض عماله
العرب وهم في بلاد العجم : « إياكم والتنعيم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حاتم
العرب ، وتمعددوا^(١) ، واخشوشنوا^(٢) ، واخشوشبوا^(٣) ، واخلولقوا^(٤) ، واعطوا
الركب أسننها ، وانزوا نزوا ، وارموا الأغراض^(٥) » . وقد قال النبي صلى الله عليه

(١) تمعدد الغلام شب و غاظ . وقبل معناه : تشبهوا بعيش معسدين . وكان ذا غاظ
وقشف .

(٢) اخشوشن : تخشن في الطعام والملابس .

(٣) اخشوشب : صار صلباً كالخشب في أحواله وصبره على الجهد .

(٤) تبذلوا في الملابس .

(٥) رواه البغوي عن أبي عثمان النهدي .

وسلم : « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً^(١) » وقال : « ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي^(٢) » .

ومن واجب رجال التربية وولاة الأمر أن يحاربوا بكل قوتهم ما يضعف روح الرجولة والجلادة ويبعث على التخلف والعجز ، من عادات وأدب وصحافة وتعليم ، ويأخذوا على يد الصحافة المساجنة والأدب الخليع الملحد ، الذي ينشر في الشباب النفاق والدعارة والفسوق ، وعبادة اللذة والشهوات ، ولا يسمحوا لهؤلاء التجار الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا أن يدخلوا في معسكر محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعث ليطمئ مكارم الأخلاق ، ويفسدوا على الناشئة الإسلامية قلبها وأخلاقها ، ويزينوا لها الفسوق والمصيان ، وحب الفحشاء ، بثمن بخس دراهم معدودة ، وقد شهد التاريخ بأن كل أمة أصيب رجالها في رجولتهم وغيرتهم ، ونساؤها في أنوثتهن وأمومتهم ، ووطنى فيهن التبرج ، ومزاحمة الرجال في كل شيء ، والزهد في الحياة المنزلية ، وَحُبَّ إليهن العقم ، أفل نجمها وكسفت شمسها ، فأصبحت أترأ بعد عين .

هذه كانت عاقبة اليونان والرومان والفرس ، وإن أوروبا لفي طريقها إلى هذه العاقبة ، فليحذر العالم العربي من هذا المصير المائل .

محاربة التبذير والفرق السائل بين الفنى والصعلوك :

وقد اعتاد العرب لأسباب كثيرة وبتأثير الحضارة الغربية حياة الترف والدعة ، والاعتداد الزائد بالكفايات وفضول الحياة والإسراف والتبذير ، والاستهانة بمال الله في سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة .

وبجانب هذا الترف والنعيم وحياة البذخ والتبذير ، جوع وعرى وفقير فاضح ، يرى الناظر مناظره الشائنة في عواصم البلاد العربية فتدمع العين ويحزن القلب

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

وينتسكس الرأس حياءً وخجلاً ، فبينما هنالك رجل عنده فضول الثياب وزائد الطعام والشراب لا يعرف كيف يستهلكه ، إذا بيدوى لا يجد قوت يومه وكسوة جسمه ، وبينما أمراء العرب وأغنيائهم على سيارات تبارى الريح وتثير النقع ، إذا بفوج من النساء والأطفال عليه ثياب سوداء قد أصبحت خيوطاً من طول اللبس يعدو لأجل فلس أو قرص ؛ فما دامت المدن العربية تجمع بين القصور الشائخة والسيارات الفاخرة ، وبين الأكوخ الحقيرة والبيوت المتداعية الضيقة المظلمة ، وما دامت التخمّة والجوع يزخران في مدينة واحدة فالباب مفتوح على مصراعيه للشيوعية والثورات والاضطراب والقلق لا تقفها دعاية ولا قوة ، وإذا لم يسد النظام الإسلامى فى بلاده بجباله واعتداله يحل محله نظام جائر بعسفه وقهره عقاباً من الله كرد فعل عنيف .

استقلال البلاد العربية فى تجارتها وماليتها :

وكذلك لابد للعالم العربى — كالعالم الإسلامى — من الاستقلال فى تجارتها وماليتها وصناعاته وتعليمه ، لا تلبس شعوبه وجماهيره إلا ما تنبته أرضه وتنسجه يده ، وتستغنى عن الغرب فى جميع شئون حياتها ، وفى كل ما تحتاج إليه من كسوة وطعام ، وبضائع ، ومصنوعات ، وأسلحة ، وجهاز حربى ، وآلات وماكينات ، وأدوية ، فلا تكون كلاً على الغرب وعيالا عليه فى معيشتها ومتطفلة على مائدته .

إن العالم العربى لا يستطيع أن يحارب الغرب — إذا احتاج إلى ذلك ودعت إليه الظروف — وهو مدين له فى ماله ، عيال عليه فى لباسه وبضائعه ، لا يجد قلماً يوقع به على ميثاق مع الغرب ، إلا القلم الذى صنع فى الغرب ، ولا يجد ما يقاتل به الغرب ، إلا الرصاص الذى أفرغ فى الغرب . إن عاراً على الأمة العربية أن تعجز عن الانتفاع بمنابع ثروتها وقوتها ، وأن يجرى ماء الحياة من عروقها وشرابها إلى أجسام غيرها ، وأن يدرب جيوشها وكلاء الغرب وضباطه ، ويدبر بعض مصالح حكومتها رجاله ، فلا بد للعالم العربى أن يقوم هو نفسه بحاجاته ، وتنظيم التجارة

والمالية ، وحركة التوريد والتصدير والصناعة الوطنية وتدريب الجيش وصنع الآلات والمكينات ، وتربية الرجال الذين يضطلعون بجميع مهمات الدولة ووظائف الحكومة في خبرة ومهارة فنية وأمانة ونصيحة .

تقدم مصر في مبرانه التجارة والصناعة والعلم :

ولابد هنا من الاعتراف بأن مصر قد أثبتت كفايتها واستعدادها الكبير في ميدان العلم والصناعة ، وتربية الرجال ونشر الثقافة ، ونقل العلوم العصرية إلى اللغة العربية وبواسطتها إلى الأمة العربية ، وعنايتها بالصناعة الوطنية وتنظيم شئون دولتها ومالياتها على أساس العلم العصري ، أما فضلها على اللغة العربية وإحيائها للكتب العربية وتقدم الصحافة والطباعة وحركة النشر فيها فمن المآثر والمفاخر التي سيسجلها التاريخ ، ويردد صداها المستقبل ويدين بفضلها العرب جميعاً .

رجاء العالم الإسلامي من العالم العربي :

والعالم العربي بمواهبه وخصائصه وحسن موقعه الجغرافي وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام ، ويستطيع أن يتقلد زعامة العالم الإسلامي ويزاحم أوربا بعد الاستعداد الكامل ، وينتصر عليها بإيمانه وقوة رسالته ونصر من الله ، ويحوّل العالم من الشر إلى الخير ومن النار والدمار إلى الهدوء والسلام ، أو كما عبّر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد : « من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

هاهو العالم الإنساني يرنو إلى العالم الإسلامي كمنقذه ، وها هو العالم الإسلامي قد شخص ببصره إلى العالم العربي كزعيمه وإمامه ، فهل يحقق العالم الإسلامي أمل العالم البشري ؟ وهل يحقق العالم العربي رجاء العالم الإسلامي ؟ !

فهرس الكتاب

صفحة

تصدير :	لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى	٣
مقدمة :	للباحث الإسلامى الأستاذ سيد قطب	٨
أخى أبو الحسن :	لفضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى	١٣
كلمة المؤلف :		١٧

الباب الأول : العصر الجاهلى

الفصل الأول : الإنسانية فى الاحتضار ... ٢١

نظرة فى الأديان والأمم ٢٢ — المسيحية فى القرن السادس المسيحى ٢٢ — الحرب الأهلية الهندية فى الدولة الروحية ٢٣ — الانحلال الاجتماعى والقلق الاقتصادى ٢٤ — مصر فى الدولة الرومة ديانة واقتصاد ٢٥ — الحبشة ٢٧ — الأمم الأوربية الشمالية الغربية ٢٧ — اليهود ٢٨ — بين اليهود والمسيحيين ٢٩ — إيران والحركات الهدامة فيها ٣٠ — تقديس الأكاسرة ٣٢ — التفاوت بين الطبقات ٣٣ — تمجيد القومية الفارسية ٣٤ — عبادة النار وتأثيرها فى الحياة ٣٤ — الصين : دياناتها ونظمها ٣٥ — البوذية : تطوراتها وانحطاطها ٣٦ — أمم آسيا الوسطى ٣٨ — الهند : ديانة ، واجتماع ، وأخلاق ٣٨ — الوثنية المنطرفة ٣٨ — الشهوة الجنسية الجامحة ٣٩ — نظام الطبقات الجائر ٤٠ — امتيازات طبقة البرهمة ٤١ — المنبوذون الأشقياء ٤٢ — مركز المرأة فى المجتمع الهندى ٤٢ — العرب : خصائصهم ومواهبهم ٤٣ — وثنية الجاهلية ٤٤ — أصنام العرب فى الجاهلية ٤٤ — الآلهة عند العرب ٤٥ — اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب ٤٦ — الرسالة والإيمان بالبعث ٤٦ — الأدواء الخلقية والاجتماعية ٤٦ — المرأة فى المجتمع الجاهلى ٤٩ — العصبية القبلية والدموية فى العرب ٥٠ — ظهر الفساد فى البر والبحر ٥٢ — لمعات فى الظلام ٥٢ .
--

الفصل الثانى : النظام السياسى والمالى فى العصر الجاهلى ... ٥٥

المسكية المطلقة ٥٥ — الحكم الرومانى فى مصر والشام ٥٦ — نظام الجباية والحراج فى إيران ٥٧ — كنوز الملوك ومدخراتهم ٥٧ — الفصل التاسع بين طبقات المجتمع ٥٨ — الفلاحون فى إيران ٥٨ — الاضطهاد والاستبداد ٥٩ — المدنية المصطنعة والحياة المترفة ٥٩ — الزيادة الباهظة فى الضرائب ٦١ — شقاء لجمهور ٦٢ — بين غنى مطغ وفقير منس ٦٣ — تصور الجاهلية ٦٣ .

صفحة

الباب الثاني : من الجاهلية إلى الإسلام

الفصل الأول : منهاج الأنبياء في الإصلاح والانقلاب ... ٦٥

- العالم الذي واجهه محمد صلى الله عليه وسلم ٦٥ — نواحي الحياة الفاسدة ٦٦ —
- لم يكن الرسول رجلاً إفريقيًا أو زعيمًا وطنيًا ٦٧ — لم يبعث ليفسخ باطلاً بباطل ٦٨ —
- فقل الطبيعة البشرية ومفتاحها ٦٩ .

الفصل الثاني : رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام ... ٧٠

- دفاع الجاهلية عن نفسها ٧٠ — في سبيل الدين الجديد ٧١ — الزينة الدينية ٧٢ —
- في مدينة الرسول (س) ٧٢ — انحلت العقدة الكبرى ٧٣ — أغرب انقلاب
- وقع في تاريخ البشر ٧٤ — تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول ٧٤ —
- وخز الضمير ٧٦ — الثبات أمام المطامع والشهوات ٧٧ — الأنفة وكبر النفس ٧٨ —
- الاستهانة بالخوارف والمظاهر الجوفاء ٧٨ — الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة ٧٩ —
- من الأنانية إلى العبودية ٨١ — المحكمات والبيئات في الإلهيات ٨٢ .

الفصل الثالث : المجتمع الإسلامي ... ٨٤

- طاقة زهر ٨٤ — ليس منا من دعا إلى عصبية ٨٥ — كلكم راع وكلكم مشول
- عن رعيته ٨٥ — لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ٨٦ — حلول الرسول محل
- الروح والنفس من المجتمع ٨٦ — نوادر الحب والتفاني ٨٧ — عجائب الانقياد
- والطاعة ٨٩ .

الفصل الرابع : كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية ٩٣

كتلة بشرية مترنة ٩٥ .

الباب الثالث : العصر الإسلامي

الفصل الأول : عهد القيادة الإسلامية ... ٩٦

- الأئمة المسلمون وخصائصهم ٩٦ — دور الخلافة الراشدة مثل المدينة الصالحة ١٠٠ —
- تأثير الإمامة الإسلامية في الحياة العامة ١٠١ — المدنية الإسلامية وتأثيرها في الانجاء
- البشري ١٠٥ .

الفصل الثاني : الانحطاط في الحياة الإسلامية ... ١١٠

- الحد الفاصل بين العنصرين ١١٠ — نظرة في أسباب نهضة الإسلام ١١٠ — شروط
- الزعامة الإسلامية ١١١ — الجهاد ١١١ — الاجتهاد ١١٣ — انتقال الأمانة
- من الأكرفاء إلى غير الأكرفاء ١١٣ — تحريفات الحياة الإسلامية ١١٤ — فصل الدين
- عن السياسة ١١٤ — الزعماء الجاهلية في رجال الحكومة ١١٤ — سوء
- تمثيلهم للإسلام ١١٥ — قلة الاحتفال بالعلوم العملية المعقدة ١١٥ — الضلالات
- والبدع ١١٧ — إنكار الدين على المسلمين وإلهايته بهم ١١٧ — نتائج القرون
- المنحوسة ١١٨ — انهيار صرح القوة الإسلامية ١١٨ .

صفحة

الفصل الثالث : دور القيادة العثمانية ١٢٠

- العثمانيون على مسرح التاريخ ١٢٠ — تفوق محمد الفاتح في فن الحرب ١٢٠ — مزاي
- الشعب التركي ١٢١ — انحطاط الأتراك في الأخلاق وجمودهم في العلم وصناعة
- الحرب ١٢٣ — الجمود العلمي في تركيا ١٢٤ — الانحطاط الفكري والعلمي العام
- ١٢٦ — معاصرو العثمانيين في الشرق ١٢٧ — نهضة أوروبا الجاهلية وسيرها
- الحديث في علوم الطبيعة والصناعات ١٢٨ — تحلف المسلمين في مرافق الحياة
- ١٢٩ — تحلقهم في صناعة الحرب ١٢٩ —

الباب الرابع : العصر الأوربي

الفصل الأول : أوروبا المادية ١٣١

والمادية
العلمانية

- (لبسعة الحضارة الغربية وتاريخها ١٣١) — خصائص الحضارة الإغريقية ١٣٢ —
- خصائص الحضارة الرومية ١٣٦ — الانحطاط الخافي في الجمهورية الرومية ١٣٩ —
- تنصر الروم ١٤٠ — خسارة النصرانية في دولتها ١٤٠ — الرهبانية العاتية
- ١٤١ — عجائب الرهبان ١٤٢ — تأثير الرهبانية في أخلاق الأوربيين ١٤٣ —
- عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجامعة ١٤٣ — بين الرهبانية العاتية والمادية الجامعة
- ١٤٥ — الفساد في المراكز الدينية ١٤٦ — تنافس البابوية والإمبراطورية
- ١٤٦ — شقاء أوروبا برجال الدين ١٤٧ — جنائيات رجال الدين على الكتب
- الدينية ١٤٨ — اضطهاد الكنيسة للعلم ١٤٨ — ثورة رجال التجديد ١٤٩ —
- تقصير الثأرين وعدم ثبوتهم ١٥٠ — اتجاه الغرب إلى المادية ١٥١ — افئاض
- المادية في الدور الأخير ١٥٢ — جنود المادية ودعاتها ١٥٢ — نسخة صادقة من
- الحضارة اليونانية ١٥٣ — ديانة أوروبا اليوم المادية لا النصرانية ١٥٤ — مظاهر
- الطبيعة المادية في أوروبا ١٥٧ — الغايات المادية للحركات الروحية والعلمية ١٦٠ —
- التصوف المادي الغربي ووحدة الوجود الاقتصادية ١٦١ — نظرية دارون وتأثيرها
- في الأفكار والحضارة ١٦٣ — إقبال الجمهور على نظرية الارتقاء ١٦٤ — من
- جنائيات المادية ١٦٥ —

الفصل الثاني : الجنسية والوطنية في أوروبا ١٦٧

- انكسار الكنيسة اللاتينية سبب قوة العصبية والقومية والوطنية ١٦٧ — طرائق
- العصبية الجنسية في أوروبا ١٦٨ — عدوى الجنسية في الأقطار الإسلامية ١٧٠ —
- الديانة القومية الأوربية وأركانها ١٧٣ — الحل الإسلامي لمعضلة الحروب والمنافسات
- الشعوبية ١٧٥ — دعاية القوميين وإضرارهم بالشعوب الصغيرة ١٧٧ — مطامح
- الدول الكبيرة ١٧٨ — منافسة الشعوب في المستعمرات والأسواق ١٧٩ —
- الاستعمار الأوربي تجارة منظمة مؤمنة ١٨١ — الفرق بين حكم الجباية وحكم الهداية
- ١٨١ —

صفحة

الفصل الثالث : أوروبا إلى الانتحار ١٨٥

عصر الاكتشاف والاختراع ١٨٥ — الغاية من الصناعات والمخترعات وموقف
الإسلام منها ١٨٥ — إناطائركم معكم ١٨٧ — التخليط بين الوسائط والغايات
١٨٨ — عدم تعادل القوة والأخلاق في أوروبا ١٨٩ — قوة الآلهة وعقل الأطفال
١٩٠ — ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ١٩١ — أوروبا في حالة انتحار ١٩٢ —
القبيلة القذرية وفضائلها ١٩٣ — والذي خبت لا يخرج إلا نكدا ١٩٩ .

الفصل الرابع : رزايا الإنسانية المعنوية في عهد الاستعمار الأوربي ... ٢٠٢

بطلان الحاسة الدينية ٢٠٣ — زوال العاطفة الدينية ٢٠٧ — طغيان المادة والمعدة
٢١٤ — التدهور في الأخلاق والمجتمع ٢١٧ .

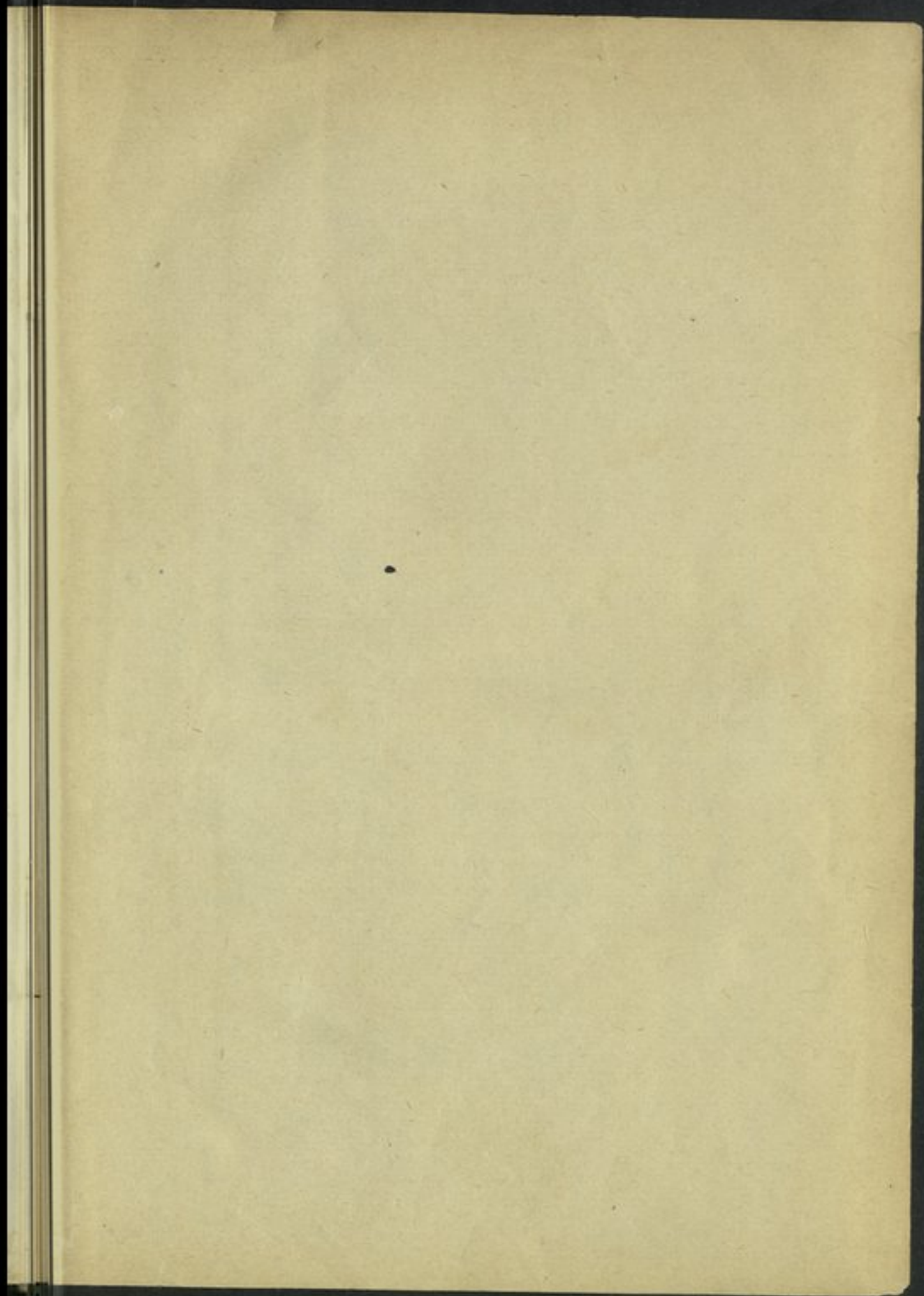
الباب الخامس : قيادة الإسلام للعالم

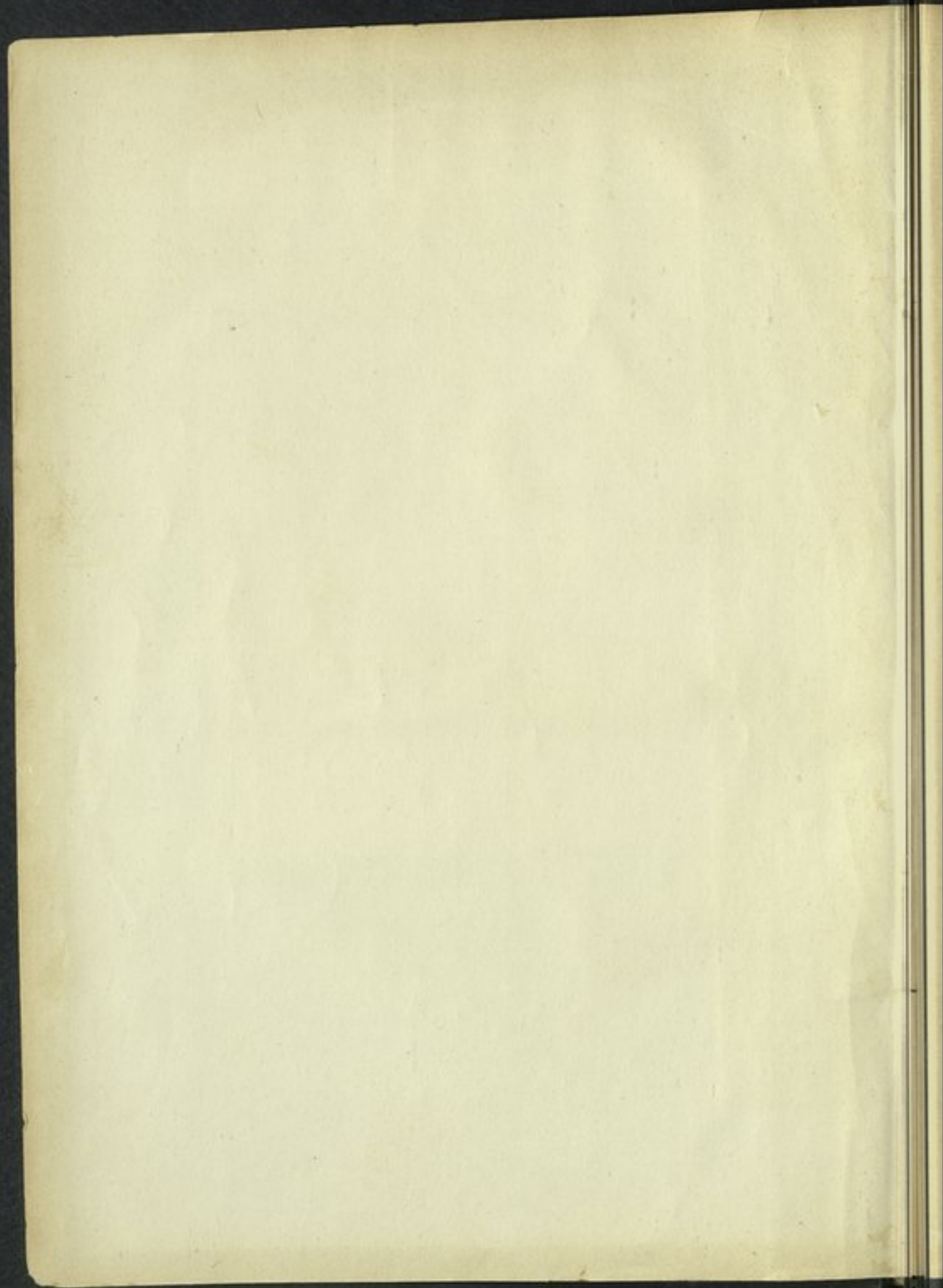
الفصل الأول : نهضة العالم الإسلامي ٢٢٨

(اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية ٢٢٨) — استيلاء الفلسفة الأوربية على العالم ٢٢٩ —
الشموب الآسيوية ٢٣٠ — الحل الوحيد للأزمة العالمية ٢٣٢ — العالم الإسلامي
على أثر أوروبا ٢٣٣ — المسلمون على علائهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل ٢٣٤ —
رسالة العالم الإسلامي ٢٣٧ — الاستعداد الروحي ٢٣٩ — الاستعداد الصناعي
والحربي ٢٤١ — التنظيم العلمي الجديد ٢٤٢ .

الفصل الثاني : زعامة العالم العربي ٢٤٥

أهمية العالم العربي ٢٤٥ — محمد رسول الله روح العالم العربي ٢٤٥ — الإيمان
هو قوة العالم العربي ٢٤٧ — العناية بالفروسية والحياة العسكرية ٢٤٨ — محاربة
التبذير والفرق المائل بين الغنى والصلوك ٢٤٩ — استغلال البلاد العربية في تجارتها
وماليتها ٢٥٠ — تقدم مصر في ميدان الصناعة والتجارة والعلم ٢٥١ — رجاء العالم
الإسلامي من العالم العربي ٢٥١ .





DATE DUE

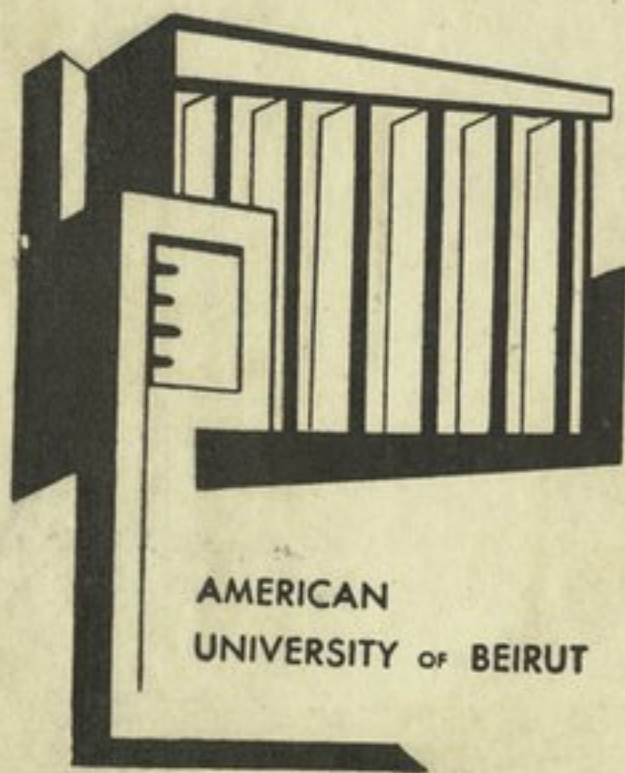
15 MAR 1999	
18 MAR 2010	14 MAY 2013
3 JAN 2004	28 JUN 2013
	7 MAY 2014

الحسين، ابو الحسن علي
ماذا خسر العالم بالتحطاط المسلمين

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01003014



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

909.09767
N138mA
1951
c.1